



مُحَمَّدٌ رَسُوْلُ اللهِ
وَالَّذِيْنَ مَعَهُ

٦

مَوْلِدُ الرَّسُوْلِ

عَبْدُ الْمُحَمَّدِ جُوْدَةُ السَّخَّارِ

السيرة النبوية

محمد رسول الله
والذي معه

مولد الرسول

عبد الحميد جوده السحار



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ * الحق من ربك فلا تكونن من الممترين * ﴿

(قرآن كريم)

كانا بيتين متجاورين خلف الكعبة ، أحدهما بيت زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، قريش العظيم ؛ والآخر بيت أخيه قصى أول بنى كعب بن لؤى ، أصاب ملكا أطاع له به قومه فكانت إليه الحجابة والسدانة والرفادة والندوة واللواء ، فحاز شرف مكة كله ، وقطع مكة رباعا بين قومه فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التي أصبحوا عليها ، ولما أرادت قريش البنيان قالوا لقصى :

— كيف نصنع في شجر الحرم ؟

فحذرهم قطعه وخوفهم العقوبة في ذلك ، فكان أحدهم يخوف بالبنيان حول الشجرة حتى تكون في منزله .

وجمع قصى قريشا حول الحرم فسمته مجمعا لما جمع من أمرها ، وتيمنت بأمره فما تنكح امرأة ولا يتزوج رجل من قريش وما يتشاورون في أمر نزل بهم ولا يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم إلا في داره يعقده لهم بعض ولده ، وما تدرع (تلبس الدرع) جارية إذا بلغت أن تدرع من قريش إلا في داره يشق عليها فيها درعا ثم تدرعه ثم ينطلق بها إلى أهلها ، فكان أمره في قومه كالدين المتبع لا يعمل بغيره .

وشرف بيتا الشقيقين زهرة وقصى وظلت أواصر المحبة متينة بين أبناء العم ، وذهب زهرة وذهب قصى فإذا بدار زهرة تضيق بأبنائه وإذا بدار قصى تضيق بأولاد عبد مناف وعبد الدار وعبد العزى وعبد قصى وتخمر

وبرة ، فابتنى أولاد زهرة دورا حول دار أبيهم وابتنى أبناء قصى دورا حول دار أبيهم . وقامت دور بنى زهرة إلى جوار دور بنى قصى وكانت ألوية السلام ترفرف على الجميع .

ولد عبد مناف أربعة نفر : هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل ، وكان عبد مناف قد شرف في زمان وذهب كل مذهب ، وكان عبد العزى قد ذاع صيته ، وكان عبد قصى قد علا ذكره ، ولم يكن خاملا من أبناء قصى إلا عبد الدار بكره ، فلما كبر قصى أشفق على عبد الدار وأراد أن يلحقه بإخوته فقال له :

— أما والله يا بنى لألحقتك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك ؛ لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها له ، ولا يعقد لقريش لواء الحربها إلا أنت بيدك ، ولا يشرب أحد بمكة إلا من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاما إلا طعامك ، ولا تقطع قریش أمرا من أمورها إلا في دارك . وأعطاه داره دار الندوة التي لا تقضى قریش أمرا من أمورها إلا فيها ، وأعطاه الحجابة والسقاية والرفادة ؛ وفتح قصى بتلك الوصية أبواب المشحاء بين أولاده .

ورأى بنو عبد مناف أنهم أولى من بنى عبد الدار بالحجابة واللواء والسقاية والرفادة ، لشرفهم عليهم وفضلهم في قومهم ، فأجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدي بنى عبد الدار . ففترقت عند ذلك قریش ، طائفة مع عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل يرون أنهم أحق بذلك الشرف من بنى عبد الدار وكان بنو زهرة منهم ، وطائفة مع عبد الدار يرون ألا ينزع منهم ما كان قصى جعل لهم .

وأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيبا ووضعوها لأحلافهم عند

الكعبة ، ثم غمس القوم أيديهم فيها ولم يتأخر أحد من بنى زهرة ، فتعاقدوا وتعاهدوا ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا على أنفسهم ..

كان بنو زهرة وبنو عبد مناف من المطيبين ، وكان بنو زهرة قد تأهبوا لخوض غمار الحرب لمساندة عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل . وكانوا على استعداد لأن يجودوا بدمائهم من أجل بنى عبد مناف ، لولا أن الفريقين المتنازعين قد تداعوا إلى الصلح على أن يعطوا بنى عبد مناف السقاية والرفادة ، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبنى عبد الدار كما كانت .

وكان عبد شمس رجلا سفارا قلما يعيش بمكة ، فولى هاشم بن عبد مناف الرفادة والسقاية وسن الرحلتين لقريش : رحلتى الشتاء والصيف . وقدم المدينة فتزوج سلمى بنت عمرو أحد بنى عدى بن النجار فربط الأسباب بين مكة والمدينة واليمن ، فقد كانت سلمى من الخزرج ، وكان الأوس والخزرج من اليمن .

وولد لهاشم شيبه وعرف بعبد المطلب ، فكان عبد المطلب جماع حضارة قريش وحضارة يثرب ومدينة سبأ .

ووقعت العداوة بين هاشم وبين أخيه أمية بن عبد شمس ، فقد كان هاشم يحمل ابن السبيل ويؤدى الحقوق ، يتلأأ وجهه بالنور ويضرب بجوده المثل . وأراد أمية أن يتشبه به فعجز عنه فشمت به ناس كثير من قريش ، فكانت المنافرة بين هاشم وأميه ، وقد حكم الحكم الذى احتكما إليه أن يخرج أمية من مكة عشر سنين وأن تذبح إبله ويطعمها الناس فكانت أول عداوة بين هاشم وأميه . وقد ورث بنو هاشم فيما ورثوا عدواتهم لبنى أميه ، وقد وقف بنو زهرة إلى جوار هاشم وسخروا فيمن سخر بأمية ابن أخيه .

وذاع صيت هاشم حتى طغى على صيت قصى فعرفت داره بدار هاشم

وعرف الحى الذى أقام فيه بنوه من بعده بحى هاشم . وظل اسم زهرة علما على قومه ولم يطغ عليه صيت أحد من بنيه وإن أنجب أشرافا كما أنجب قصى أشرافا ، وقد صار هاشم وزهرة أفضل حيين فى العرب .

كانت دور بنى هاشم إلى جوار دور بنى زهرة ، وقد صار عبد المطلب سيد بنى هاشم وزعيم قريش ، وانتهى أمر بنى زهرة إلى وهب ووهيب . وقد تزوج وهب برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى ، وعلى الرغم من زواجه حفيدة عبد الدار فقد كان قلبه مع عبد المطلب حفيد عبد مناف . وقد كان الود متصلا بين وهب ووهيب وعبد المطلب سيد قريش فما كان ينقضى يوم دون أن يجتمعوا فى دار الندوة أو فى ظل الكعبة أو فى دار من دورهم يتشاورون فى أمور دينهم ودنياهم .

وفتحت دار عبد المطلب وخرج منها زعيم قريش يحف به أبناؤه الحارث والزبير وحجل والمقدم وضرار وعبد العزى — وقد عرف بأبى لهب لإشراق وجهه — وعبد مناف الذى عرف بأبى طالب . فقد رأى عبد المطلب يوم كان يقوم بحفر زمزم وحده أن ابنه الوحيد الحارث أعجز من أن يصد عنه قومه الذين أتوا ليمنعوه من أن يحفر بين صنميهما إساف ونائلة ، فوطن النفس على أن يتزوج فى بيوتات قريش لتكون له عصبة منهم يؤيدونه ويناصرونه ، فتزوج فى بنى نزار وتزوج فى بنى مخزوم وتزوج فى بنى مرة بن كعب بن لؤى وتزوج فى بنى قصى بن كلاب ، فجمع بيوت قريش على قلب رجل واحد .

وكان عبد المطلب قد نذر حين لقى من قريش ما لقى عند حفر زمزم : لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعه لينحرن أحدهم لله عند الكعبة . إنه ليذكر ذلك النذر ولا ينساه . وقد توافى بنوه عشرة بعد أن وضعت له فاطمة بنت عمر بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى بن

غالب بن فهر بن مالك بن النضر ابنه عبد الله ، بيد أن عبد الله لم يبلغ الحلم بعد فعاش عبد المطلب ينتظر أن يبلغ عبد الله مبلغ الرجال ليفى بنذره .
وانطلق عبد المطلب إلى الكعبة وكان مديد القامة أبيض مشربا بحمرة حسن الوجه يتألق بالنور وعز الملك ، يطيف به من حضر من بنيه كأنهم أسد غاب ، ويسير خلفهم عبيدهم من فرس وروم وأجاش فقد كانت تجارة أسرى الحرب أروج تجارة ، وكان الإقبال على شراء الرقيق الأبيض من الجنسيتين شديدا ، فالرجال آلة جيدة من آلات التجارة والصناعة فهم أهل حضارة وعلم ، والنساء بارعات الحسن يشعلن نار الصباية في قلوب رجال الصحراء .

وبلغ عبد المطلب وبنوه الحرم فراخوا يطوفون بالكعبة . حتى إذا ما أتموا الطواف انطلق عبد المطلب إلى فراش معد له في ظل البيت العتيق وجلس عليه ، وجلس أبنائه حوله بعيدا عن ذلك الفراش فما كان يجلس عليه أحد غيره احتراما له وإجلالا لقدره .

وجاء أمية بن عبد شمس وابنه حرب ، وكان أمية قصير القامة نحيف الجسم وكان في رفقته ابنه حرب ، وكان حرب نديم عبد المطلب قلما يفترقان وإن كانت الغيرة من عبد المطلب تنهش قلب أمية ، فقد ذهب أبوه هاشم بالشرف يوم أن حكم له الكاهن الذي ذهبا إليه ليحكم بينهما أيهما أعز نفرا وأكثر فضلا . وها هو ذا عبد المطلب يذهب بالشرف كما ذهب به أبوه من قبل ، فلقد دعاه الناس « شيبة الحمد » لكثرة حمد الناس له ، ودعوه بالفياض لجوده ، ومطعم طير السماء لأنه كان يرفع من مائدته للطير والوحوش في رعوس الجبال ، وقد أسلس قومه له القيادة يفزعون إليه في النوائب ويلجئون إليه في الأمور .

كان أمية يؤمن في قرارة نفسه أنه أحق بزعامة قريش من هاشم عمه ، وإنه لعلى يقين من أن ابنه حرب أحق بزعامة قريش من عبد المطلب بن هاشم . فإن كان عبد المطلب يطعم الناس فإن نيرانه ونيران ابنه حرب تظل مشمسة طوال الليل تدعو الضيف إلى حيث الكرم والجود ، وإن كان عبد المطلب يبعث بقوافل قريش إلى بلاد فارس وبلاد الروم واليمن فإن ابنه حرب ينطلق بالتجارة إلى العراق ، وقد توطدت الصداقة بينه وبين أشرف الحيرة حتى إنه تعلم الكتابة منهم .

ازدهرت التجارة في مكة وخرجت القوافل تجوب الآفاق تحمل الأقمشة والمعادن والجلود والعمطور والأصباغ والجواهر والأصواف والحلى ، وقد حل المكيون محل التجار اليمنيين بعد أن استولى أبرهة على اليمن وشل تجارتها . وأصبح تجار مكة يحملون حرير فارس إلى بلاد الروم بعد أن وقعت البغضاء بين كسرى أنو شروان إمبراطور إيران ويوسطينيانوس إمبراطور الروم وقطعت سبل الاتصال بين إمبراطورية الشرق وإمبراطورية الغرب . فإن كانت الأموال قد تدفقت على مكة فإن الظروف السياسية في المنطقة قد خدمت عبد المطلب ، وإن ابن أخيه حرب قد بذل جهدا ضخما في ثراء مكة .

كان أمية بن عبد شمس يحس كأن عبد المطلب قذى في عينيه ولكن ابنه حرب كان يحب عبد المطلب . ولم يكن قد مرضت نفسه من ابن هاشم بعد . فلما رأى عبد المطلب انجفل إلى مجلسه بينا ذهب أبوه أمية إلى المنتزم ، إلى حيث كان الكتاب يرمون العقود ويكتبون المواثيق .

وراح عبد المطلب وحرب بن أمية يتناجيان ، حتى إذا ما جاء وهب ووهيب وبعض رجال زهرة من التجار الذين كانوا يجوبون أسواق مصر

وبصرى والشام دار الحديث حول أخبار تلك البلاد ، فقال الذى كان يأتى بالأثواب المنسوجة فى تانيس والمصوغات المجلوبة من منف :
— إن أهل مصر فى ضيق فقد وضع قيصر عليهم ضرائب باهظة ، وهم يقاسون ذل الاضطهاد فإذا كانوا على دين النصارى مثلهم مثل الروم فالاختلاف بينهم فى الدين شديد ..

وراح الرجل يتحدث عن أوجه الخلاف فى الدين بين أقباط مصر وبين نصارى الروم ، فالأقباط على المذهب القائل بوحدة طبيعة المسيح بينا الرومان يؤمنون بلاهوت المسيح وناسوته وبالتثليث . وكان العرب على علم بدين الروم . فقد كان للرومان بيوت تجارية فى مكة وكانت تلك البيوت تقوم بالتجارة وبالتجسس على أحوال العرب ، فقد كان أبرهة الأشرم يتطلع إلى غزو الحجاز ليتصل نصارى الحبشة واليمن بنصارى الشام والروم ، فيتحقق بذلك حلم الرومان الذى أتحقق فى تحقيقه أو ليوس غالوس يوم أن اتهم صالح وزير ملك النبط بالخيانة وتضليل جيش الرومان فى الصحراء .

وراح حرب بن أمية يتحدث عن عرب دومة الجندل وعن صديقه بشر بن عبد الملك أحمى أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل وعن انتشار الكتابة هناك ، وأصغى عبد المطلب وبنوه ومن عنده من الرجال إلى حديث القلم العربى فى الحيرة والأنبار وفى دومة الجندل فى عجب وإعجاب ، ولا غرو فقد طمر الزمن حقيقة نشأة القلم العربى فما دار بخلد أحد من السَّمَّار أنه على بعد خطوات منهم منذ ألفين ومائتين من السنين قد نشأ القلم العربى عند بئر زمزم ، فى تلك الأيام التى كانت هاجر المصرية تعلم ابنها إسماعيل مبادئ الكتابة والقراءة ، وإن إسماعيل قد كتب الجمل موصولة ، وأن ابنه قيذار قد فصل بينها ، وأن أبناء إسماعيل حملوا معهم ذلك القلم يوم أن خرجوا من مكة

ليتفسحوا في الأرض إلى دومة الجندل وإلى صحراء سيناء وإلى أرض النبط .
وقد ازدهر ذلك القلم في البتراء وانتشر فيما حولها من البلاد ثم عاد مرة أخرى
إلى مكة بعد أن تهذب ليصبح قلم قريش وينتظر النبأ العظيم .

ودار الحديث حول الفرس وكسرى أنو شروان وعدله وكرمه ، وراح
الحاضرون يقصون بعض نوادر كرمه فقال قائل منهم :

— قعد كسرى أنو شروان ذات يوم في المهرجان ووضعت الموائد .
ودخل وجوه الناس الإيوان على طبقاتهم ومراتبهم ، وقام الموكلون بالموائد
على رعوس الناس وكان كسرى بحيث يراهم .

فلما فرغ الناس من الطعام جاءوا بالشراب في آنيته الفضية وجامات
الذهب ، فشرب الأساورة وأهل الطبقة العالية في آنية الذهب . فلما انصرف
الناس ورفعت الموائد أخذ بعض القوم جاما ذهباً فأخفاه في خبائه وأنو شروان
يلحظه ، فصرف وجهه عنه . وافتقد صاحب الشراب الجام فصاح :
لا يخرجن أحد من الدار حتى يفتش .

فقال كسرى : « لا تتعرض لأحد » . وأذن للناس فانصرفوا ، فقال
صاحب الشراب : « أيها الملك إنا فقدنا بعض آنية الذهب » . فقال الملك :
« قد أخذها من لا يردها عليك ، وقد رآه من لا ينم عليه » .

وجاء رجل يهودى يسعى حتى إذا بلغ مجلس عبد المطلب ألقى التحية ثم
جلس ، فقد كان في جوار عبد المطلب وفي حمايته ، وقد كانت مكة تفيض
باليهود ونصارى الروم والأحباش الذين يشرفون على تجارتهم في المدينة
المقدسة التي يحج إليها العرب ويأتون إليها من كل فج عميق ، وكانوا يمارسون
ديانتهم في حرية فقد كانت كل العبادات تمارس في مكة .

شب عبد المطلب في يثرب في كنف أمه سلمى بنت عمرو الخزرجية ،

وكان في صباحه يدور على جوانب اليهود في السوق في النهار ويمضى بعض
الأمسيات يصغى إلى حديث الدين ، فاعتنق بعض آراء اليهود دون أن
يدري ، فلما بدأ عبد المطلب يتحدث أسفر عن أثر اليهود في معتقداته قال :

— لن يخرج من الدنيا ظلم حتى ينتقم منه وتصيبه عقوبه .

فقال اليهودى في فرح :

— صدقت .

كانت اليهودية قد فسدت بعد أن حمل بختنصر اليهود أسرى إلى بابل ، فقد
نسوا الآخرة والبعث بعد الموت وما دعاهم إليه إبراهيم وإسحاق ويعقوب
ويوسف وموسى ، واعتنقوا معتقدات البابليين وقالوا بما كان يقول البابليون
من أن المرء يثاب على عمله في الدنيا إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، وأنكروا
البعث والقيامة والحساب في الدار الآخرة .

وراح أحد الحاضرين يؤيد رأى عبد المطلب فقال :

— إن هي إلا حياتنا الدنيا .

وأخذ اليهودى طرف الحديث وراح يحدث أخبار بنى إسرائيل فصار
قطب الرحى في مجلس أشراف قریش وسادتها ، وضائق ذلك حرب بن أمية
فهر اليهودى وأغلظ له فرمى عبد المطلب حرب بن أمية بنظرة قاسية فهمها
حرب ، فقد كانت تقول في فصاحة قد يعجز عنها اللسان : « إنه في جوارى
وإنى لا أسمع لك أن تنهره في مجلسى » . فنهض حرب بن أمية وقد لاح في
وجهه الغضب ، ثم انصرف لا يلوى على شيء .

كانت العداوة مستعرة الأوار بن عرب الفرس وعرب الروم . فإن كان عمرو بن هند ملك الحيرة قد أصبح في الغابرين وإن كان الحارث بن جبلة ملك الغساسنة قد لحق بآبائه ، فإن قابوس أخا عمرو بن هند كان أول ما فكر فيه بعد أن صار ملك الحيرة أن يغزو الشام وأن يأسر المنذر بن الحارث بن جبلة ملك الغساسنة وحليف الروم .

تولى قابوس الحكم وهو رجل مسن حنكته التجارب وعركته الأيام ، ولكنه لم يفكر في أن يجمع شمل العرب بأن يعقد صلحا بينه وبين عرب الشام ويوحد صفوف الحيرة وغسان ليصبح للعرب قوة تهابها فارس وتخشأها الروم ، بل عمل على فرقة العرب وإشعال نار البغضاء في النفوس فجمع جيوشه وخرج من الحيرة قاصدا عرب الشام . وقد كان على علم بالطريق فإنه قد حمل حملة انتقامية على الغساسنة في أيام أخيه .

وأغار الشيخ قابوس على الشام وأعمل القتل في الرجال وسبى ما وقع في يده من النساء وأسر الشباب لبيعهن في أسواق الحيرة وفارس ويثرب ومكة ، وغنم غنائم كثيرة ثم قفل عائدا وهو يحلم برضا كسرى أنو شروان إمبراطور الفرس العظيم .

وأفاق المنذر بن الحارث بن جبلة من هول المفاجأة فجمع جيوشه وخرج في أثر عدوه يطير على جناح الكراهية حتى لحق به ، فالتحم عرب الحيرة بعرب الشام ودارت معركة رهيبة سالت فيها دماء العرب على الأرض إرضاء

لكسرى وقيصر ، ولم يتمكن قابوس من الثبات فانهزم هزيمة منكرة وفر هو ومن سار معه من الناجين في اتجاه نهر الفرات ، تاركا عددا من الأمراء اللخمييين أسرى في أيدي المنذر .

واقطفى جيش الشام أثر جيش الحيرة فقد كان المنذر يطمع في أن يقضى على غريمه في المعركة ، ولكن قابوس كان قد نجح في انسحابه في أن يدخل مملكته . فلما رأى المنذر أنه أصبح على ثلاث مراحل من الحيرة وأنه قد أخذ من قابوس أموالا كثيرة وعددا من الجمال كبيرا أثر أن يعود منتصرا ليرضى بنصره يوسطانيوس قيصر الروم .

كان قابوس يبغى من حروبه وجه كسرى ، وكان المنذر بن الحارث يبغى وجه قيصر ، وكانت دماء العرب تسيل أنهارا إرضاء لكسرى وقيصر . وكان كل من كسرى أنوشروان ويوسطانيوس راضيا عن تلك الحروب كل الرضا فقد كانت توهن العرب وتمنع كلاب الحراسة من أن يتحولوا إلى أسد غاب ينقضون على قلب الفرس وقلب الروم .

وجلس قابوس في قصره الخورنق يفكر في أمره : إنه هزم من المنذر بن الحارث هزيمة تجرح النفس وتدمى القلب ولن يذوق الراحة قبل أن يثار لهزيمته ويعيد للحيرة كرامتها . وطار فكره إلى المدائن عاصمة فارس فقد كانت قبلة ملوك الحيرة ، كما كانت القسطنطينية قبلة ملوك الشام .

آه لو كان عدى بن زيد العبادى في الحيرة لانطلق معه إلى المدائن ولفتحتهما أبواب قصر كسرى ، فما كان كسرى أنوشروان يرد لعدى طلبا . ولكن عدى في جفير في البحرين ينعم برياضها ومائها ومانزعتها ، وإنه ليشتمو في الحيرة ويأتى المدائن في خلال ذلك فيخدم كسرى .

وشرد قابوس يفكر في عدى ، فإذا بالسنين تطوى في ذهن الملك الشيخ

وإذا بالأحداث تترادف على رأسه فتفتتح الرؤيا لعين الخيال ، وإذا بتاريخ قد طوته السنون يبعث في نفس الملك المتهالك على أعتاب فارس .

وكان منزل أيوب بن محروف بن عامر بن عقيّة بن امرئ القيس بن زيد بن تميم بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار ، جد عدى في اليمامة ، فأصاب دما في قومه فهرب فألحق بأوس بن قلام أحد بنى الحارث بن كعب بالحيرة . وكان بين أيوب بن محروف وبين أوس بن قلام هذا نسب من قبل النساء . فلما تقدم عليه أيوب أكرمه وأنزله في داره فمكث معه ما شاء الله أن يمكث ، ثم إن أوسا قال له :

— يا بن خال ، أتريد المقام عندي وفي داري ؟

— نعم . علمت أني إن أتيت قومي وقد أصبت فيهم دما لم أسلم ، ومالي دار إلا دارك آخر الدهر .

— إني قد كبرت وأنا خائف أن أموت فلا يعرف ولدني لك من الحق مثل ما أعرف ، وأخشى أن يقع بينك وبينهم أمر يقطعون فيه الرحم ، فانظر أحب مكان في الحيرة إليك فأعلمني به لأقطعك أو أبتاعه لك .

فابتاع له موقع داره بثلاثمائة أوقية من ذهب وأنفق عليها مائتي أوقية ذهبا ، وأعطاه مائتين من الإبل برعائها وفرسا وقينة . فمكث في منزل أوس حتى هلك ثم تحول إلى داره التي في شرق الحيرة . واتصل أيوب بالملوك الذين كانوا بالحيرة وعرفوا حقه وحق ابنه يزيد ، وثبت أيوب فلم يكن منهم ملك يملك إلا ولولد أيوب منه جوائز وحُمَلاَن .

وتزوج زيد بن أيوب امرأة من آل قلام فولدت حمادا . فخرج زيد بن أيوب ذات يوم يريد الصيد في ناس من أهل الحيرة فانفرد في الصيد وتباعد من أصحابه ، فلقيه رجل من بنى امرئ القيس الذين كان لهم الثأر قبل أبيه فعرف

فيه شبه أيوب ، فقال له :

— ممن الرجل ؟

— من بنى تميم .

— من أيهم ؟

— مرئى (نسبة إلى امرئ القيس) .

— وأين منزلك ؟

— الحيرة .

— أمن بنى أيوب أنت ؟

— نعم ، ومن أين تعرف بنى أيوب ؟

واستوحش من الأعرابي وذكر الثأر الذى هرب أبوه منه ، فقال الأعرابي

في خبث :

— سمعت بهم .

ولم يعلمه أنه عرفه ، فقال له زيد بن أيوب :

— فمن أى العرب أنت ؟

— أنا امرؤ من طيء .

فأمنه زيد وسكت عنه .

ثم إن الأعرابي اغتفل زيد بن أيوب فرماه بسهم فوضعه بين كتفيه ففلق

قلبه ، فلم يرح حافر دابته حتى مات .

ومكث حماد فى أخواله حتى أيفع فخرج ذات يوم يلعب مع غلمان بنى

لحيان ، فلطم اللحيانى عين حماد فشجه حماد ، فخرج أبو اللحيانى فضرب

حمادا فجزعت من ذلك أم حماد وحولته إلى دار زيد بن أيوب وعلمته الكتابة

فى دار أبيه ، فكان حماد أول من كتب من بنى أيوب فخرج من أكتب الناس .

وطلب حتى صار كاتب النعمان الأكبر ، فلبث كاتباً له حتى ولد له ابن من امرأة تزوجها من طيء فسماه زيدا باسم أبيه ، وكان لحماد صديق من الدهاقين (التجار) العظماء يقال له فروخ ماهان ، وكان محسناً إلى حماد ، فلما حضرت حمادا الوفاة أوصى بابنه إلى زيد الدهقان وكان من المرازبة ، فأخذ الدهقان إليه فكان عنده مع ولده .

كان زيد قد حذق الكتابة العربية قبل أن يأخذه الدهقان ، فعلمه لما أخذه الفارسية وكان ليبيا ، فأشار الدهقان على كسرى أن يجعله على البريد في حوائجه ، ولم يكن كسرى يفعل ذلك إلا بأولاد المرازبة ، فمكث يتولى ذلك لكسرى زمانا . ثم إن النعمان النصرى اللخمي هلك فاختلف أهل الحيرة فيمن يملكونه إلى أن يعقد كسرى الأمر لرجل ينصبه ، فأشار عليهم المرزبان يزيد بن حماد فكان على الحيرة إلى أن ملك كسرى المنذر بن ماء السماء .

وتزوج زيد بن حماد نعمة بنت ثعلبة العدوى فولدت له عدياً ، وملك المنذر وكان لا يعصيه في شيء . وولد للمرزبان ابن فسماه « شاهان مرد » فلما تحرك عدى بن زيد وأيقظ طرحه أبوه في الكتاب ، حتى إذا حذق أرسله المرزبان مع ابنه « شاهان مرد » إلى كتاب الفارسية ، فكان يختلف مع ابنه ويتعلم الكتابة والكلام بالفارسية ، حتى خرج من أفهم الناس بها وأفصحهم بالعربية .

وقال الشعر وتعلم الرمي بالنشاب فخرج من الأساورة الرماة ، وتعلم لعب العجم على الخيل بالصوالجة وغيرها . ثم إن المرزبان وفد على كسرى ومعه ابنه « شاهان مرد » فبينما هما واقفان بين يديه إذ سقط طائران على السور فتطاعما كما يتطاعم الذكر والأنثى ، فجعل كل واحد منقاره في منقار الآخر (مولد الرسول)

فقال كسرى للمرزبان وابنه :

— ليرم كل واحد منكما واحدا من هذين الطائرين فإن قتلتهما أدخلتكما بيت المال وملأت أفواهكما بالجواهر ، ومن أخطأ منكما عاقبته .

فاعتمد كل واحد منهما طائرا منهما ورميا فقتلتهما جميعا ، فبعثهما إلى بيت المال فملكت أفواههما جوهرًا . وأثبت « شاهان مرد » وسائر أولاد المرزبان في صحابته ، فقال فروخ ماهان عند ذلك للملك :

— إن عندى غلاما من العرب خلفه أبوه عندى فربيته ، فهو أفصح الناس وأكثبهم بالعربية والفارسية ، والمملك محتاج إلى مثله ، فإن رأى أن يُثبته فى ولدى فعل .

— ادعه .

فأرسل إلى عدى بن زيد وكان جميل الوجه فائق الحسن وكانت الفرس تترك بالجميل الوجه ، فلما كلمه الملك وجده أظرف الناس وأحضرهم جوابا ، فرغب فيه وأثبته مع ولد المرزبان . فكان عدى — حفيد عدنان — أول من كتب بالعربية فى ديوان كسرى . فرغب أهل الحيرة إلى عدى ورهبوه ، فلم يزل بالمدائن فى ديوان كسرى يؤذن له عليه فى الخاصة وهو معجب به قريب منه ، وأبوه زيد بن حماد يومئذ حى ، إلى أن ارتفع ذكر عدى وخمل ذكر أبيه ، فكان عدى إذا دخل على المنذر قام جميع من عنده حتى يقعد عدى ، فعلا له بذلك صيت عظيم ، فكان إذا أراد المقام بالحيرة فى منزله ومع أبيه وأهله استأذن كسرى فأقام فيهم الشهر والشهرين وأكثر وأقل . وأرسل كسرى عدى بن زيد إلى ملك الروم بهدية من طُرف ما عنده ، فلما أتاه عدى بها أكرمه وحمله إلى عماله على البريد ليريه سعة أرضه وعظيم ملكه ، فمن ثم وقف عدى بدمشق وقال فيها الشعر .

وفسد أمر الحيرة وعدى بدمشق حتى أصلح أبوه بينهم ، لأن أهل الحيرة كان عليهم المنذر أرادوا قتله لأنه كان لا يعدل فيهم وكان يأخذ من أموالهم ما يعجبه ، فلما تيقن أن أهل الحيرة قد أجمعوا على قتله بعث إلى زيد بن حماد وكان قبله على الحيرة فقال له :

— يا زيد أنت خليفة أبنى وقد بلغنى ما أجمع عليه أهل الحيرة فلا حاجة لى فى ملككم دونكموه ملكوه من شئتم .
فقال له زيد :

— إن الأمر ليس لى ، ولكنى أسيرُ لك هذا الأمر ولا آلوك نصحا .

فلما أصبح غدا إليه الناس فحيوه تحية الملك وقالوا له :

— ألا تبعث إلى عبدك الظالم فترج منه رعتك .

وفهم زيد أنهم يعنون المنذر فقال لهم :

— أو لا خير من ذلك ؟

— أشر علينا .

— تدعونه على حاله فإنه من أهل بيت مُلك، وأنا آتية فأخبره أن أهل الحيرة

قد اختاروا رجلا يكون أمر الحيرة إليه ، إلا أن يكون غزو أو قتال فلك اسم

الملك وليس إليك سوى ذلك من الأمور .

— رأيك أفضل .

فأتى المنذر فأخبره بما قالوا ، فقبل ذلك وفرح وقال :

— إن لك يا زيد على نعمة لا أكفرها ما عرفت من حق سبد .

وكان سبد صنما لأهل الحيرة ، فولى أهل الحيرة زيدا على كل شىء سوى

اسم الملك فإنهم أقروه للمنذر .

ثم هلك زيد وابنه عدى يومئذ بالشام ، وكانت لزيد ألف ناقة كان أهل

الحيرة أعطوه إياها حين ولوه ما ولوه ، فلما هلك أزدوا أخذها فبلغ ذلك المنذر فقال :

— لا واللوات والعزى لا يؤخذ مما كان في يد زيد شيء ، وأنا أسمع الصوت .

ثم إن عديا قدم المدائن على كسرى بهدية قيصر ، فصادف أباه والمرزبان الذى رباه قد هلكا جميعا ، فاستأذن كسرى فى الإلمام بالحيرة فأذن له فتوجه إليها . وبلغ المنذر خبره فخرج فتلقيه الناس ورجع معه وعدى أنبل أهل الحيرة فى أنفسهم ولو أراد أن يملكوه لملكوه ، ولكنه كان يؤثر الصيد واللهو واللعب على الملك فمكث سنين يبدو فى فصل السنة ، فيقيم فى جفير ويشتو بالحيرة ويأتى المدائن فى خلال ذلك فيخدم قيصر .

وكان المنذر لما ملك جعل ابنه النعمان بن المنذر فى حجر عدى بن زيد فهم الذين أروضوه وربوه ، وكان للمنذر ابن آخر يقال له « الأسود » أمه مارية بنت الحارث بن جلهم من تيم الرباب ، فأرضعه ورباه قوم من أهل الحيرة يقال لهم مرينا ينسبون إلى لحم وكانوا أشرافا .

وكان للمنذر سوى هذين من الولد عشرة ، وكان ولده يقال لهم « الأشاهب » من جمالمهم . وكان النعمان من بينهم أحمر أبرش قصيرا ، وأمهم سلمى بنت وائل بن عطية الصائغ من أهل فدك على بعد يومين من المدينة . ومرت الأيام وقدم عدى بهدية من كسرى إلى المنذر والنعمان يومئذ فتى شاب ، وبعد أن قدم عدى هدية كسرى إلى المنذر دخل البيعة ليصلى لله فى الوقت الذى دخلت فيه هند بنت النعمان .

كانت هند من أجمل نساء أهل زمانها وكانت مديدة القامة عبله الجسم ولها حينئذ إحدى عشرة سنة ، فرآها عدى وهى غافلة فلم تنتبه له حتى تأملها ،

وقد كان جواربها رأين عديا وهو مقبل فلم يقلن لها كى يراها عدى .
ورأت هند عديا ينظر إليها فشق ذلك عليها وسبت جواربها ونالت بعضهن
بضرب ، فوقعت هند فى نفس عدى فلبث حولاً لا يخبر بذلك أحداً .
وجاءت جارية من جواربها إليها وراحت تزين لها بيعة توما وتصف لها من
فيها من الرواهب ومن يأتها من جوارى الحيرة وحسن بنائها وسرجها ، ثم
قالت لها .

— سلى أملك الإذن لك فى إتيانها .

فسألتها ذلك فأذنت لها ، وبادرت الجارية إلى عدى فأخبرته الخبر فبادر
فلبس قباء كان « فرخان شاه مرد » قد كساه إياه وكان مذهبا لم ير مثله حسنا ،
وكان عدى حسن الوجه مديد القامة حلو العينين حسن الميسم نقى الثغر ،
وأخذ معه جماعة من فتيان الحيرة فدخل البيعة ، فلما رأته الجارية قالت لهند :
— انظرى إلى الفتى ! فهو والله أحسن من كل ما تريدن من السرج
وغيرها !

— ومن هو ؟

— عدى بن زيد .

— أتخافين أن يعرفنى إن دنوت منه لأراه من قريب ؟

— ومن أين يعرفك وما رآك قط من حيث يعرفك !

فدنت منه وهو يمازح الفتيان الذين معه وقد برع عليهم بجماله وحسن
كلامه وفصاحته وما عليه من الثياب ، فذهلت لما رأته وبهتت تنظر إليه ،
وعرفت الجارية ما بها وتبينته فى وجهها فقالت لها :

— كلميه .

فكلمته وانصرفت وقد تبعته نفسها وهويته وانصرف وقد شغف بها

حبا . فلما كان الغد تعرضت له الجارية فلما رآها هش لها وكان قبل ذلك لا يكلمها ، وقال لها :

— ما غدا بك ؟

فعاهدته على أن تحتال له في هند ، ثم تركته فأنت هنداً فقالت :

— أما تشتهين أن ترى عديا ؟

— وكيف لي به ؟

— أعدده في ظهر القصر وتشرفين عليه .

— افعللى .

فواعده إلى ذلك المكان فأتاه ، وأشرفت هند عليه فكادت تموت

وقالت :

— إن لم تدخليه إليّ هلكت .

فبادرت الأمة إلى النعمان فأخبرته خبرها وصدقته ، وذكرت أنها قد

شغفت به وأنه إن لم يزوجها به افتضحت في أمره أو ماتت ، فقال لها :

— ويلك ! وكيف أبدؤه بذلك !

— هو أرغب في ذلك من أن تبدأ أنت ، وأنا أحتال في ذلك من حيث

لا يعلم أنك عرفت أمره .

وأنت عديا فأخبرته الخبر وقالت :

— ادعه ، فإذا أخذ الشراب منك فأخطب إليه فإنه غير رادك .

— أخشى أن يغضبه هذا فيكون سبب العداوة بيننا .

— ما قلت لك هذا حتى فرغت منه معه .

فصنع عدى طعاما واحتفل فيه ، ثم أتى النعمان فسأله أن يتغدى عنده هو

وأصحابه ففعل ، فلما أخذ منه الشراب خطبها إلى النعمان فأجابته وزوجه

وضمها إليه بعد ثلاثة أيام .

طافت كل هذه الأحداث برأس الملك قابوس وهو جالس في مكانه ثم غمغم : « ذلك عدى بن زيد وقد تزوج فيها ، وهذه مكانته في بلاط كسرى . إنه سيعاوننى ولا ريب وسيلتمس من كسرى أن يجهزنى لقتال المنذر بن الحارث بن جبلة حليف الروم » .

وتأهب الشيخ قابوس للسفر إلى المدائن وهو يحلم باستقبال رائع كذلك الاستقبال الذى قوبل به الحارث بن جبلة فى القسطنطينية ، ترى أىخرج كسرى أنوشروان لاستقباله كما خرج يوسطانيوس لاستقبال الحارث ؟ ووصل قابوس إلى عاصمة فارس فإذا بضابط عظيم فى استقباله ، وبعد أن حياه فى إجلال قاده إلى قاعة العرش ليقابل « الإنسان الأول » . فما كان أحد ليجرؤ أن ينادى الملك باسمه أو لقبه ، فملوك الساسانيين من الكائنات الإلهية .

وفتح باب قاعة العرش ونادى الحارس الواقف بالباب بصوت جهورى :
— الملك المبجل قابوس ملك الحيرة .

ودخل قابوس يحف به رجال القصر فإذا بكسرى أنوشروان على عرشه وعلى رأسه التاج من الذهب محلى بالجواهر والياقوت الذى رصع به يشع عظمة ، وقد أحيط بصف من اللآلئ كانت تلمع فوق التاج وقد انعكس نورها المتموج على ألوان الزمرد الزاهية ، فلما وقعت عينا قابوس على ذلك التألق وقعتا على عجب محير .

وكان كسرى يلبس سروالا مزخرفا بالذهب منسوجا باليد على لون السماء ، وكان العرش محمولا على الخيول ذات الأجنحة ، وعلى بعد عشرة أذرع جلس الأساورة وأبناء الملوك وكان عدى بن زيد فيهم . وعلى بعد عشرة

أذرع من هذه الطبقة جلست بطانة الملك وندماؤه ومحدثوه من أهل الشرف والعلم .

وتقدم قابوس من العرش حتى إذا ما أصبح على بعد خطوات من كسرى جذب من كفه ششتقة بيضاء نقية غطى بها فمه لمنع أنفاسه من تلويث الأشياء المقدسة ووقاية لجلال الملكية ، ثم بدأ حديثه بالتحية ، وتمنى أن يحقق الله رغبات قدسية الملك الظاهر والإنسان الأول .

وأجلس كسرى أنو شروان الملك قابوس ملك الحيرة إلى جواره ثم راح يسأله عن رحلته وعن حالة بلاده وجيشه ، فأخذ قابوس يصف ما لقي من كرم رجال الملك الطيب أينما نزل ، وراح يصف حال بلاده وحال جيشه الذى يريد أن يقويه ليغزو أهل الشام نكاية فى قيصر ، وكان يقول بين كل جملة وجملة « خلدك الله » أو « حقق الله رغبات قدسيتمكم » ليستميل كسرى أنو شروان وينال رضاه وعطفه .

وانتقل كسرى وقابوس إلى مائدة الملك ، وكان عن يمين كرسى الملك كرسى من الذهب وكرسيان آخران من الذهب عن يساره وورائه ، فأحد هذه الكراسى الثلاثة كان خاصا بملك الصين ، والثانى لملك الروم ، والثالث لملك الخزر ، بحيث إنهم إذا أتوا إلى بلاط كسرى جلسوا على هذه الكراسى . وهذه الكراسى الثلاثة توضع طول السنة ، فلم تكن ترفع ولا يجرؤ أحد على الجلوس عليها ، ولكن كسرى أجلس قابوس عن يمينه إكراما له . وتعظيما . وكان أمام العرش كرسى من ذهب جلس عليه البزرک فرمادار — ومن تحته كراسى حجرت للمرازية والعظماء ، وكان لكل كرسى خاص حسب مكانته .

وأمر كسرى بالتأهب للخروج للصيد إكراما لقابوس ، فراح الأساورة

والموبدان موبد وخاصة الملك يعرضون دوابهم على صاحب دواب الملك ، لأنه لا ينبغي أن يكون حصان أحدهم بليدا أو كثير النفور أو العثار أو الجماح ، فيكون على الملك من ذلك بعض ما يكره .

ولما كان ينبغي على الحصان ألا يروث أو يبول أو يتحصن أو يتشعب في حضرة الملك فقد امتنع الأساورة عن أن يطعموا دوابهم ، ففى الغد سيخرجون مع الملك وضيئه إلى رحلة صيد ، وكانت مصاحبة الملك في رحلة واجبا ثقيلًا وشرفا غير مساغ عند عظماء مملكته !

وخرج كسرى وقابوس وعدى بن زيد للصيد ، وقد كانت فرصة طيبة لقابوس فاهتبلها وحدث الملك الطيب عن رغبته في تقوية جيشه ليغزو المنذر ابن الحارث بن جبلة حليف قيصر ، وقد شد عدى بن زيد أزر قابوس حتى إن كسرى وعد بمعاونة ملك الخيرة وتجهيزه لقتال عرب الشام .

وعاد قابوس إلى عاصمة ملكه وقد تدفقت الدماء حارة في عروق الشيخ وراح قلبه يخفق بالكراهية لعرب الروم ، وما كاد يستقر في قصر الخورنق حتى أصدر أوامره بتجهيز الجيوش للخروج لقتال الغساسنة .

وراح العرب يتأهبون لسفك دماء العرب . أما من رجل رشيد من العرب يوحد صفوفهم لوجه الله لا لوجه كسرى ولا لوجه قيصر !؟

خرجت آمنة بنت وهب ، وابنة عمها هالة بنت وهيب ، وبعض بنات بنى زهرة وصبيانهم ، وبعض بنات بنى هاشم وصبيانهم ، من دورهم ليلعبوا على روابى مكة وفي وديانها ، وانطلقوا في طرقات مكة الضيقة يضحكون في براءة الملائكة . وإن هي إلا خطوات حتى أشرفوا على الكعبة ، فقد كانت الدور تحيط بالحرم تقترب منه أو تبتعد عنه لما لكل أسرة من مكانة ومقام ، فكان بنو زهرة وبنو هاشم أقرب أهل مكة إلى البيت المقدس فقد كانا أشرف حيين من العرب .

كانت الشمس قد أشرقت فغمرت أشعتها الدور التي انتشرت على سفوح الجبال المحيطة بأول بيت وضع للناس ، وبدأت الحياة تدب في الوادى المقدس فأنحدر الناس ليطفوا بالبيت العتيق قبل أن ينصرفوا إلى أعمالهم . واستقبل غلام من بنى زهرة قرص الشمس وقد أخذ بين سبابته وإبهامه سنا له قد سقطت ، ثم قذف بها وهو يقول :

— يا شمس ، أبدليني بسن أحسن منها ، ولتجر في ظلمتها آياتك .

وضحكت آمنة وغلما بنى زهرة وبنى هاشم ثم انطلقوا كفراشات طليقة إلى الصفا ووقفوا فوقه ينظرون إلى الكعبة وإلى بئر زمزم وإلى قوافل الحجاج التي بدأت تفد على مكة ، فقد دنا موسم الحج . ولمح أحدهم قافلة قادمة من ناحية الطائف فصاح في فرح :

— قافلة عبد المطلب ، جاءت بالتمر والزبيب .

كان عبد المطلب يأتي بالتمر والزبيب من حر ماله ويضعها في ماء زمزم يسقى الحجيج تقربا إلى الله ، وقد كان غلمان قريش ينهلون في الموسم من أحواض الماء القريبة من الحرم التي وضع فيها التمر والزبيب ، كانوا يجذون سعادة في مزاحمة الحجاج على الماء فقد كانوا يحسون إحساس من بدأ كفاح الحياة لأول مرة .

وانحدرت آمنة من فوق الصفا ، وانحدر معها لداتها ، وراحت تهول بين الصفا والمروة كما يفعل الحجاج ، تشبها بها جر لما كانت تهول بينهما بحثا عن الماء لتتخذ وحيدها إسماعيل من الموت عطشا قبل أن يفجر الله له زمزم . وكانت آمنة سعيدة في سعيها ، رقيقة كنسيم الصبا ، متفتحة كزهرة الربيع ، تستشعر على الرغم من حداثة سنها أنها من أشرف بيت من بيوت قريش ، إلا أنها لم تكن تحس في أعماقها أنها أشرف من وطقت قدماها الرمال التي وطأها قدما هاجر أم العرب ، فإن كان لها جر فضل تكوين المجتمع المكى حول زمزم . فمنها سينبعث النور الذي سيخرج من مكة ليغمر وجه الأرض كلها .

واتخذت آمنة وبنات بنى زهرة وبنى هاشم وغلمانهم طريقهم إلى الكعبة ، وقد نصب الخمس قبابهم الحمر بين الصفا وباب الحرم ، وكانت القباب من الأدم ، فالخمس في الأشهر الحرم لا يغزلون صوفا ولا وبراً ولا يدخلون بيتا من الشعر والمدر . إنهم أبناء الحرم المتزمتون في دينهم لا يعظمون شيئا من الأرض التي وراء الحرم ، وقد تركوا الوقوف على عرفة لأنه خارج عن الحرم واكتفوا بالوقوف بالمزدلفة .

وكان الخمس يقولون : لا نطوف في الثياب التي قارفنا فيها الذنوب ، ولا نعبد الله في ثياب أذنبتنا فيها ، ولا نطوف في ثياب عصينا الله فيها ، فكانوا

يعيرون الناس ثيابا جديدة أو يبيعونها للقادرين . وكان الفقراء يطوفون بالبيت عرايا ، أما من يطوف بشيابه فقد كان عليه أن يطرحها بعد الطواف حتى تبلى من وطأة الأقدام ولفح الشمس وزمجرة الرياح . ودخلت آمنة ولداتها الحرام . كان أمامهم مقام إبراهيم وباب الكعبة وعن شمائلهم بئر زمزم ، فانطلقوا إلى البئر ليطفئوا عطشهم ثم ذهبوا ليطوفوا بالبيت مع الطائفين .

وكانت الأصنام منصوبة في الكعبة ومن حولها ، وكان الناس يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى ، وكانت آمنة تنظر إلى الأصنام في ريبة فجدها أبو كبشة قد كفر بالأصنام جميعا وعبد كوكب « الشعري العبور » وهو من نجوم الجوزاء ، وقد سخر من عبادة الأصنام التي لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ، وقد سمعت آمنة ولا ريب من رجال الأسرة ونسائها بدعوة أبنى كبشة وما سنه للعرب من عبادة الكواكب وتسفيه أحلام قومه .

كانت مكة قد انتقلت من مرحلة الورع إلى مرحلة الخرافة فراح أهلها ينسجون حول كل ظواهر الطبيعة أسطورة . فقالوا إن الشعري العبور كانت و « شعري الغميصاء » و « سهيل » مجتمعة ، لذلك يقال للشعريات أختا « سهيل » ، فاتحدر سهيل فصار يمانيا ، واتبعته العبور فعبرت « الحجر » ، وأقامت الغميصاء فبكت لفقد سهيل حتى غمضت ، وذلك هو سبب أن الشعري العبور أشد ضياء من الشعري الغميصاء التي أضعف البكاء نور عينها .

كانت آمنة تحس راحة كلما لاذت بالحرم وانشراحا يملاً وجدانها ونورا ينتشر في جوانب نفسها ، وأن قلبها الصغير قد اتسع ليحتوى الكون كله ، فهي تستشعر تناسقا مع الوجود وتعاطفا مع كل ما تقع عينها عليه .

وحانت من آمنة التفاتة فرأت مجلس عبد المطلب وقد جلس حوله أبناؤه العشرة كأنهم أسد غاب ، وقد كان عبد الله فيهم فطافت بذهنها حقيقة لم تفتن إليها من قبل ؛ إن الدنيا لا تثبت على حال ، فعبد الله منذ عهد قريب كان بين غلمان بنى هاشم يلعب معهم في الحجون ويجرى بين الصفا والمروة وينطلق معهم إلى السوق ، وها هو ذا اليوم قد بلغ مبلغ الرجال وجلس بين سادات قريش شريفاً من أشرف بيت ، ترى ماذا يسمع عبد الله من حديث وماذا يقول في مثل ذلك المجلس الجليل ؟!

وضم عبد المطلب ابنه عبد الله إلى صدره في حب ، فقد كان عبد الله أصغر بنيه وأحبهم إلى قلبه ، وتوجت شفتى عبد الله ابتسامة رقيقة فبدا لآمنة أن وجه الدنيا كلها قد أشرق بالابتسام ، وأحست آمنة أنها ليست وحدها التي ترسل النظر إلى عبد الله فقد لمحت رقيقة بنت نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي أخت ورقة بن نوفل ، واقفة عند حجر إسماعيل تحتل النظر إلى عبد الله . كان ورقة بن نوفل قد تنصر بعد أن كفر بأوثان قومه وطلب الدين في الآفاق ، فكان يعكف على التوراة والإنجيل وديانات الأقدمين ، حتى إذا ما دخلت عليه أخته رقيقة راح يحدثها عن الدين ويقول لها فيما يقول :

— إنه كائن في هذه الأمة نبي .

فكانت رقيقة تحلم بأن تكون أم ذلك النبي المنتظر ، وكانت تقلب بصرها في وجوه شباب قريش كأنما كانت تبحث عن وجه والد ذلك النبي ، وقد كانت رقيقة ذات فراصة فاستراحت إلى وجه عبد الله .

وأقبل وهب سيد بنى زهرة ووهيب أخوه على مجلس عبد المطلب وجلسا ، وراح وهب يحادث عبد المطلب وقد أخذ بذقنه ملاطفاً ، ورأته آمنة فقالت لهالة :

— قد جاء أبى وأبوك .

والتفتت هالة فوقعت عيناها على أبيها وهيب وقد راح بحادث أمية بن حرب بن عبد شمس نديم عبد المطلب زعيم قريش ، فلاح في وجهها خوف فابتعدت وقد اتخذت طريقها ناحية الباب الذى يفضى إلى سوق مكة ، وفتيات بنى زهرة وبنى هاشم وغلماهم فى أثرها .

وخرجت آمنة وهالة والذين معهما إلى سوق مكة وكان سقيفة قد حجبت أشعة الشمس الحامية ، وقد انتشرت على جانبي السوق حوانيت التجار التى غصت بالأقمشة المصنوعة فى تانيس والحلى المجلوبة من منف والحريز الوارد من فارس والطرف السورية .

وراحت ذرية زهرة وهاشم يتفرسون فى وجوه الناس الذين كانت السوق تموج بهم ، كانوا عربا ونصارى ويهودا وسوريين ومصريين وأحباشا ورومانيين قد عرفوا الراحة والاستقرار فى مكة ، بعد أن ذاقوا مرارة الاضطهاد فى بلادهم .

كانت السوق قد ازدحمت بكل أجناس الأرض ، تترد فى جنباتها لغات متباينة ، فكان أهل مكة يلتقطون كلمة من هنا وكلمة من هناك فتثرى بذلك لغتهم ، ويقتبسون ما يروق لهم من حضارة الشعوب التى جاء أبناؤها إليها مختارين يلتمسون الأمن ، أو جاءوا إليها كارهين فى ركاب تجار الرقيق الذين كانوا يبيعون أسرى الحروب فى أسواق العرب ، فازدهرت حضارة مكة ، وانتشر الترف فى بيوت أغنيائها .

ووقفت آمنة وابنة عمها ومن معهما أمام صائغ ينظرن إلى ما يصنع من حلى فى إعجاب ، كان الصائغ يهوديا وكان الذهب فى مناجم بنى سليم استخرجه العرب وجلبوه إلى مكة ليصنع منه الحلى أو ليضرب سبائك ذهبية للذين

يكنزون الذهب والفضة .

وظلوا يجوسون خلال السوق حتى أحسوا التعب يمشى في أوصالهم ،
فقفلوا عائدين إلى دورهم يقصون على أهلهم في فرح ما فعلوا في يومهم وما
صادفوا من أحداث جذبت انتباههم ، وقد حسبوا أن الأيام كلها لعب وهو
وزينة .

ومرت الأيام والأشهر والسنون وآمنة تعيش بين أهلها ومع لداتها حياتها
السعيدة الرتيبة ، وفي ذات يوم رأت أبوها يتناجيان بعيدا عنها ، ثم رأت أمها
تقبل عليها وتقول لها :

— سيأخذك أبوك يا آمنة إلى دار الندوة .

دار الندوة؟! إنها لحظة حاسمة في حياتها ، إنها الفاصل بين طفولتها الحرة
الطليقة وبين شبابها المحجوب في خدرها ، لقد انتهت أيام انطلاقها كفراشة إلى
روانى مكة وربوعها كما انتهت من قبل أيام لعب عبد الله معهم ، لقد أصبحت
شابة وخلفت طفولتها البريئة دبر أذنها كما أصبح عبد الله فتى من فتيان قريش
يتطلع إلى مستقبله .

وتأهبت آمنة للانطلاق إلى دار الندوة مع أبيها فراحت تتحرك في تودة ،
فقد أحست فجأة نضجا في جسمها وفي عقلها وإن كانت رهبة غامضة قد
انتشرت في جوفها . وجاء أبوها وأخذها وانطلق بها إلى الكعبة .

والتقى وهب وآمنة ووهيب في الحرم وراحوا يطوفون بالكعبة سبعة
أشواط ، ثم ذهبوا إلى دار الندوة وقد كانت لبنى عبد الدار بن قصي ، فكانوا
يقومون بمراسم الزواج والختان والفصل بين الناس في قضاياهم ، وإن كان
عبد المطلب زعيم قريش وصاحب السقاية والرفادة .

وتقدمت آمنة من المكلف بمراسم حجب فتيات مكة فشق قميصها ثم

حجب به وجهها ، فكان ذلك إيذانا بأن آمنة قد حجبت ولن تقع عليها بعد اليوم إلا عيون المحارم من أهلها .

وتقدمت هالة وشق قميصها وحجبت ، ثم عادت آمنة وهالة إلى دور بنى زهرة وقد ضرب عليهما الحجاب وحيل بينهما وبين شباب الأسرة وبين شباب الأسر القرشية التي كانت تتبادل الزيارات مع بنى زهرة .

وجاءت سودة عمه وهب إلى داره فحف إلىها نساء بنى زهرة وفتياتها يرحبن بها وإن كانت زرقاء قبيحة الصورة ، فقد كانت كاهنة قريش ، وكانت تخبرهم بما ستأتى به الأيام .

كانت سودة تنظر في النجوم وكانت تكثر من الصيام حتى تشف روحها وتنسلخ نفسها من البشرية إلى الروحانية ، وكانت تجتهد في الاتصال بالملأ الأعلى لتأتى بخبر السماء ، وقد صدق بعض ما تنبأت فقالت قريش : « إنها تنظر بنور الله » .

وجلست سودة وجلس نساء بنى زهرة حولها وتعلقت بها العيون وأرهفت الآذان ، فراحت سودة تتفرس في وجوه الجالسات عندها ثم قالت :

— إن فيكم يا بنى زهرة نذيرة أو تلد نذيرا ، فأعرضوا على بناتكم .
وخفقت القلوب في الصدور وزاغت الأبصار ، وساد السكون برهة وإن تحركت في النفوس الأمنيات ، فقد كانت كل أم في بنى زهرة تتمنى أن تكون ابنتها هي النذيرة أو التي ستلد ذلك النذير .

وقدمت أم هالة ابنتها إلى سودة وقد أرهفت حواسها وتعلقت كل آمالها بكاهنة قريش الزرقاء القميئة ، فراحت سودة تتفرس في هالة وتتحدث في طلاقة كأنما كانت تقرأ في كتاب مفتوح . إنها تحدثها عن زواجها بسيد من سادات قريش قد شرف في قومه حتى انقادت له الزعامة ، وعن ولدها

الشهيد ، وعن أشياء رائعة كثيرة ، ولكنها لم تقل لها إنها النذيرة أو من ستلد ذلك النذير .

وعرضت أمهات بنى زهرة بناتهن على سودة فراحت كاهنة قريش تنبأً بمستقبل كل فتاة وقد ساد المكان ترقب وقلق ولهفة ، فما من فتاة من اللاتي عرضن عليها كانت النذيرة أو التي ستلد النذير .

وقدمت برة بنت عبد العزى ابنتها آمنة إلى سودة ، فراحت الكاهنة تتفرس في آمنة وتنظر في منخارها وتقلب النظر فيها ، وسيطر على المكان سكون رهيب ، ولاح في وجه الكاهنة الاهتمام الشديد وكتمت أنفاسها برهة ، ثم راحت تشهق وتزفر في صوت مسموع وقطبت جبينها ، وسرعان ما انبسطت أساريرها وظهر عليها طمأنينة عجيبة لكأنما قد ألقى الخير في روعها وأضاء ظلام نفسها ، وتحركت شفاتها وإذا بالنسوة كلهن آذان واعية قالت :

— هذه هي التي ستلد النذير .

وسرى صوت سودة عذبا رقيقا لكأنما كان صوت القدر ، وصوبت العيون إلى آمنة فأطرقت حياء وإن كانت أهازيج الفرح تدوى في جنباتها .

مات يوسطينيانوس إمبراطور الروم وخلفه على العرش يوسطينوس الثاني الذى كان متزوجا من صوفيا ابنة أخت تيودورا ممثلة الأوبرا الكوميديا التى صارت إمبراطورة الدولة الرومانية ، والتى قامت بأهم دور فى البلاط الرومانى قبل أن تمجود بأنفاسها .

وتجددت الحروب بين الكتلتين المتنازعتين على سيادة العالم : الكتلة الفارسية بقيادة كسرى أنو شروان والكتلة الرومانية بقيادة الإمبراطور يوسطينوس الثاني . وامتشق عرب الحيرة الحسام لقتال عرب الشام ، وسار قابوس على رأس جيشه لغزو المنذر بن الحارث بن جبلة ، ودارت رحى الحرب وانتصر المنذر بن الحارث ملك الغساسنة على قابوس ملك الحيرة فعاد قابوس يلحق جراحه ويتأهب لإعادة الكرة واستئناف القتال .

واشتعلت نار العداوة بين الشرق والغرب ، وانقسم العالم إلى معسكرين : دول تؤيد فارس ودول تؤيد الرومان . وقد كانت الحبشة وأبرهة الأشرم فى اليمن ممن يؤيدون الروم فقد كانوا جميعا على دين واحد . وإن اختلفوا فى المذاهب بين قائلين بوحدة طبيعة المسيح وقائلين بالتثليث ولاهوت المسيح وناسوته .

ونزلت الكوارث على الرومان فقد انتصر الفرس على الروم نصرا مؤزرا وانقضت قبيلة جديدة من البرابرة الآفار على الإمبراطورية الرومانية من الشمال وعزت قبيلة اللومبارد فى الغرب من إيطاليا ، فبدأ أن الإمبراطورية الرومانية تترنح تحت ضربات أعدائها .

ورأى يوسطينوس أن يلجأ إلى حليفه أبرهة ليحارب الفرس ليخفف الضغط عنه ، فبعث إليه يلتمس منه أن يتحرك لمناوأة فارس ليشغلها من تسديد الضربات القاتلة إلى الدولة الرومانية حامية الدين المسيحي ، ففكر أبرهة في تلك الدعوة فوجد أنه إن لم يتحرك فستفرغ فارس من حرب القسطنطينية ثم توجه جيوشها إلى اليمن لتقويض ملكة ، فرأى أن من الحكمة أن يتحرك وأن يؤيد يوسطينوس وأن يسير إليه حتى تتصل جيوش أبرهة النصرانية بجيوش نصارى الشام ونصارى القسطنطينية ، ومن ثم تتجه جميعا إلى المدائن لتطعن قلب الجوس طعنة لا تقوم لفارس بعدها قائمة .

وراح أبرهة يدبر تنفيذ خطته : إنه سيزحف بجيشه على الحجاز ولن تستطيع قوة من قوى القبائل المتناثرة بأرض العرب أن تقف في وجهه . سيسطوي على مكة ثم ينطلق منها إلى يثرب ثم يزحف إلى الشام لتلتقى جيوشه بجيوش المنذر بن الحارث بن جبلة ، وفي أرض الشام تتجمع جيوش أبرهة وجيوش المنذر وجيوش يوسطينوس ومنها تخرج جيوش النصارى حاملة الصليب لغزو فارس في عقر دارها .

واستراح أبرهة إلى تدبيره فسيحقق مجد الدنيا وعز الآخرة ، سيدفع عن مملكته شر الفرس وسيقوض كعبة العرب وينشر دين النصارى في مكة كما نشره في اليمن .

كان أبرهة قد اتخذ صنعاء عاصمة للملكة في اليمن وبنى فيها كنيسة فخمة رائعة ، وقد استدل أهل اليمن في بنائها وجعل ينقل إليها في قصر بلقيس رخاما وأحجارا وأمتعة عظيمة ، وركب فيها صلبانا من ذهب وفضة ، وجعل فيها منابر من عاج وآبنوس ، وجعل ارتفاعها عظيما جدا واتساعها باهرا . وقد كان أبرهة يحلم بأن تكون تلك الكنيسة نواة لدولة مسيحية كبرى في اليمن

تنداح حتى تغطي وجه الجزيرة العربية كلها .
وكان التفاؤل يملأ جوارح أبرهة فكتب إلى نجاشي الحبشة : « إني قد بنيت
لك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج
العرب » .

وكان أبرهة يطمع في أن تنافس كنيسته كعبة العرب ، ظن أنه يستطيع
بالترهيب والترغيب أن يوجه حججاج العرب إلى صنعاء لتجنى اليمن ما تجنيه
مكة من حججاج بيت الله . ولكن العرب أعرضوا عن كنيسته وانطلقوا إلى
الحرم من كل فج عميق تهتز بتبليتهم جبال مكة .

وحق أبرهة على عبدة الأوثان الذين أبوا أن يدخلوا في دينه ، ولجوا في
العناد فأولوا كنيسته ظهورهم وقوضوا حلمه الجميل الذي كان يصور له أنه
يستطيع أن يحقق أغراضه السياسية عن طريق دخول العرب في المسيحية
أفواجا . فلو أنهم قبلوا النصرانية لمد سلطانه على الحجاز دون قتال ، أما وإنهم
قد أبوا أن يعتنقوا دينه وظلوا على وثنيته فلم يعد أمامه إلا أن يعلن الحرب على
مكة مركز إشعاعهم الديني ، وأن يهدم الكعبة إرضاء لغروره وتحقيقا لهدفه
السياسي .

وجاء إلى صنعاء جواسيس أبرهة من أحباش وروم والتفوا بأبرهة وراحوا
يقصون عليه أنباء مكة ، فألقى إليهم سمعه وراح يفكر قليلا فيما سمع فأشرق
وجهه بابتسامة عريضة ، فمكة ليس بها تحصينات وأهلها لا قبل لهم به . إن
هي إلا وثبة واحدة وتكون كعبتها أنقاضا تذررها الرياح .

كان أبرهة يدبر لتدمير مكة وكانت مكة آمنة ، الناس من كل بلاد العرب
يطوفون ببيتها العتيق والسلام يرفرف عليها ، فزعيمها عبد المطلب ينفر من
استخدام القوة ويحرص على أن يحل جميع مشاكل مجتمعه بالطرق السلمية ،

فإذا ما حدث بينه وبين أحد خصام التجأ إلى طريق التحكيم ، طريق السلام ، فهو زعيم قبيلة تجارية مصلحتها في إقرار السلام ضمانا لأمن قوافلها التي تجوب الآفاق شمالا وجنوبا وشرقا وغربا .

كانت كل أسرة من الأسر المكية في جوهرها حكومة قائمة بنفسها ، ولكنها وضعت مصالح مكة أولا وقبل كل شيء ، فتجمعت حول الحرم لأغراض اجتماعية واقتصادية ودينية وأسست قيادتها لسادات أسرها العريقة . وراحت جميع الأسر تعمل على أن تجنى خيرات الأرض إلى الوادي المقدس ، وعلى أن يسود الأمن الحرم ، فكان ذلك التجمع هو وحدة التنظيم السياسي الطبيعية للمجتمع المكي ، « أو لم تمكن لهم حرما آمنا يجبي إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ، ولكن أكثرهم لا يعلمون » .

وكانت نيران الحرب مشتعلة في فارس وفي الحيرة وفي الشام وفي الدولة الرومانية . وكان أبرهة يجمع وقودها بينا كانت النيران على قمم جبال مكة لترشد قوافل التجارة إلى سبلها . وقد أرسل عبد المطلب قوافل قريش إلى فارس وإلى أنطاكية وإلى غزة وإلى مصر وإلى الحبشة ، فقد كانت علاقته طيبة بكل ممالك الشرق الأوسط وجنوب الجزيرة العربية على الرغم من العداوات الناشئة بين تلك الدول .

كانت قوافل قريش إذا ما أهل رجب ترتحل إلى عدن والشحر فقيم في عدن أيام رمضان فتشترى التجارات وأنواع الطيب ، ومنها يرتحلون إلى سوق صنعاء وكانت تقوم في النصف من رمضان إلى آخره . وكان عبد المطلب يؤثر الخروج في هذه الرحلة فقد كان له أصدقاء من سادات اليمن .

وراحت قريش تتأهب لرحلة الشتاء فأناخ الرجال ألفين من البعير خارج الحرم ، وانطلق العبيد من أحباش وروم وفرش ينقلون على أضواء المشاعل

السلع من مخازن ساداتهم إلى ظهور الإبل ، وقد غص المكان بشباب قريش وشيوخها ونسائها فما من رجل أو امرأة موسرة إلا وله نصيب في القافلة . وانتشر في المكان الصيارفة يقرضون المحتاجين بالربا ، وجلس الكتاب يعقدون العقود ويبرمون المواثيق ، وعلى مرمى حجر من قطار الإبل ضربت البغايا خيامهن وجاء طلاب اللذة بالخمير . وسال عرق الفقراء يروى الصحراء بينا كان أشراف قريش في أحضان الغايات المتطلعات إلى ما في جيوبهم من ذهب وفضة .

وجلجلت ضحكات المجون تشق الفضاء ، ومزقت أنات المكدودين سكون البيداء ، وامتزجت آهات اللذة بآهات التعب برغاء الإبل بضوضاء الصيارفة والمضارين وصياح النسوة اللاتي تترقق الحياة في وجوههن في الأسواق ويطل الجشع من أعينهن كلما رأين الأثرياء ، حتى نال النصب من الجميع فارتموا على الأرض وأنفاسهم مبهورة يترقبون طلوع الصباح .

وأشرقت الشمس واستأنف الرجال تجهيز القافلة ، بينا انسحب سمار الليل وندماء البغايا وحلفاء الكأس إلى دورهم ليستريحوا بالنهار حتى يستطيعوا أن يستأنفوا إطفاء شهوة الجسد متسربلين بالظلام .

وتم تجهيز القافلة ، وجاء عبد المطلب يحيط به أبناءه العشرة رجالا أشداء كتماثيل الذهب ، ثم راح يودعهم حتى إذا ما أقبل عبد الله ضمه إلى صدره في حنان وقبله قبلة أودعها كل حبه ، ثم أذن بالرحيل ففصلت العير وانطلقت في قطار طويل لم تشهد مكة له مثيلا ، فقد بلغ عدد الإبل ألفين وعدد الرجال ثلاثمائة .

وبلغت القافلة الشحر فنزلت بسوقها ، كانت الأشجار وارفة الظلال والأرض قد أخذت زحرفها وازينت ، فالخضرة تمتد إلى الآفاق والجدال

تندفق من الجبال كأنها شرايين الحياة وروعة الطبيعة تسر القلب ، فقد كانت الأمطار تغسل كل شيء وتبعث الحياة في الأرض الميتة ، ثم تجرى في أودية اليمن إلى مأرب وتفرش شواطئها بالزهور والثمار .

ونعم رجال قريش يطيب المقام ، كانوا يشتغلون بالنهار بالتجارة ويتسامرون بالليل مع رجال قضاة ، فقد كان ثلاثة أبطن من قضاة مُجْتَوِّرين بين الشحر وحضر موت ، بنو ناعب وبنو داهن ، وبنو رثام ، أقلهم عددا وأشجعهم لقاء .

وسقط الليل وجلس الرجال إلى الرجال ، ودار الحديث حول الكهان فقد كانت الكهانة والعرافة تستولى على ألباب الناس ، وقد كان الرجال يهرعون إلى الكهان أينما كانوا وعلى أى دين كانوا ، فقد كان بهم شوق إلى الاطلاع على الغيب ، وكانوا يثقون في الكهان ثقة لا حد لها حتى إنهم كانوا يفرعون إليهم لفصل خصوماتهم ومنازعاتهم ، أو إذا حز بهم أمر .

وراح سيد من سادات قضاة يتحدث فقال في زهو :

— كانت لبني رثام عجوز تسمى خويلة ، وكانت لها أمة من مولدات العرب تسمى زبراء ، وكان يدخل على خويلة أربعون رجلا كلهم لها مَحْرَم : بنو إخوة وبنو أخوات ، وكانت خويلة عقيما وكانت بنو ناعب وبنو داهن متظاهرين على بنى رثام ، فاجتمع بنو رثام ذات يوم في عُرس لهم وهم سبعون رجلا كلهم شجاع ببئس ، فطعموا وأقبلوا على شراهم ، وكانت زبراء كاهنة فقالت لخويلة :

— انطلقى بنا إلى قومك أنذرهم .

فأقبلت خويلة تتوكأ على زبراء ، فلما أبصرها القوم قاموا إجلالا لها

فقالت :

— يا ثمر الأكياد ، وأناداد الأولاد ، وشجا الحساد ! هذه زبراء تخبركم عن
أنباء ، قبل انحسار الظلام ، بالمؤبد (الداهية) الشنعاء ، فاستمعوا ما
تقول !

قالوا :

— ما تقولين يا زبراء ؟

فقلت :

— والليل الغاسق ، واللّوح (الهواء بين السماء والأرض) الخافق ،
والصباح الشارق ، والنجم الطارق ، والمزن الوداق ، إن شجر الوادى ليأدو
تختلا (خداعا) ويحرق أنيابا غضلا ، وإن صخر الطود لينذر ثكلا ، لا
تجدون عنه معلا (منجيا) .

فوافقت قوما سكارى فقالوا :

— ربح خجوج (سريعة المر) ، بعيد ما بين الفروج ، أتت زبراء بالأبلىق
النتوج (ما لا يمكن) .

فقلت زبراء :

— مهلا يا بنى الأعزة ! والله إني لأشم ذفر الرجال تحت الحديد !

فقال لها فتى منهم :

— يا حذاق ، والله لا تشمين إلا ذفر (تنن) إبطيك !

فانصرفت عنهم فارتاب قوم من ذوى أسنانهم ، فانصرف منهم أربعون
وبقى ثلاثون فرقدوا في مشربهم ، وطرقتهم بنو داهن ، وبنو ناعب فقتلوهم
أجمعين .

كان عبد المطلب يصغى إلى حديث الرجال في انتباه ثم سرعان ما غفل عنه
وراح يفكر في نفسه : إنه في شوق إلى الذهاب إلى كاهن من الكهان أو حبر

من الأحبار ، فهو يحس إحساسا غامضا أنه مقبل على أمر ذى شأن ، فراح يسأل من حوله من سادات القوم عن كاهن شهير ، فدلوه على حبر في أرض اليمن .

وانتقلت قافلة قريش إلى عدن على ساحل بحر الهند جنوبى باب المندب بميله إلى الشرق ، وهو مورد حط وقلاع مراكز الهند ومصر ، فكانت سوقا رائجة للبضائع الهندية والأقمشة المصرية وألقوا أسماعهم إلى أحاديث الأقسام الذين غصت بهم السوق ، حتى إذا ما أقبل رمضان شدوا الرحال إلى صنعاء وهم يحملون بالخضرة والماء ، فقد كانت عدن جرداء يجلب إليها الماء على ظهور الإبل من آفاق بعيدة .

كانت صنعاء من أحسن البلاد مساكن وأطيبها وأصحها هواء ، فانطلق رجال قريش يشاهدون ظفار قصر الملك أبرهة وقصر غمدان وهو قصر عجيب من عشرين طبقة بعشرين سقفا بين كل سقفين عشرين ذراعا ، فيه مائة مسكن ، وأعلى غرفه ممرد بقوارير ، وقد زين بتهاويل وزخارف وقف أمامها أهل مكة فاغرى الأفواه من الدهشة ، أما عبد المطلب فقد انطلق إلى الحبر الذى دل عليه ليخبره بأنباء الغيب ، ويرى من ذلك التشوف الذى استبد به .

ودخل عبد المطلب على الحبر وكان يقرأ فى التوراة ، فألقى عليه التحية ثم

جلس فقبال له الحبر :

— ممن الرجل ؟

— من قريش .

— من أيهم ؟

— من بنى هاشم .

— أتأذن لي أن أنظر في بعضك ؟

— نعم ، ما لم يكن عورة .

ففتح الخبر إحدى منخري عبد المطلب فنظر فيها ثم نظر في الأخرى ،
فقال :

— أنا أشهد أن في إحدى يديك ملكا ، وفي الأخرى نبوة .

وصمت الرجل برهة ثم قال :

— إنما نجد ذلك في بنى زهرة ، فكيف ذلك ؟

فقال عبد المطلب وهو شارد :

— لا أدري .

وخرج عبد المطلب من عند الخبر وهو يفكر فيما سمع ، أن في إحدى يديه
ملكاً وفي الأخرى نبوة ، إن ذلك في بنى زهرة . وتذكر عبد المطلب ما شاع
في مكة عن سودة كاهنة قريش ، إنها قالت لبنى زهرة ذات يوم : فيكم نذيرة
أو تلد نذيراً فاعرضوا على بناتكم ، فعرضت الأمهات عليها بناتهن فقالت في كل
واحدة منهن قولاً ، حتى عرضت عليها آمنة بنت وهب فقالت : هذه النذيرة
أو تلد نذيراً له شأن وبرهان .

ووقر في ضمير عبد المطلب أنها آمنة ، وفي تلك اللحظة ملأت صورة عبد
الله أقطار نفسه ففاضت جوانحه حناناً ، وأحس أمناً غامراً ، وسرى في جوفه
همس حبيب يقول : إنهما آمنة وعبد الله .

وأشرقت جنباته بالنور ، ورفرت على شفثيه بسمه رقيقة حاملة .

قفلت قافلة قريش بالرجوع إلى مكة وقد أسرى بهم الحادى وأمعن فى السير ، وخاصم الكرى العيون ، يطوون الفلاة من الشوق للقاء الأحبة على جناح المحبة ، فأقعدة الركب تهوى إلى البيت العتيق ، وإلى فلذات الأكباد ، وإلى الأهل والخلان ، وإلى الأرض الطيبة والوطن الحبيب .

وكان عبد المطلب مشغول القلب مشغول البال ، فقد ترك فؤاده هناك حيث الأحبة والصحاب ، وملاً رأسه حديث الخبر ونبوءته ففى إحدى يديه ملك وفى الأخرى نبوة ، وإن ذلك فى بنى زهرة . ترى أيجتمع الملك والنبوة فى رجل واحد ، أم أن الملك فى رجل والنبوة فى آخر ؟

واستمر عبد المطلب يجرى وراء أفكاره يقلب الأمر ويبدىء ويعيد ، ويتذكر كل ما تنبأ به المتنبون ، فسودة عمه وهب كاهنة قريش قد تنبأت بأن آمنة نذيرة أو تلد نذيرا ، فإن زوج عبد الله بآمنة فقد تتحقق بشارة حبر اليمن وتأتى النبوة وهو يعرف النبوة حق المعرفة ، فيا طالما أصغى إلى قصص الأنبياء يرويهها اليهود أيام كان غلاما فى يثرب فى كنف أمه سلمى بنت عمرو الخزرجية ، أما الملك فإنه لا يدرى كيف يقوم فى مكة ، وما عرف المجتمع الذى تكون حول زمزم الملكية يوما ، فسادات مكة وشيوخها هم مصدر السلطات فيها ، إلا أنه قد عزم على أن يزوج ابنه عبد الله فى بنى زهرة ؛ أن يزوجه آمنة بنت وهب وأن يتزوج هو نفسه فيهم ، فمن يدرى فقد تتحقق نبوءة حبر اليمن ويأتى الملك والنبوة .

وترادفت الأشواق واضطرم الحشا بالحنين والقافلة تسرى في الكون العريض ، وتتابع الليل والنهار حتى بدت مكة للعيون فإذا بثراها كأنه التبر ، وإذا بالأرواح تستنشق أطيب عبير ، وإذا بدموع الرقة تبلل النفوس ، وراح كل راكب يحث راحلته على الإسراع ولو طأوع نفسه لنزل عن راحلته ، وانطلق يعدو وهو يلثم كل الوجود .

وبدا البيت العتيق وركناه فحفقت القلوب وفاضت الأشواق حتى سألت الدموع من غمام الجفون ، وأناخت القافلة خارج الحرم فهرع أهل مكة يستقبلون العائدين بالأحضان والقبلات والعبرات ووجيب الأفدة المتلهفة إلى اللقاء والعناق ، لإطفاء نار الشوق التي تلتظي في الجوانح والمهجع والنفوس .

وخف أبناء عبد المطلب العشرة كأنهم ظباء تتوآب إلى أبيهم الجليل ، فراح يضمهم إلى صدره وهو دامع العين يكاد يذوب رقة ، حتى إذا ما تقدم عبد الله وارتمى بين ذراعي أبيه احتواه عبد المطلب وهو يستشعر نفس المشاعر الفياضة الرقيقة الناعمة التي استشعراها يعقوب يوم أن ضم إلى قلبه بعد طول غياب يوسف الحبيب .

ولم ينس عبد المطلب في عمره اللقاء وفورة العواطف ابنه العباس ، فقد تركه في حجر أمه يوم أن شد الرحال إلى اليمن وكان قد أشرف على الثانية من عمره . إنه ليذكر تلك اللحظة التي حمله فيها ليقبله قبل الرحيل ، وإنه ليفكر كيف تعلق بعنقه وأبى أن يعود إلى أمه وظل متشبثا به إلى أن انتزعت من أحضانه وهو يبكي ، ولم يكف عن العويل إلا بعد أن أخذ يداعبه ويلثمه هنا وهناك ويعده بالتمر والزبيب .

وراح رجال القافلة يطوفون بالكعبة طواف القدوم . كانت الشمس

ترسل أشعتها الحامية فينقصد العرق من الوجوه ، ولكن الطائفين كانوا يحسون كأنهم بالجنان يطوفون ، فقد كانت نفوسهم مطمئنة لا هم ولا قلق ولا خوف ولا ضياع في الكون العريض ، بل كانوا في حرم الله آمينين . ولولا تلك الأصنام التي تكدست في جوف الكعبة ونصبت حولها لفتحت عليهم بركات من السماء ولملت جوانحهم بالنور .

وانطلق رجال القافلة إلى دورهم يحمل كل منهم ما جاء به لأهله من هدايا ، وانطلق عبد المطلب إلى داره وحوله أبنأؤه وعبيده ورجاله يحملون من الخيرات الشيء الكثير ، عرف بعضها طريقها إلى مخازن عبد المطلب حتى تحمل إلى أصحابها ، واتخذ بعضها طريقه إلى دار زعيم قريش لتقسم بين نسائه وأولاده وإمائه وعبيده ، وليتصدق ببعضها على المحتاجين من المكيين .

وملاً الحبور دور قريش فقد كانت رحلة الشتاء موفقة ، وجاء الليل فانساب الشباب إلى مجالس اللهو والسمر والمجون ، ودخل عبد المطلب ليستريح ولكنه لم تغمض له عين فقد راح يفكر في نبوءة الحبر اليهودي ، واستولت النبوءة عليه فلم يطف به النوم ، فوطن النفس على أن ينطلق في الصباح إلى دور بنى زهرة ، وأن يخطب آمنة بنت وهب لابنه عبد الله وهالة بنت وهيب لنفسه .

وتنفس الصبح ومد فراش عبد المطلب في ظل الكعبة ، وجاء بعض من كانت لهم تجارة في القافلة ليسألوه عن أموالهم ولكنهم لم يجدوه ، فظلوا واقفين لا يجلس أحد منهم على فراشه احتراماً له وإجلالاً لقدره . ثم جاء عبد المطلب ومن حوله أبنأؤه العشرة كأنهم أسد غاب فحياه الجميع في توقيف .

وجلس عبد المطلب على فراشه وحده وجلس أبنأؤه على مقربة منه ، وجاء أصحاب الحاجات يسألونه حاجاتهم فرد على كل منهم ماله ، حتى إذا ما

انصرفوا جميعا حانت منه التفاتة إلى بئر زمزم فتذكر حلمه الذى أقض مضجعه
في أمسه بعد أن مشى الوسن إلى عينيه ، فقد أمر في النوم بالوفاء بنذره ، قيل
له : « قرب أحد أولادك الذى نذرت » .

وراح يتفرس في وجوه مولده حتى إذا ما التقت عيناه بعيني عبد الله خفق
قلبه حنانا ، إنه كان يفكر بالأمس في تزويجه بأمنة بنت وهب ، النذيرة ، أو
التي ستلد النذير .

وها هو ذا اليوم لا يدرى ماذا يخبئ القدر لابنه الحبيب ، ولم يشأ أن
يسترسل في عواطفه فقال :

— يا بنى ، كنت نذرت نذرا علمتموه قبل اليوم ، فما تقولون ؟

وساد القلق برهة ثم قالوا :

— الأمر لك وإليك ونحن بين يديك .

وأطرق عبد المطلب برهة فقالوا له :

— كيف نصنع ؟

— ليأخذ كل رجل منكم قَدْحًا ثم يكتب فيه اسمه ، ثم اتئوبى .

فانطلق أولاده إلى هبل وكان في جوف الكعبة ، وراح كل واحد منهم
يكتب اسمه على سهم ثم عادوا إليه وأتوه بالقداح ، فأخذها ونهض وذهب إلى
هبل وأولاده من حوله .

ودعا بالأمين الذى يضرب بالقداح فدفع إليه قداحهم وقال :

— حرك ولا تعجل .

ووضعت السهام في كيس ومد الأمين يده ليخرج سهمًا ، فحبست
الأنفاس وخفقت القلوب وزاغت الأبصار . وراح عبد الله وأبو طالب
والزبير يتبادلون النظرات فقد كانوا أشقاء ، وكانت أمهم فاطمة بنت عمرو

ابن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب .
وخرج سهم عبد الله فأحس أبو طالب رأسه يدور ، إنه يحب عبد الله من
كل قلبه ولا يطيق أن يرى الشاب الوسيم يذبح أمام عينيه ، ومادت الأرض
تحت قدميه إلا أنه راح يجمع شتات نفسه حتى لا ينهار .
وأخذ عبد المطلب الشفرة ثم أقبل بعبد الله إلى إساف ونائلة ليذبحه وهو
واله حزين ، فقد كان عبد الله أحب ولده إليه ، وكان عبد المطلب يرى أن
السهم لو كان قد أخطأه فقد أبقى .

وانتشر الخبر في أرجاء مكة انتشار الريح ، فقامت قريش من أنديتها تهروا
إلى حيث انطلق عبد المطلب وعبد الله ، وجاء بنو مخزوم أخوال عبد الله وقد
ارتسم الفرع في وجوههم فقد كان عبد الله حبيبا إلى قلوبهم جميعا .
وأقى بعبد الله وأضجعه ووضع الشفرة على عنقه ليذبحه وعبد الله مستسلم
كما استسلم إسماعيل لأمر الله من قبل . وهم يذبحه فوثب إليه أبو طالب
وأمسك يد عبد المطلب عن أخيه وقال رجال من قريش :

— ماذا تريد يا عبد المطلب ؟

— أذبحه .

فقالت له قريش وبنوه :

— والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه . لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي

بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا !

ووثب بنو مخزوم إلى عبد المطلب فقالوا :

— يا أبا الحارث إنا لا نسلم ابن أختنا للذبح ، فاذبح من شئت من ولدك

غيره .

— إني نذرت نذرا وقد خرج القدح ولا بد من ذبحه .

فقال بنو مخزوم :

— كلا لا يكون ذلك أبداً وفينا ذو روح .

وقال المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم :

— والله لا تذبحه أبداً حتى تعذر فيه ، فإن كان فداؤه بأموال فديناه .

— إنا لنفديه بجميع أموالنا من طارف وتالد .

— والله ما أحسنت عشرة أمه .

— يا أبا الحارث إن هذا الذى عزمت عليه لعظيم ، وإنك إن ذبحت ابنك

لم تتهنّ بالعيش من بعده . ولكن لا عليك ، أنت على رأس أمرك تثبت حتى

نصير معك إلى كاهنة بنى سعد إن أمرتك بذبحه ذبحته ، وإن أمرتك بأمر لك

فيه فرج قبلته .

وتعلقت العيون بشفتى عبد المطلب فلما قال : « لكم ذلك » زفر الجميع

في راحة ، فقد كان دون ما يبغي عبد المطلب خطوب تضطرب .

وانتشر الخبر في مكة فأطلت النسوة ينظرن إلى الفتى الذى نذر أبوه ذبحه

في عطف وإشفاق ، إنه عبد الله ابن زعيم قريش وما أكثر ما وقعت عيونهن

عليه من قبل ، ولكنه بدا في تلك اللحظة مسربلاً بجلال وجمال ، بجلال

اللحظة الرهيبة التى يعيشتها وجمال الصبر على ما نزل به من خطوب ، فوقع

في قلب بعض النسوة ما وقع في قلوب النسوة اللاتي دعتن امرأة العزيز لما

سمعت بمكرهن وقلن :

— حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا مَلَكٌ كريم .

وأطالت رقيقة بنت نوفل النظر إلى وجه الفتى الجميل ، إنها لترى في وجهه

شيئاً لا ترى مثله في وجه شباب قريش ، إنه جميل وما أكثر الجمال في قريش ،

ولكن جماله نادر يشف عن جمال الروح . إن كل جارحة من جوارحها تهفو

إليه ، وإنما لتتمنى من كل قلبها أن يكون لها زوجها فهى تحس في أعماقها أن سيكون لذلك الفتى شأن أى شأن .

وشردت رقيقة ورن في جوفها صوت أخيها ورقة بن نوفل يقول : « إن لهذه الأمة نبيا وقد دنا يوم مولده » فإن كان ما يزعم ورقة حقا فلن يكون أبوه غير ذلك الفتى الذى يتأهب أهله للانطلاق به إلى خير لترى كاهنتها رأيها فيه ، فريقة صاحبة فراسة وما خانها فراستها من قبل .

وتأهب عبد المطلب وبنوه وبنو مخزوم أخوال عبد الله للانطلاق إلى المدينة ، فقد كانوا يرون الكهانة حقا ، ثم شدوا الرحال إلى كاهنة بنى سعد وخلفوا وراءهم قلوبا واجفة ، وقد كانت أكثر القلوب اضطرابا قلب أمه فاطمة وقلب آمنة بنت وهب . فقد كان عبد الله صديق الصبا قبل أن يبلغ مبلغ الرجال وقبل أن يضرب على آمنة الحجاب ، وقلب رقيقة بنت نوفل التى كانت تحلم بالفتى الهاشمى فى يقظتها وفى منامها .

وبلغ الركب المدينة ، وسأل عبد المطلب عن كاهنة بنى سعد فقيل له إنها بخبير ، فركبوا حتى جاءوها ، فراح عبد المطلب يقص عليها نذره وما أراد بابه فقالت لهم :

— ارجعوا عنى اليوم حتى يأتينى تابعى فأسأله .

فرجعوا من عندها ، فلما خرجوا عنها لم يذهب عبد المطلب إلى أخواله بنى النجار ، ولم ينطلق إلى مراتع صباه ، ولم يذهب إلى أسواق المدينة كما اعتاد أن يذهب أيام أن كان فى حضن أمه سلمى بنت عمرو ، فقد كان مشغول البال بمصير ابنه الحبيب ، فقام يدعو الله ويبتهل إليه أن يوفقه إلى ما يرضاه . رأى إبراهيم عليه السلام فى منامه أن يذبح ابنه الوحيد فامتثل إلى أمر الله ، فأبراهيم خليل الرحمن ، وقد برهن بذلك الامتثال على أن حبه لله أشد من حبه (مولد الرسول)

لوحيدة وقلدة كبده ، فقد الله الابن الحبيب بذبح عظيم . ونذر عبد المطلب نذرا أن يذبح واحدا من ولده إذا بلغ بنوه عشرة ، وقد أراد عبد المطلب أن يوفى بنذره فمنعه أحوال عبد الله وبنوه ، وأشاروا عليه أن يستشير كاهنة من كواهنهم . ترى لو كان إيمان عبد المطلب كإيمان أبيه إبراهيم أما كانت السماء تفتدى ابنه بذبح عظيم ؟ إن إبراهيم كان أمة قاننا لله حنيفا ولم يك من المشركين . وجاء الصباح فغدا عبد المطلب وأبناؤه وأحوال عبد الله من بنى مخروم إلى كاهنة بنى سعد فقالت لهم :

— قد جاءنى الخبر ؟ كم الدية فيكم ؟

قالوا :

— عشر من الإبل .

قالت :

— فارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشرا من الإبل ، ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح ، فإذا خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم ، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم .

فخرجوا حتى جاءوا مكة ، فلما أجمعوا على ذلك من الأمر قام عبد المطلب عند هبل يدعو الله ، ثم قربوا عبد الله وعشرا من الإبل ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل عشرين ، وقام عبد المطلب يدعو الله أحر دعاء ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل ثلاثين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل أربعين .

وقام عبد المطلب يدعو الله وراح أبو طالب يرنو إلى أخيه في قلق وحب ،
وساد المكان سكون رهيب ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله فسرت
همهمة فزادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل خمسين ، وقام عبد المطلب يدعو
الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشر من الإبل فبلغت
الإبل ستين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد
الله ، فزادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل ثمانين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ،
ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل
تسعين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ثم ضربوا فخرج القدح على
عبد الله .

وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، ولاح الهلع في وجه أبي
طالب والتفت ناحية أخيه الزبير فألفاه شاحبا لكأما كان يعاني سكرات
الموت ، واتجهت الأبصار إلى عبد الله فإذا به صابر وإن غامت صفحة
وجهه الجميل بسحابة من الحزن ، فقد أغمه أن ربه لم يرض عن
فدائه .

وزادوا عشرا من الإبل فبلغت مائة ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم
ضربوا فخرج القدح على الإبل فارتجت جنبات الكعبة بصيحات الفرح ،
قالت قريش ومن حضر :

— قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب .

وبلغ التهليل مسامع الواقفين خارج الكعبة ، وكانت بينهم رقيقة بنت
نوفل قد جاءت لترى مصير عبد الله الذي شغفها حبا ، فقالت في لهفة
للواقفين عند باب الكعبة :

— ماذا جرى ؟

— نجا عبد الله ورضا الإله .

وأحست راحة وإن ظل قلبها يخفق كجناح حمامة في صدرها ، واشربت بعنقها لترى فتى قریش الذى أصبح حديث مكة وقبلة الأنظار ليستريح الفؤاد الواجف الوهان ، إلا أن خروج عبد الله قد تأخر فعادت تقول فى قلق :

— ماذا هناك ؟

قال عبد المطلب :

— لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات .

وعاد الخوف مرة أخرى ليستبد بها ، ولفها قلق ، وعجبت لذلك الشيخ الذى يصير على أن يضرب القداح على ابنه ثلاثا بعد أن أعلن الإله رضاه ، ليته يخرج الساعة ويذبح الإبل المائة ويريح القلوب المضطربة ولا يمد فى العذاب مدا .

وضرب الكاهن على عبد الله والإبل وقام عبد المطلب يدعو الله . وذهب أبو طالب إلى أخيه وقد لف ذراعه حوله كأنما يمنع عنه عاديات القدر ، وحبست الأنفاس ، وأخرج الكاهن السهم ، وما إن وقعت عليه العيون حتى انطلقت أصوات الفرح من الحناجر :

— خرج القدح على الإبل .

ثم عاد الكاهن يضرب الثانية على الإبل وعبد الله ، وعبد المطلب قائم يدعو الله ويناشده وقد غمرت الدموع روحه ، فالذبيح أحب أبنائه إليه وإنه ليبتهل إلى الله أن يكون رضاه بالدية حقا ، فقد كان حبه لإلهه كحبه لأبنائه أو أشد . وخرجت يد الكاهن بالقدح وارتجت جنبات الكعبة بأصوات الفرح :

— خرج القدح على الإبل .

وظفرت الدموع في مآقي القوم فقد بلغ الانفعال أشده ، إنها الثالثة فإن رضى الإله نجا عبد الله ، وجرت السنة في الدية بمائة من الإبل ، وتأهب الكاهن ليضرب بالقدح فانبهرت الأنفاس وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وظل عبد المطلب قائما يدعو الله ويبتهل إليه ويناشده في حرارة حتى إن أفئدة الناس كادت تنفطر أسى على الشيخ الجليل الذى يكاد يذوب في حرارة دعواته .

ووقفت رقيقة بنت نوفل وقد أسندت قلبها بيدها لكأما تمنعه من أن يفر من بين جنباتها ، وقد خنقتها عبراتها وغامت مقلتها بغمام الجفون ، فرأت مشاهد مكة تتراقص أمام عينيها ، وخيل إليها أن نور الوجود يوشك أن ينطفئ .

وراحت العيون كلها تتبع يد الكاهن وهو يمدها في الكيس ويخرج السهم ، وإذا بأصوات البشرى تدوى في جوف الكعبة :

— خرج القدح على الإبل .. خرج القدح على الإبل .

وضم أبو طالب أخاه عبد الله إلى صدره ودموعه تجرى على خديه ، وقلبه يدوى بين جنبيه ، ومشاعره الفوارة تنتشر بين الضلوع ولا تجد لها متنفسا إلا في قبلات الفرح التى كانت تغمر وجه الذبيح بلا حساب .

وأقبل الزبير وأبو لهب والحارث يضمون عبد الله إلى قلوبهم ، وهرع عبد المطلب إلى ولده الحبيب ودموعه تبلل لحيته واحتواه بين جنبيه لكأما يحتوى أنفاس كئيب في الوجود . ثم قال في صوت متهدج يقطر رقة وبشرا وانفعالا :

— اليوم ولدت لى .

وراحت رقيقة بنت نوفل تزاحم الناس وهى ذاهلة عن كل ما حولها إلا مشاعرها التى كانت تدفعها دفعا لرؤية الحبيب الذى أصبح أسطورة قریش ،

لعل قلبها المتشوف لعبد الله يهدأ ، ولعل نفسها تستقر وتعرف السلام ، ولكنها عجزت عن أن تشق لها طريقا في الجموع التي كانت تتدافع بالمناكب لتصل إلى حيث كان بنو هاشم وبنو مخزوم والذبيح .

ومرت لحظات وعبد الله قائم بين الجموع وقد صار مستودعا لأحاسيس فوارة غاية الفورة ، فراحت كنوز قلبه تمتد بمشاعر الفرح والنشوة والنصر حتى فاضت جوانحه بعواطفه الرقيقة فجرت من عينيه الدموع ، ثم أحس الناس جميعا أن الشكر قد وجب لله فخرؤا سجدا وبكيا .

انفرج باب الكعبة عن عبد المطلب وعبد الله وإخوته وسادات بنى هاشم
وبنى مخزوم ، فصوبت العيون إلى عبد الله أحسن فتى يرى في قريش وأجملهم
وقد زاده الفداء سحرا على سحره .

كان عبد الله في الثامنة عشرة من عمره ، وقد خرج من باب الكعبة يتألق
في مجده فراحت فتيات قريش من بنى مخزوم وعبد شمس وعبد مناف يأكلنه
بأعينهن ، وقد استولت عليهن جميعا أمنية واحدة : أن يصبح عبد الله زوجا
لهن ، وأن يأتي ذلك اليوم السعيد الذى يعلق فيه عليه وعليهن الأبواب .
وراحت رقيقة بنت نوفل تخوض في الجموع التى تكدست في الحرم فقد
عزمت على أن تصل إلى عبد الله مهما قاست من مشقة ، فقوادها يهوى إليه ،
وكل جارحة من جوارحها تشتهيها ، وهى لا تستطيع قمعا لعواطفها المشبوبة
التي تستبد بها ، فراحت تتقدم صوب من خفق بحبه الفؤاد ، وقد استحالت
كل حواسها إلى عيون ترصد الفتى الهاشمى وقلوب تضطرب بالهوى والصبابة
والهيام .

وجيء بمائة من أطيب إبل عبد المطلب ، وجاء صبيان مكة وفقراؤها في
أثرها . فماج الناس في الحرم موجا شديدا ، واشتد الزحام حتى إن رقيقة بنت
نوفل جرفت بعيدا عن عبد الله بعد أن صارت منه قاب خطوتين أو أدنى ، ولم
يدب اليأس في قلبها بل راحت تجاهد لتدنو منه مرة أخرى فقد وقر في نفسها
أنها تسعى لخير الدنيا وعز الآخرة .

وراحت الإبل تنحر بين إساف ونائلة ، وراح فقراء مكة ينقضون عليها
انقضاض الصقور وقد رفت على شفتى عبد المطلب ابتسامة رضا ، وسرعان
ما تذكر وهو في قمة نشوته نبوءة الخبر اليمنى ونبوءة سودة عمه وهب ، فرأى
أن يتوج أفراحه بتزويج عبد الله آمنة بنت وهب ، واستولت عليه الفكرة فراح
يتلفت يبحث بعينيه عن سيد بنى زهرة فإذا به قريب منه ، فذهب إليه وراح
يناجيه فأشرق وجه سيد قريش وسيد بنى زهرة بالسرور والبهجة .

ونجحت رقيقة في أن تصل إلى حيث وقف عبد الله فتهلل وجهها بالفرح
وإن كانت أنفاسها مبهورة وقلبا يدوى دويا بين ضلوعها ، ومالت برأسها
نحو الفتى المنتصب بين قومه كتمثال الذهب وقالت في صوت مضطرب :
— أين تذهب يا عبد الله ؟

— مع أبى .

فجمعت نفسها التى ذهبت شعاعا وقالت في وجد :

— لك مثل الإبل التى نحرت عنك وتعال معى .

فقال عبد الله وقد أشاح بوجهه عنها :

— أنا مع أبى لا أستطيع فراقه .

كانت رقيقة من أجمل النساء وكانت تطمع في عبد الله ، فقالت لمن شغفت
به حبا في حرم الكعبة دون أن تغلق الأبواب : هيت لك ، فأعرض عنها لأن
الكريم يحمى عرضه ، ولو كان مؤمنا لقال لها ما قال يوسف لامرأة العزيز :
« معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون » .

وأفاقت رقيقة على طعنة الإعراض التى سددها حبيب الروح إلى قلبها
الولهان فأحست كبرياءها تدمى ، وحققت على نفسها لذلك الضعف الذى
استبذ بها وجعلها تعرض نفسها رخيصة على فتى قريش .

رخيصة؟! إنها عرضت عليه مائة من الإبل ، ليته بقبل ، فإن فيه شيئاً غامضاً مثيراً يشدها إليه ، إن فيه سحراً تفتتح له الروح قبل أن يحن إليه الجسد ، إن فيه إشراقاً لم تر مثله في شباب قريش ، إن فيه سرّاً لا تعرف حقيقة كنهه وإن كانت تحس خطره كأنما قد ألهمته .

وجاء رسول وهب إلى دور بنى زهرة بالبشرى وقال إن زعيم قريش عبد المطلب بن هاشم قادم هو وابنه الذبيح ليزوج عبد الله آمنة بنت وهب ، وانتشر النبأ بين نساء بنى زهرة ففاضت القلوب بالفرح ، وخفت برة بنت عبد العزى إلى حيث كانت ابنتها آمنة وقالت لها وقد تهللت بالسرور وفؤادها يرقص طرباً بين جنبيها :

— إن عبد المطلب قادم ليزوجك عبد الله .

وأطرقت آمنة حياءً وإن أشرقت أساريرها ، وإن خفق قلبها أعذب خفقات في الوجود ، خفقات تحقيق أعظم حلم راود فتاة ، فقد كان عبد الله أملاً مذكوراً كان يلهو مع الغلمان في ربوع مكة وعلى روابيها ، وكانت ترقب في لهفة ذلك اليوم السعيد الذي يقبل فيه عبد الله الكوكب المنير بين إخوته ليطلبها لنفسه زوجة .

كانت أعز أمنيات حياتها أن يأتي البشير بأروع نبأ يهفو إليه فؤادها ، وها هي ذى أمها الحبيبة تحمل إليها البشرى متلهلة الأسارير ، فنستشعر آمنة أن الوجود كله يخفق بالفرح ، وأن جبال مكة ووديانها تترنم بأهازيج البهجة ، وأن إشراقاً ساحرة قد أشرقت على الكون فغمرته بنور لطيف يملأ النفوس أمناً ، إنها رقت حتى أحست كأنما تسبح في فضاء هواؤه النشوة والحبور ، ولكنها راحت تجاهد لتدارى حقيقة مشاعرها غير أنها عجزت عن ذلك ، فقد كان وجهها مرآة صادقة للمشاعر الناعمة المواراة بين الضلوع .

جاءت جدتها قيلة بنت أمي كبشة أم وهب تسعى وقد هزها النبأ ، فما كانت تجد في قريش فتى كفتا لفتاة بنى زهرة مثل عبد الله ، فراحت تقول في صوت متهدج خنفته عبرات الفرح :

— مبارك . مبارك يا آمنة .

وارتمت الفتاة في أحضان جدتها فاحتضنتها وقلبا يتدفق بالحنان ، وغابا عن الوجود لحظة مترعة بأنبل ما في البشرية من عواطف . وراحت برة ترنو إلى تعانق العزيزتين فظفرت الدموع من مآقيها وقد هزتها شدة انفعالها هذا .

كان سادات قريش يتشاورون قبل عقد زواج فتى من قتيانهم في دار الندوة ، فقد كانت المصاهرة أمرا يهم القبيلة كلها ، فالفتى القرشي الشريف سيربط قبيلته بقبيلة أخرى ، فلا بد أن يكون هناك تكافؤ بين الزوجين وبين الأسرتين وبين القبيلتين . وقد كانت آمنة بنت وهب أفضل فتاة في قريش نسبا وموضعا ، وكان عبد الله فتى قريش الذي يتمنى سادات قريش وأشرفها أن يزوجه فتياتهم ، فلم يكن هنالك من سبب يدعو إلى تشاور أهل الرأى في دار الندوة في أمر ذلك الزواج الذي بدا كأنما كل ملابسات الحياة قد مهدت له ، ولكأنه كان أمرا مقضيا .

ودخل وهب على ابنته وقد تألفت عيناه بالفرح وقال لها :

— إن شيخ بنى هاشم قد جاء يطلبك زوجة لفتاه عبد الله .

وأسبلت آمنة جفنيها على عينها فقد خجلت من أن يقرأ أبوها سيد بنى زهرة الفرحة الطاغية التي ملأت جوانحها ، ولم يكن وهب ينتظر منها ردا فموجات الفرح على الوجوه وفي العيون وعلى الشفاه وفي حركات أمه وزوجته وابنته وسكناتهن أبلغ تعبير عن الترحيب بهذه المصاهرة .

وانطلق وهب خفيفا لا تكاد قدماه تلمسان الأرض من فرحته إلى حيث

جلس الرجال ، وجاءت بنات عبد المطلب ونسوة بنى هاشم وقد أشرفت وجوههن بالسرور ، بعد أن كن قياما هناك عند الكعبة يذرفن الدموع على عبد الله الذى كان كاهن هبل يضرب عليه بالقداح ينتظرن أمر الله فيه .

سعادة غامرة وفرحة مجنحة وسرور وجور لف دار وهب وغمر من فيها من شيوخ وعجائز ورجال ونسوة وفتيان وفتيات ، وفاض حتى ملاً دور مكة وسكانها . ولم يحس بالحسرة والألم إلا الفتيات اللاتي كن يطمعن في زواج عبد الله ، فقد كانت الغيرة تنهش أفئدتهن بعد أن تحطمت أحلامهن . واجتمع رجال بنى هاشم وسادات بنى مخزوم أخوال عبد الله وشيوخ بنى زهرة ، وجلس عبد الله متسربلا بالجمال والجلال بين أخويه الزبير وأبى طالب ومن حوله باقى إخوته . وقد كان عبد الله على الرغم من حداثة سنة يحس خطره فقد فداه الله بمائة من الإبل كما فدى جده إسماعيل بذبح عظيم ، وقد أعرض عنن قالت له هيت لك كما أعرض يوسف عن امرأة العزيز .

كان كل سادات قريش ومكة فى دار وهب سيد بنى زهرة يحتفلون بذلك الرباط المقدس الذى سيربط بين أفضل حيين فى العرب بنى هاشم وزهرة ، ولو كان هناك فسحة من الوقت لبعث عبد المطلب يدعو أخواله من بنى النجار من يثرب ليشتروا معه فى أفراجه ، فقد كانت صلة المودة وثيقة بين بنى هاشم وبنى النجار إذ كان عبد المطلب زعيم قريش وسيدها ثمرة مصاهرة مكة ليثرب .

وقام عبد المطلب يعدد مناقب قريش وبنى هاشم ، ثم طلب من وهب أن يزوج عبد الله آمنة بنت وهب . وفى نفس الوقت طلب من أخيه وهيب أن يزوجه ابنته هالة ، فقام وهب وعدد مناقب بنى زهرة ، ثم رحب بزواج عبد الله وابنته آمنة ، وقام بعده أخوه وهيب وأعلن موافقته على تزويج ابنته هالة

لعبد المطلب شيخ بنى هاشم وزعيم مكة .

وقام أبو طالب والزبير إلى عبد الله يقبلانه مهنتين ، ثم راح باقي إخوته يضمونه إلى صدورهم وهم يتمنون لأخيهم التوفيق . وأقبل رجال قريش على عبد المطلب وعبد الله ووهب ووهيب وراحوا يصفحونهم قائلين بالرفاء والبنين .

وهرعت نسوة بنى هاشم وبنى زهرة إلى آمنة وهالة ورحن يقبلنهما ويتمنين لهما أطيب التمنيات ، ووقفت سودة عمه وهب كاهنة مكة بعيدا تنفرس في وجه آمنة ، إنها تنبأت لها ذات يوم بأنها ستلد نذيرا وإنها لترى في وجهها تلك اللحظة شيئا غامضا مثيرا يهز وجدانها وإن عجزت كهانتها عن أن تميط اللثام عن كنهه ، فهو شيء رائع لم ترفى وجوه فتيات العرب مثله ، شيء تهفو إليه الأرواح ويستعصى على فراسة الكهان والعرافين .

كان رجال قريش ونسأؤها ورجال بني زهرة ونسأؤها فرحين مستبشرين بزواج عبد الله وآمنة ، فتى قريش وزهرة بنى زهرة . وكانوا يرجون الخير الكثير لهذه المصاهرة ، وعلى الرغم من أن آمنة وأم عبد الله وأبويهما قد حلقوا كثيرا في دنيا الأماني ، فما من أحد من مكة ، قدر خطورة تلك الليلة حق قدرها ، فقد كانت ليلة مباركة لم يجد الزمن من قبل بمثلها ، ليلة قدر لها أن تكون مبدأ من سيجعله الله رحمة للعالمين ، إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون .

وكان من عادة العرب أن يبيت الزوج ثلاثة أيام في بيت أهل زوجته ، وقد كان لوهب بيت في منى عند الجمرة الصغرى ، فذهب عبد الله وآمنة إلى هناك ، بينما بات عبد المطلب وهالة في بيت بنى زهرة بعد أن انسحب المهنتون .

وسار عبد الله وآمنة متسربلين بالليل في منى ، في نفس الطريق الذى سار فيه إبراهيم خليل الرحمن وإسماعيل صادق الوعد الأمين وهاجر المؤمنة التى لو وزن إيمانها بإيمان أهل الأرض لرجحتهم ، يوم أن ذهب إبراهيم بابنه الوحيد ليذبحه تصديقا للرؤيا التى رآها فى منامه .

كان النسيم يهب رخاء والقمر يرسل أشعته الفضية فيكسو أرجاء منى بالسحر ، وجبل ثبير يطل على الوادى كحارس أمين ، ولولا ذلك الصنم الذى نصب فى المكان الذى هم إبراهيم فيه بذبح ابنه الحبيب لبدا كأن الرحمة قد تجلت على الكون .

ودخل عبد الله وآمنة بيت وهب فى منى وأغلقا الباب وراءهما ، فإذا بعبير طيب يملاً أرجاء الدار ، وإذا بنور القمر يتسلل من النوافذ فينثف فى النفوس راحة وأمنا . ولكن عبد الله وآمنة كانا فى قمة السعادة فغفلا عن كل شىء إلا نفسيهما ، فقد كانت هذه أول ليلة يخلو فيها كل منهما بصاحبه ، وحملت آمنة بنور الهدى وابن الذبيحين .

ومرت الأيام الثلاثة وعبد الله وآمنة يستشفان أريج الماضى التليد ويحسان خفق قلب الوجود ، فقد كانت جبال منى ووديانها تنبض بالذكريات ، فعند الجمرة الصغرى ظهر الشيطان لإسماعيل وقال له : أتدرى إلى أين يذهب بك أبوك ؟ إنه يزعم أن الله قد أمره بذبحك ، فحصبه إسماعيل . وفى ذلك المكان من ذلك العهد رمى العرب الشيطان بالجمرات إحياء لتلك الذكرى .

وأمام البيت الذى بنى به عبد الله بآمنة ، كانت الجمرة الوسطى حيث ظهر الشيطان لهاجر وقال لها : أتدرين أين يذهب الشيخ بابنك ، إنه ذاهب ليذبحه ، فحصبته هاجر المؤمنة المستسلمة لأمر الله . وعلى مرمى البصر الجمرة الكبرى حيث ظهر الشيطان لخليل الرحمن . وجبل ثبير ومجر الكباش .

إنها أماكن هرع إليها الناس مذ أقام إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ،
ومذ أذن إبراهيم في الناس بالحج ، ومذ قال : « يا بني إني أرى في المنام أني
أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال : يا أبت أفعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من
الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين . ونادياه أن يا إبراهيم . قد صدقت
الرؤيا ، إنا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا هو البلاء المبين . وفديناه بذبح
عظيم » .

أماكن مباركة مذ فرض الله على الناس الحج بعد أن أقام إبراهيم القواعد من
أول بيت وضع للناس ، ويا طالما ترددت في جنبات ذلك الوادى تلبية المؤمنين
على مر العصور : لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك لبيك ! إن الحمد
والنعمة لك والملك لا شريك لك . ولما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم
وأشركوا بربهم ظلت مراسم الحج كما كانت على عهد إبراهيم الخليل ، إلا أن
الوثنيين المشركين أضافوا إلى التلبية ما يتسق مع شركهم فقالوا :
— لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك لبيك ! إلا شريك هو لك ،
تملكه وما ملك .

اقضت الأيام الثلاثة السعيدة المباركة التي أمضاها عبد الله وآمنة في بيت
وهب بمنى عند الجمره الوسطى ، فأخذ عبد الله آمنة وانطلقا إلى داره بمكة ،
وما كانت آمنة تدري أنها حملت « بدعوة إبراهيم » . « وإذ يرفع إبراهيم
القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك السميع العليم . ربنا واجعلنا
مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك التواب
الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب
والحكمة ويزكهم إنك أنت العزيز الحكيم » .

وبلغا دار عبد الله ، إنها دار من دور بني هاشم لم تكن مرتفعة البنيان ،

ولكنها كانت دارا جميلة لعروسين ، فقاد عبد الله آمنة إلى الدرج الحجري وراحا يرقيان فيه هونا حتى بلغا بابا يفتح من الشمال ، فدلفا إلى فناء واسع وسارا فيه كطيفين كريمين حتى وصلا إلى الجدار الأيمن قاصدين الباب الذى فتح فيه .

ودخل عبد الله وآمنة فإذا بقبة فى وسطها مقصورة من الخشب أعدت لتكون مخدع العروس ، والتفت عبد الله إلى آمنة فإذا وجهها قد تهلّل بالفرح ، وإذا بابتسامه رضا قد رفت على شفيتها ، فأقبل عبد الله عليها وقد غمره السرور .

وخرج عبد الله ليظوف بالكعبة فلم يطف بها مذ خرج منها بعد أن نحرت مائة من الإبل فدية له لا يصد عنها إنسان ، وانطلق حتى إذا ما بلغ البيت العتيق رأى رقيقة بنت نوفل واقفة عند الكعبة فذهب إليها والتقت عيناه بعينها ، وسرعان ما أشاحت بوجهها عنه .

وعجب عبد الله ، إنها قد عرضت عليه نفسها ومائة من الإبل منذ ثلاثة أيام فما لها تزور عنه اليوم ؟

وأراد عبد الله أن يعرف سر ذلك التحول فقال لها :

— مالك لا تعرضين علىّ اليوم ما كنت عرضت علىّ بالأمس ؟

فقد عبد الله سحره بعد أن تزوج آمنة بنت وهب وزهدت فيه رقيقة ،

فقال وهى تحول بصرها عنه إلى الكعبة :

— فارقك النور الذى كان معك بالأمس ، فليس لى بك اليوم حاجة !

جلس عبد المطلب على فراشه في ظل الكعبة بعد أن غادر بيت وهيب وحمل زوجته هالة بنت وهيب إلى داره ، وكان عبد المطلب متفتح النفس متهلل الأسارير فقد تزوج هو وابنه عبد الله في ليلة واحدة ، وقد توطدت بذلك الأواصر بين بنى زهرة وبنى هاشم ، وامتألت صدور بنى مخزوم أخوال عبد الله بالسرور بعد أن فدى شيخ بنى هاشم ابنه بمائة من الإبل ، وزوجه آمنة بنت وهب فتاة بنى زهرة التي كانت تتيه بجمالها وشرفها ومقامها على بنات أشراف مكة وسادتها .

وجاء إلى مجلس عبد المطلب نديمه حرب بن عبد شمس وعبد الله بن جدعان بعد أن أعرض عن اللهو وأغلق بينه وبين الشر أبوابا ، فقد كان عبد الله بن جدعان شريرا لا يعاشر إلا رفاق السوء ، سريع الغضب كثير الجنائيات حتى أبغضه قومه وعشيرته وأهله وقبيلته ، وحتى امتأ قلب أبيه ببغضه فقد كان عار الأسرة والقبيلة .

أوغل عبد الله بن جدعان في الشرور ثم فكر ودبر ، فرأى أن ارتكاب السوء يقود إلى الضلالة والضياع في تيه الوجود . كانت نفس عبد الله طيبة وإن تبدت خامدة مكبوتة ران عليها ميل إلى الشر والعدوان والفجور ، فقد طمر الجواهر الطيب في أعماق شعوره ، فلما بدأ الصراع في جوفه بين الخير والشر ، بين المغلق والمفتوح انتصرت المعنويات على الماديات ، فهجر العدوان والسلب والنهب إلى المسالمة والأمانة فانتشل نفسه من انهيار سريع

بعد أن خان ذاته بفعل قوى مهلكة خداعة كأمته انطلقت تحت ضغط محنة أخلاقية إلى طريق الآثام والشرور .

حكم عبد الله بن جدعان على نفسه بعدوانه على أهله وعشيرته وقبيلته بمكابدة انهيار معنوى ، فلما نشب في جوفه صراع روحي انزاحت الغشاوة عن جوهر طيب فاختار طريق الخير ، وقد قاده ذلك السبيل إلى الغنى والشرف والسلطان . ولكن الناس لا يستطيعون أن يصدقوا أن النفس قادرة على النهوض من كبوتها من تلقاء نفسها ، وأنها قادرة على أن تقود صاحبها إلى الغنى دون أسطورة ودون وصف صراع البطل الظافر مع جبار أسطوري في سبيل الاستحواذ على كنز ، فقالوا إن عبد الله بن جدعان لما فر من وجه أبيه وقومه لجأ إلى الجبال ، وبينما هو مختبئ هناك إذ رأى ثعباناً على باب مغارة ، وهم بأن يفر من ذلك الثعبان ولكنه فطن إلى أنه من ذهب وعيناه من جوهر ، فاستولى على الثعبان ودخل المغارة وإذا به يعثر على كنوز مضاض بن عمرو الجرهمي .

إنها نفس الأسطورة التي رددتها الأساطير اليونانية وأساطير الشعوب كلما انتصرت نفس على ضعفها وانطلقت في طريق الخير لتجمع ثروة ، وقد أصبح عبد الله بن جدعان من أغنياء مكة وأجوادها ، وصار مجلسه مع عبد المطلب زعيم قريش بعد أن كان مع مجان مكة وأشرارها .

وجاء عبد الله بن عبد المطلب متهلل الأسارير وألقى على الموجودين تحية الصباح ، ثم جلس إلى جوار أبيه ومد بصره إلى الكعبة وراح يراقب حمام الحمى وهو يطوف حولها ، والناس وقد ازدحموا عند زمزم ، فامتلاً قلبه بإشراقه من المحبة ، وأحس تعاطفاً مع كل ما حوله وتناسقاً مع الوجود ، فقد كانت نفسه راضية وآماله مجنحة بعد أن ذاق السعادة الحقة منذ انطلق مع (مولد الرسول)

زوجة آمنة بنت وهب إلى بيت أبيها بمنى ، وبعد أن عاد بها إلى داره القائمة بين دور بنى هاشم خلف الكعبة .

إنه مذ بنى بآمنة يستشعر في أعماقه أن شيئاً عظيماً مثيراً قد حدث ، فقد كانت الليلة الأولى التى أغلق فيها عليه وعلى آمنة الدار ليلة لم ير أروع منها طوال حياته ، كان القمر يرسل أشعته إلى جبال منى ووديانها ، وقد انسكب ضوءه من النافذة فغمر الحجرة بنور لطيف . إنه طالما سرى فى الليل ، وطالما أحس سحر القمر ، ولكن القمر فى تلك الليلة كان شيئاً آخر ، كان أكثر تألقاً مما كان ، وكانت أشعته كأنها عواطف حانية زاخرة بالمحبة تحتوى الوجود كله بين جوانحها ، وقد هب النسيم رخاء كأنما يحمل بشرى ورحمة للناس كافة . إن أريج تلك الليلة لا يزال طيباً فى نفسه ، وإنه فى دهشة من أمره ! أفاح الطيب من أرجاء الدنيا حقاً أم انبعث من روحه ، فقد أحس رائحة المسك فى أنفه مذ قالت له رقيقة بنت نوفل : هَيْتَ لَكَ ، وأعرض عنها وذهب إلى بيت آمنة ، إنه ليشم رائحة المسك الأذفر أينما سار منذ تلك الليلة المباركة ، ويرى الدنيا تتلألأ بالبهجة والإشراق .

كان عبد الله أصغر الموجودين سناً فقد كان فى الثامنة عشرة ، إلا أنه أحس فى أعماقه على الرغم من حداثة سنه أنه أصبح شيئاً جليلاً بعد أن تزوج آمنة . ولم يكن ما أحسه كبراً فقد سمع أهله فى خطبهم يعددون مناقب قريش : نحن آل إبراهيم وذرية إسماعيل وبنو النضر بن كنانة وبنو قصى بن كلاب وأرباب مكة وسكان الحرم ، لنا ذروة الحسب ومعدن المجد ، فلم يملأه ذلك التفاخر زهواً ، ولكن الليلة خيل له فيها أن الأرض كانت تتلقى وحى السماء قد رفعت من شأنه فى عين ذاته ، حتى إن إحساساً غامضاً قد غمره بأنه أصبح أجل شأننا من كل سادات قريش وأشرفها .

وأفاق عبد الله من أحلام يقظته على صوت فيه غنة يقول :

— أنعم صباحا يا فياض ، يا مطعم طير السماء .

فرفع عبد الله رأسه فرأى ذلك اليهودى الذى كان فى جوار أبيه يحيى عبد المطلب ويجلس ، ولمح التغير الذى اعترى وجه حرب بن أمية فقد كان حرب يضيق بذلك اليهودى ولا يستريح لحديثه .

والتفت عبد المطلب إلى ولده وراح يأمرهم بترك البغى والظلم ويحثهم على مكارم الأخلاق وينهاهم عن سفاسف الأمور ، وفيما هو منطلق فى حديثه قال قائل من الجالسين عنده :

— إنك تقول لنا فى وصاياك لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه وتصيبه عقوبة .

فقال اليهودى :

— إن المرء يثاب فى الدنيا على أعماله ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر .
كان ذلك هو اعتقاد اليهود بعد أن حملوا أسرى من أورشليم إلى بابل ، وأعادوا كتابة التوراة هناك متأثرين بعقائد البابليين التى كانت تقول إن المرء بعد مغادرة الحياة يذهب إلى الأرض التى لا رجعة منها وأنه يثاب فى دنياه عن أعماله . وقد تأثر عبد المطلب بيهود يثرب لما كان فى كنف أمه سلمى بنت عمرو قبل أن يعود به المطلب إلى قومه ، واعتنق ذلك رأى وراح يدعو إليه فى مجالسه ، وقد كان ذلك اليهودى ينبرى لتأييد رأى عبد المطلب فقد كان فى تأييده تأييد لدينه . وكان حرب بن أمية يحرق الأرم غيظا من ذلك المتطفل على مجلسهم فقال فى غلظة :

— الزم الصمت .

ونظر عبد المطلب إلى نديمه فى عتاب وقد ضايقت نظرات عبد المطلب

حرب بن أمية ، ولو طواع وسوسات نفسه لقام وشهر سيفه وأطاح برأس ذلك اليهودى الذى يعكر الصفو بين النديمين .

وراح قائل يعارض رأى عبد المطلب ويقول إن ظلوما من أهل الشام قد هلك بعد أن ملأ الأرض ظلما ولم تصبه عقوبة ، فأطرق عبد المطلب يفكر ثم قال :-

— والله إن وراء هذه الدار دارا يجزى فيها المحسن بإحسانه ، ويعاقب فيها المسىء بإسأته .

و لم يكن ما قاله عبد المطلب من قبيل الإلهام فقد كان نصارى الروم والشام والحيرة والحبشة يغدون ويروحون فى مكة ، وقد سمع عبد المطلب منهم لا ريب عن الدار الآخرة ، فلما أفحمه الرأى القائل بأن الظلوم قد يخرج من الدنيا دون أن تصيبه العقوبة كفر بمعتقدات اليهود الذين شب بينهم فى المدينة ، واعتنق ما يقول به النصارى من أن وراء هذه الدار دارا يجزى فيها المحسن بإحسانه ويعاقب المسىء بإسأته . ولورفعت أسجاف الماضى البعيد عن بئر زمزم لرأى عبد المطلب هاجر جالسة عند البئر تلقن ابنها إسماعيل دين أبيه إبراهيم وتحديثه عن اليوم الآخر « يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يُظلمون » ولكن طال على الناس الأمد وقست قلوبهم فأشركوا بربهم ونسوا يوم الدين .

وعاد الصحاب يتحاورون ، وسرعان ما راح عبد الله يجرى وراء أحلامه فقد وعده أبوه بأن يبعثه إلى الشام مع قوافل قريش ، وقد قال له إنه سينزل بيثرب وسيرحب به أخواله بنو النجار ، فراح يرى نفسه بعين خياله فى قافلة قريش وهى تسرى فى أرض ذات نخل وعلى جانبها الحقول كسططان من سندس أخضر ، ورأى سوق الصياغة وهو يشتري لآمنة حليا فاخرة من يهود

بنى قريظة ، ثم رأى نفسه يعود وقد كسب مالا ممدودا فأشرق وجهه بالابتسام . ولكن سرعان ما قطب جبينه فما كانت أحلامه تعبر عن المشاعر الفياضة التي تموج بين ضلوعه ، فما من مكى خرج إلى الشام إلا وقد عاد إلى أهله بالحلى والهدايا والكسب الوفير ، وإن ما يحسه فى أغوار ذاته شىء أروع من المال والتجارة ، شىء غامض ساحر لذيد ، يملأ الروح بنور على نور ، ويمد الفؤاد بكنوز من السعادة تزرى بكنوز الأرض من ذهب وفضة .

ومالت الشمس لتغيب فى الأفق الغربى خلف جبال مكة فنفض عبد المطلب وقام بنوه ومن كانوا عنده وراحوا يطوفون بالكعبة قبل أن يعودوا إلى دورهم ، ثم انطلق عبد المطلب وبنوه إلى دور بنى هاشم من باب إبراهيم ، وخرج الآخرون من أبواب متفرقة .

ودخل عبد الله على آمنة فألفاها تتألق بالبشر وتقبل عليه مرحبة به كأنما قد أب من سفر طويل ، وراح العروسان يتناجيان فيحس كل منهما أن رباطا قويا قد شد كلا منهما إلى الآخر وإن لم يمض على زواجهما أكثر من أربعة أيام ، رباطا روحيا وثيقا يحطم كل الحواجز والسدود التى تقوم عادة بين نفسين وإن عاشا تحت سقف واحد عشرات السنين .

كانت آمنة سعيدة كل السعادة راضية كل الرضا تستشعر كأنما قد احتوت الوجود كله بين جوانحها ، وأن بركة عظيمة قد غمرتها بالنشوة وراحت تسكب فى فؤادها رحيق الحب لكل ما تقع عليه عيناها ، وأن فيضا روحيا ينبثق بالرحمة من أغوار نفسها فإذا بها تحس أنها تعيش فى دنيا جديدة تنبض رقة وأمنا وسلاما .

وبدت الدار الصغيرة للعروسين كأنها روضة من رياض الجنة ، فراحا بهيمان فيها كفراشتين حالمتين يخفق قلباهما بسعادة عارمة وتتفجر أعماقهما

بجب ليس له من نفاذ ، حتى إذا ما دثر الليل الكون بعباءته السوداء ذهب عبد
الله وآمنة إلى مخدعهما وأسلما جنبيهما للرقاد .
وظافت بمكة أحلام قطبت جباه ورففت على الشفاه بسمات ، وقد كانت
البسمة التي توجت شفتي آمنة أعذب بسمة رسمت على شفتي في تلك
الليلة ، فقد كان حلمها رائعا غاية الروعة لكأنما كان حقيقة واقعة ساحرة
أخاذة تبهذه النفس والعقل والوجدان ، وتملأ المشاعر بخدر لذيذ .
وانبعث من أعماقها نور وهاج أضواء أرجاء الدنيا ، إنها ترى قصور بصرى
من أرض الشام ، وإن هاتفا يهتف بها :
— إنك قد حملت بسيد هذه الأمة .

كان العرب يتعشقون الحرية ، وقد مارسوا تلك الحرية وتحلوا من القيود حتى صارت الحرية إباحية ، وقد فقد الدين سلطانه على النفوس وأصبح علاقة بين العبد والرب تحكم الوجدان ولا تحكم واقع الحياة ، وصار الدين أداة لجلب منافع دنيوية وسعادة أرضية ، فقد قرى أذهان العرب الوثنيين أن المرء يثاب في دنياه على أفعاله ، وأن ليست هناك دار أخرى .

ولم تعد الأخلاق قيمة حقيقية من قيم الدين ، وتغاضى المجتمع عن الجرائم الخلقية وصار الناس يوزنون بما يملكون من ذهب وفضة ، فراحت شهوة المال المجنونة تعربد في النفوس وتتحكم في تصرفات الناس ، فأصبح التعامل مع الطبيعة لا مع ما وراء الطبيعة ، مع المادة لا مع الله .

وأصبح الدين في مكة في عزلة عن المجتمع المكي وإن كان المكيون جميعا يطوفون بالبيت العتيق كل صباح قبل أن يستفتحوا يومهم وكل مساء قبل أن يستشروا إلههم ويضربوا بالقداح عنده ، وما كانوا يفعلون ذلك عن إيمان عميق بدينهم بل تسكيننا للخوف من المجهول الذي كان يستبد بهم ، واستجابة لوسوسات الكهان والعرافين الذين عملوا على نشر الأساطير والخرافات والجهل لتحقيق مغائم دنيوية مستغلين ما يتمتعون به من وميض الفراسة الذي بسط سلطانهم على المكيين جميعا .

وكان أهل الكتاب الذين يعيشون في مكة يعانون ازدواج الشخصية ، فاليهودي كان يمارس شعائر دينه في تزمت شديد وفي نفس الوقت يرتكب كل

المجرمات مع المسيحيين أو الوثنيين من العرب ، فقد كان اليهودى يعتقد أنه هو الناس وأما عدا اليهود فهم أمم « كلاب البشرية » ، وأن الله لن يحاسب اليهود على ما يرتكبون من آثام في حق الأميين : « ليس علينا في الأميين من سبيل » . وكان المسيحيون يمارسون شعائرهم الدينية ويقولون للعرب في استعلاء ما لقنهم بولس من عقائد فاسدة : « لسنا أولاد جارية » . وكان المسيحي إذا احتاج إلى المال يقترضه من اليهودى بربا فاحش نعت عنه المسيحية ، وكان يأبى إلا أن يحقر مقرضه فلا يسلم عليه بيده ولا يلمسه وإنما يأمره أن يقف بعيدا ويصرخ فيه : « ضع المال واغرب عن وجهى يا خنزير » ، ونسى الناس جميعا أنهم لآدم وآدم من تراب ، وأن رب الناس وإله الناس وملك الناس واحد لا شريك له .

تحرر المجتمع المكى من قيود الأخلاق ، فبعد أن كان الرجل يخاطب إلى الرجل وليته أو ابنته ويعين صداقها ثم يعقد عليها أصبح ذلك في فئة قليلة من الذين حافظوا على التقاليد القديمة ، أما الذين تحرروا من عقائد القوم والأفكار الموروثة فقد صاروا يدخلون دون العشرة على امرأة ما ثم يصيبها كلهم عن رضا منهم وتواطؤ بينهم وبينها ، فإذا حملت ووضعت ومرت ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم ، فلم يستطيع رجل منهم أن يتمتع حتى يجتمعوا عندها فتقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان . تسمى من أحببت باسمه فيلتحق به ولدها لا يستطيع أن يتمتع به الرجل . وانتشرت البغايا في مكة وكن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما فمن أرادهن دخل عليهن ، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها من دخل بها ودعوا القافة ، فيتفرس القائف في الولد ثم الرجال فيعرف شبه الولد بالوالد بوميض الفراسة والآثار الخفية ، فيلحق ولد البغى بالذى يرى القائف أن

يستحلفه به فيدعى ابنه لا يمتنع عن ذلك .
وقد اشتهرت بغايا كثيرات في مكة منهن سريفة جارية زمعة بن الأسود ،
وفرسة جارية هشام بن ربيعة ، وأم عليط جارية صفوان بن أمية ، وحنة
القبطية جارية العاص بن وائل . وكان بعض الإماء يمتن البغاء فكن يكرهن
عليه : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة
الدنيا » .

ولم يعد للرباط المقدس الذى يربط الرجل بزوجه أى وزن ، فإذا أراد
الرجل أن ينجب كريماً أو شجاعاً أو قويا يقول لزوجه إذا طهرت من طمئتها .
— أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه .

فترسل المرأة إلى الرجل المنشود وتطلب منه الجماع ، فكان الرئيس أو
الشجاع أو الكريم يأتى إلى دار الزوج ليؤدى ما يطلب منه لتحسين النوع وهو
راضى النفس ، وكان زوجها يعتزلها ولا يمسه أبداً حتى يتبين حملها من ذلك
الرجل ، وكان نكاح الاستبضاع مباركا من الزوج والزوجة والمجتمع جميعه .
وانتشر في مكة زواج المتعة وهو زواج إلى أجل ، فإذا انقضى وقعت
الفرقة . ونكاح البدل وهو أن يقول الرجل الرجل : انزل لى عن امرأتك
وأنتزل لك عن امرأتى . ونكاح الخدن وهو أن تتخذ الزوجة صديقا . وقد
كان العرب يقولون ما استتر فلا بأس به وما ظهر فهو لوم ، وقد قل في النساء
المحصنات : « محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان » .

وقد حكم الربا الحياة الاقتصادية في مكة والمدينة والطائف
وأسواق العرب ، فقد كان الدائنون يأكلون الربا أضعافا مضاعفة ،
فأصحاب النخيل عند جنى الثمر كانوا يتفقون مع القائمين على جمع
المحصول على أن يدعوا لهم على أن يسددوا ضعفه في العام القابل ، فإذا ما

حل الأجل وعز المدين عن السداد فقد كان الدائن يمنحه أجلا آخر على أن يسدد المدين ضعف الكمية التي استحققت في الأجل الأول .

وإذا أقرض الدائن المدين ناقة عمرها سنة فعلى المدين أن يدفع للدائن بعد عام ناقة عمرها سنتان ، فإذا عجز عن تقديم تلك الناقة فعليه أن يدفع في السنة التالية ناقة عمرها ثلاث سنوات . وكان ذلك هو الحال في العمليات المالية ، فإذا أقرض رجل آخر مائة دينار لمدة عام فعلى المدين أن يدفع في الأجل المسمى مائتي دينار ، فإذا عجز عن الوفاء صار عليه أن يدفع في السنة التالية أربع مائة دينار ، وهكذا دواليك إلى أن يوفى المدين دينه .

وكانت المعاملات جميعا بين الدائن والمدين على مثل تلك الحال ، فإذا ما أقرض رجل آخر مبلغا من المال أو سلعة من السلع ، فعلى المدين أن يدفع في الأجل المسمى المبلغ المقترض أو السلعة مع فائدة يتفق عليها ، فإذا أعلن المدين عجزه عن الوفاء فإن الدائن يقبل عن طيب خاطر مد الأجل على أن يسدد المدين الدين مضاعفا : « لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون » ..

وكان بنو ثقيف يأتون من الطائف إلى مكة ليقدموا القروض لبني المغيرة ، وغالبا ما كان بنو المغيرة عند حلول الأجل يعتذرون عن السداد ويطلبون مد الأجل لقاء دفع فوائد تأجيل السداد ، فكان أفراد الطرفين يحررون عقودا جديدة بما اتفقوا عليه عند الملتمزم بين باب الكعبة والحجر الأسود ، وهم يستنزلون اللعنات على من خان أو فجر أو بدل .

كان بنو ثقيف يقدمون الذهب والفضة والأنعام ومحاصيل أرضهم الخصبية ، فما كان لهم في الناس من دين فعليهم أن يسددوا رأس المال أضعافا مضاعفة . إنها سنة وشرع شرعه القادرون الذين يملكون الذهب والفضة وما

في الأرض من متاع ، وفرضوه على المحتاجين المضطرين الذين لا يجدون سندا من حاكم قوى مرهف الحس والضمير ، أو من دين سماوى ينهى عن أكل أموال الناس بالباطل وينذر الكافرين منهم بعذاب أليم .

وانقسم الربا إلى ربا نسيئة و ربا فضل ، فربا النسيئة أن يقدم الدائن إلى المدين مبلغا ما على أن يتقاضى فوائده كل شهر ويظل رأسه ثابتا لا يربو ، فإذا حل الأجل سدد المدين ما اقترض ، وإلا طلب مهلة وقبل عن طيب خاطر أن يدفع الدين مضاعفا .

أما ربا الفضل فهو استبدال الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح والورق بالورق إلى أجل ، على أن يحصل على فائدة من نفس الصنف لا أن يرد مثلا بمثل سواء بسواء ، أو يبيع غائبا بناجز لتحقيق أرباح غير مشروعة .

وكان العرب يرون شرعية الربا وكانوا يقولون في بساطة : « إنما البيع مثل الربا » ويضربون مثلا بمن يشتري ثيابا بعشرة دنانير ويبيعه بأحد عشر دينار ، فذلك عمل مشروع ، وكذلك الحال فيمن يقرض آخر عشرة دنانير ويحصلها أحد عشر دينارا ، فكما أن البيع مشروع فالربا مشروع على هذا القياس . وكانوا يرون أن أية عملية تجارية أو ربوية مشروعة ما دام الطرفان قد ارتضيا شروطها ، فالبيع والربا ضروريان لسد حاجات البشر ، فإن كان المقرض لا ينال في النهاية إلا رأس ماله فلماذا يخاطر بماله ويقرضه للمحتاجين ؟ كانوا يرون أن الربا يقوم بخدمة اجتماعية فهو يمكن المحتاجين من سد حاجاتهم ويشجع المقرضين على أن يقرضوا أموالهم للناس لإشباع رغباتهم ، وما كانوا بقادرين أن يتصوروا شيئا آخر فقد كانوا يعيشون في مجتمع توزن فيه كل الأمور بالمادة ، وما كان اللروحانيات وزن يذكر .

وانتشر في بلاد العرب كما انتشر في كل بقاع الأرض العبيد ، فالرقيق بضاعة ضرورية لا بد منها لأهل المال تدر عليهم أرباحا عظيمة ، فهم آلات ذلك الزمن ومصدر من مصادر الاستغلال للحصول على الثروة ، كما أنهم سلاح يستخدم للدفاع عن السادة الأثرياء في أيام السلم وفي أيام الحرب . وكانت مكة بلد الأثرياء والتجار غاصة بعبيد الحبشة والسودان والرومان والفرس والغساسنة وعرب الحيرة وكان أثرياء مكة يستغلون العبيد في الأعمال الشاقة وفي حراسة قوافل التجارة وفي زيادة رعوس أموالهم ، وكانوا يكرهون فتياتهم على البغاء لبيتغوا عرض الحياة الدنيا .

كان الأسرى البيض الذين يقعون في أيدي الفرس أو الروم أو القبائل المغيرة على الحدود يباعون في أسواق النخاسة ، وكانت أسعار هذه البضاعة تفوق البضاعة المستوردة من إفريقية ، وكانت جودة إنتاج الرقيق الأبيض والتفنن فيه والبراعة في الصناعة التي لا تعرفها إفريقية تعوض عن ذلك الفرق .

وكل إلى موالى العراق وبلاد الشام والروم وغيرهم من ذوى البشرة البيضاء إدارة الأعمال والقيام بالحرف التي تحتاج إلى خبرة ومهارة وفن ، فكانوا ينهضون بأعمال البناء والنجارة الدقيقة . وهذه البضاعة التي استوردتها قريش من الخارج وإن كانت تابعة تؤمر فتفعل وتكلف فتستجيب ، إلا أنها كانت بضاعة حية لها قلب نابض ودماع يعمل ولحم ودم ولبعضها علم وفهم ومعرفة تفوق معرفة أصحابها المالكين لها ، فأثر هؤلاء العبيد أصحاب الحضارت في حضارة قريش وفي معتقداتها .

وجلس عبد المطلب على فراشه في ظل الكعبة وحوله ندماؤه وأبناءؤه العشرة كأنهم أسد غاب ، وراح عبد المطلب يرقب الكتاب الذين كانوا يرمون العقود عند الملتزم والناس أحرارا وعبيدا وهم يطوفون بالبيت ،

ويصغى إلى الابتهالات التي تنبعث من القلب حارة فتزهز وجدانه هزا وترهف ضميره وتجعله بهيم في الكون العريض .

ووقف رجلان ينظران إلى عبد المطلب وأبنائه ويتناجيان ؛ فقال أحدهما لصاحبه :

— بمثل هؤلاء تبنى الممالك .

والتقطت أذن عبد المطلب حديث الرجل فشرده ذهنه وتذكر تلك الرؤيا التي هالته ففزع منها فزعا شديدا ، رأى كأن شجرة نبتت من ظهره قد نال رأسها السماء وضربت بأغصانها المشرق والمغرب وما رأى نورا أزهر منها وأعظم من نور الشمس سبعين مرة ، ورأى العرب والعجم لها ساجدين وهي تزداد كل ساعة عظما ونورا وارتفاعا ، ساعة تخفى وساعة تظهر . ورأى رهطا من قريش قد تعلقوا بأغصانها ، وقوما من قريش يريدون قطعها ، فإذا دنوا منها أخذهم شاب لم يرق أحس منه وجهها ولا أطيب ريحا فكسر أظهرهم وقلع أعينهم ، فرفع يده لينال منها نصيبا فلم ينل ، فقال : « لمن النصيب ؟ » ف قيل له : « النصيب لهؤلاء الذين تعلقوا بها وسبقوك » .

إنه انتبه في تلك الليلة مذعورا ولم تستقر نفسه حتى ذهب إلى كاهنة قريش ، فقالت : « لئن صدقت رؤياك ليخرجن من صلبك رجل يملك المشرق والمغرب وتدين له الناس » .

ونظر عبد المطلب إلى ابنه أبي طالب . كان أبو طالب في الخامسة والثلاثين وكان عبد المطلب يحس في أعماقه أن سيكون لابنه هذا شأن عظيم ، حتى إنه قال لأبي طالب بعد أن قص عليه حلمه وما قالت كاهنة قريش : « لعلك أن تكون هو المولود » .

وأسبل عبد المطلب جفنيه على عينيه ليرى في وضوح ما يدور في رأسه

ويسمع ما تهمس به نفسه ، فقد قام في جوفه سؤال : « أياكون ملك في مكة ؟ » .

ولاح في وجه عبد المطلب حيرة . أصدق حلمه ويملك أبو طالب بمكة أم يثور الناس عليه ؟ .

وانقضى النهار وانصرف عبد المطلب وأبناؤه إلى دورهم ، فذهب شيخ بنى هاشم إلى هالة بنت وهيب ، وانطلق عبد الله على جناح الشوق إلى آمنة بنت وهب ، ويم أبو طالب والزبير شطر دور بنى هاشم ، بينما انسل أبو لهب إلى دار فتاة من فتيات البغاء المنتشرات في مكة ليجتمع بشباب سادات قريش المترفين الفاسقين الباحثين عن المتعة المتمرغين في حمأة الفساد .

واكتمل عقد الشباب العابثين فدارت ككوس الخمر ، وامتزجت ضحكات الرجال بضحكات الناس ، وجرت الألسن بأشعار ماجنة حتى كاد الليل أن ينتصف ، فمشى الملل إلى النفوس التي أنهكها طول العبث والمزاح ، وأراد الرجال أن يعيدوا إلى أفئدتهم التي كادت تموت الحماس فصاح صائح :

— الميسر يا صحاب .

فقال أحدهم عابثا .

— أهو من اليسر أم من اليسار ؟

— إنه من اليسر إن كان أخذ مالك بيسر ، وهو من اليسار إن كنا سنسلب

يسارك .

وتجاوبت في المكان ضحكات فارغة وقام الرجال والنسوة للعب القمار ، وجيء بالقداح وهي عيدان قد نحتت وملست وجعلت سواء في الطول ، وهي الأرقام والأقلام وهي عشرة ، الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس

والمسبل والمعلى والمنيح والسفيح والوغد ؛ فلأول وهو الفذ سهم إن فاز وفوزه خروجه ، وعليه غُرْم سهم إن خاب ولم يخرج . وكذلك باقيا على الترتيب فيما له وعليه ، إلى المعلى ، وهو السابع له سبعة إن خرج وعليه سبعة إن لم يخرج . يفرض في كل سهم منها بحسب ماله ، وعليه حز ، وتكثر هذه السهام بثلاثة أحر أعغال ليس فيها حزوز ولا لها علامات ليكون ذلك أنفى للتهمة وأبعد من المحاباة ، وهى المنيح والسفيح والوغد .

ووضعت السهام في كيس والتفت الذى سيضرب بالقداح إلى الأيسار الذين سيشترون في القمار ، فقال أحدهم :
— الفذ .

فراح زملاؤه يركبونه بسخريتهم فقال :

— إن خاب فغرم سهم وإن فاز فكسب سهم ، وأنا سهل أحب السهل .

وقال آخر :

— التوأم .

ونظر إلى أبى هب وقال :

— كهاشم وعبد شمس .

فنظر صاحب القداح إلى أبى هب وقال :

— وأنت يا بن سيد قريش ؟

فقال أبو هب فى زهو :

— المعلى .

فقال قائل :

— وما ضرك لو خسرت ، مال عبد المطلب كحصى مكة .

فمالت فتاة عليه وقالت :

— إنه ابن أكرمين ، ويا لسرورى يوم أن يصبح سيد قریش .
وراح صاحب القداح يوزع الأزلام على اللاعين ، وبقي سهمان فقال
الرجل :

— من يتمم ؟

فصاحت الأصوات :

— أبو هب .. أبو هب .

فأخذ أبو هب ما فضل من القداح وقال للأيسار فى زهو :

— قد تمتم .

وأخذ ثوب شديد البياض ولف على يد « الحرضة » وهو الذى سيضرب
للأيسار بالقداح ليغشى بصره فلا يعرف قدح أبى هب دون غيره بعد أن لف
بقطعة من جراب ، لئلا يجد مس قدح يكون له مع صاحبه محاباة .

وأخذ الحرضة ولم ينظر فيها ، وجلس خلفه آخر هو الرقيب وهو الذى
ينظر فيما يخرج من القداح فيخبر الأيسار به ويعتمدوا على قوله فيه .

جلس الأيسار حول الحرضة ضارب القداح دائرين به ، ومد الحرضة يده
وأخرج سهما ورفع من غير أن ينظر إليه ثم ناوله الرقيب وصاح :

— التوام .

ودفع بالسهم إلى صاحبه فأخذ الرجل سهمين من الأموال الموضوعة ،
فقال له الحرضة :

— أتعيد السهم ؟

فقال الرجل :

— لا أرغب فى الثانية .

واكتفى الرجل بفوزه . واستأنف ضارب القداح الضرب بالقداح الباقية

على الثمانية أسهم الباقية ، ورفع الرجل قدحا فتسلمه الرقيب وقال :
— المسبل .

ودفع بالقدح إلى صاحبه فتناول الرجل ستة أسهم من الأموال ثم أعاد
سهمه وهو يستشهد بقول النابغة في زهو :

إني أتمم أيسارى وأمنحهم مثنى وأكسو الجفنة الأدماء

وأطل الجشع من العيون ودنت النسوة من الأيسار وقد سال لعاب
طمعهن. وانبهرت الأنفاس وأرهفت الحواس وأشرقت وجوه وغامت بالخرن
وجوه وبدت نواجز أقوام وقطبت جباه أقوام ، وقد لاح على أنى لهب الكدر
الشديد فقد خاصمه حظه وخسر كل ما كان معه .

وأقبل رجل يسعى حتى وقف على رعوس الأيسار وصاح :

— جاءت قافلة من الشام تحمل خمرا .

فضح المكان بصياح الفائزين والنسوة اليفايا وأطرق أبو لهب أسي ،
ومرت لحظة وإذا بغز التي الذهب اللتين علقهما عبد المطلب في الكعبة تملآن
صفحة رأسه ، وإذا به يرى نفسه ينسل ويسرق غزاة منهما ويشتري بها
خمرا .

وأحس أبو لهب جهدا فراح يزفر في صوت مسموع ، وأسبل جفنيه على
عينيه لكيلا يرى تلك الصورة البشعة التي استولت على تفكيره ولكن غزاة
الكعبة استقرت أمام عين خياله لا تريم .

وتملل وهز رأسه في عنف ليطرد الرؤى التي تنثال على رأسه ، ووضع
أصابعه في أذنيه حتى لا يسمع همزات شيطانه ، ولكن الصور التي كانت تمر
في ذهنه والأصوات التي تتردد بين جنبه كانت نابغة من أغوار نفسه تتفجر
تفجر البراكين .

(مولد الرسول)

واندكت مقاومة أبي هلب فنهض وقد لاح في وجهه عزم أكيد ، ونظر إلى بعض الرفاق وأشار لهم برأسه أن اتبعوني فهبوا واقفين ، ثم ساروا خلف ابن سيد القوم وزعيم مكة يمينون النفس بخمر الشام اللذيذ .
وانطلق أبو هلب ورفاقه إلى الكعبة ودخلوا في جوفها وسرقوا غزالة من الغزالتين متسترين بالليل ، ثم هرعوا إلى القافلة التي أقبلت من الشام واشتروا بالغزالة خمرا .

وتنفس الصبح وخرج المكيون ليطوفوا بالحرم ، وفتح كاهن هبل بابها للراغبين في تقديم القرابين للإله أو في الاستقسام بالأزلام ، وحانت من الكاهن التفاتة فلم يجد إلا غزالة واحدة معلقة فندت منه صيحة إنكار ، ثم خرج مفزوعا يعلن على الملأ النبأ الأليم .

وقرع الخبر أذنى عبد الله بن جدعان وبلغ مسامع قريش ، فأحس الناس خوفا يقبض أفئدتهم وأصبحوا يخشون أن تنزل بهم نازلة من السماء فانتشروا في مكة يبحثون عن غزالة الذهب التي سرقت من البيت المقدس . وكان عبد الله بن جدعان أشدهم طلبا لها فقد بات يهاب المجهول بعد أن كان أكثر أهل مكة شرورا وأقساهم قلبا .

ووعد عبد الله بن جدعان بجائزة لمن يرشد إلى من سرق الغزالة ، وإذا بعقد الألسن تحل وإذا بأصابع الاتهام تشير إلى أبي هلب وصحبه ، فذهب عبد الله بن جدعان إلى رجال القافلة التي وردت من الشام واسترد منهم الغزالة ، ثم انطلق في إثر أبي هلب ورفاقه المجان .

وألقي القبض على بعض صحاب أبي هلب وقطعت أيديهم جزاء وفاقا على ما ارتكبه في الحرم ، وفر بعضهم إلى أخواله من خزاعة .
وجاء عبد الله بن جدعان ورجال من قريش ليقبضوا على أبي هلب وينفذوا

الحكم فيه ، ولكن خزاعة منعت عنه قريش ، فراح الرجال يعيرونه
صائحين :

— سارق غزالة الكعبة .. سارق غزالة الكعبة .

منعت خزاعة عن أبى لهب قريشا ، ونفذ حكم القطع فى فريق دون
فريق ، ولم يكن ذلك بدعا فقد كان الشريف الذى يسرق لا يقطع بينا تقطع
يد السارق إن لم يكن له ولى ولا نصير .
وخشى عبد المطلب أن تسرق الغزالتان مرة أخرى فجاء بهما وضربهما فى
باب الكعبة ، فكان أول ذهب حليت به .

جلس أحيحة بن الجلاح الأوسى وقد أطرق يفكر في أمره وأمر ذلك الوليد الذى ستضعه امرأته بعد حين وقد صار شيخا وبلغ من العمر عتيا ، فراحت حياته تمر في مخيلته فتنبسط أساريه مرة وتنقبض مرات ، فقد كانت حياة حافلة بالأحداث لكأنما كانت تاريخ يثر بما فيها من صراع وكفاح وأمل . رأى نفسه وهو شاب يافع يتقدم لخطبة سلمى بنت عمرو الخزرجية ليشد الأواصر بين الأوس والخزرج وليوحد بين الحيين من العرب حتى يستطيعا أن يقفا في وجه اليهود سكان المدينة إذا ما تركوا خلافاتهم ذات يوم وعزموا على مناهضة قوة العرب التى كانت آخذة في النمو في المدينة . ثم رأى في وضوح ليلة أن بنى بسلمى ويوم أن ولدت له عمرا وأخاه معبدا فتهللت أساريه ، وسرعان ما عبس لما تذكر الخلاف الذى دب بينه وبين سلمى وانتهى بطلاقهما .

كانت سلمى امرأة ذات شخصية قوية تحس استقلالها ، وكان هو شاعرا مرهف الحس قد ذاع صيته ولم يتجاوز شرح الشباب ، فكان يضيق بانطلاقها وذهابها إلى الأسواق لتشرف على تجارتها ، فكان الجفاء والخصام والانفصال .

وأبت سلمى أن تنكح الرجال حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها ، إذا كرهت رجلا فارقتة . وجاء هاشم بن عبد مناف سيد قريش في تجارة إلى يثرب ورأى سلمى وقد وقفت على مرتفع من الأرض تشرف على تجارتها ،

فأعجب بها وتقدم إليها يخطفها . ثم تزوجها فولدت له شيبية وقد صار شيبية عبد
المطلب زعيم قريش وسيدها .

ورأى أحيحة نفسه وهو يتنازع الشرف هو ومالك بين العجلان ، كان
هو سيد الأوس وكان مالك سيد الخزرج . وقد علا ذكر مالك يوم أن قتل
الفيطوان ملك اليهود الذي أراد أن يفتض نساء العرب قبل أن يدخلن على
أزواجهن ، ثم انطلق إلى الحارث بن جبلة ملك الغساسنة واستنجد به فجاء
الحارث بجنوده وقتل سادات اليهود ومكن للعرب في يثرب .

ورأى أحيحة والأسى يعتصر قلبه ذلك اليوم المشئوم الذي فتح باب
العداوة بين الأوس والخزرج . كان سوق بنى قينقاع يغص بالناس ، وجاء
رسول عبد ياليل الثقفي إلى السوق بفرس وحلة ثم وقف وقال :

— إن عبد ياليل بن عمرو الثقفي قد بعثنى بهذه الفرس وهذه الحُلة وقال
لي : ادفعهما إلى أعز أهل يثرب .

فوثب إليه كعب الثعلبي وهو رجل من غطفان كان جاراً لمالك بن
العجلان الخزرجي وقال :

— مالك بن العجلان أعز أهل يثرب .

وقام رجل آخر فقال :

— بل أحيحة بن الجلاح أعز أهل يثرب .

ودوت أصوات التنافر في أذني أحيحة وهو جالس في مكانه كأنما كانت
آتية من أغوار بئر عميقة ، إنها أصدااء أصوات رنت في سوق قينقاع في الماضي
البعيد ، ولكنها ظلت حية في نفسه تبعث الألم كلما طافت بذاكرته أو ترددت
في وجدانه .

واستجاب الرسول لقول الثعلبي فدفعهما إلى مالك ، فقال كعب

الثعلبي :

— ألم أقل لكم إن حليفى أعزكم وأفضلكم .

وغضب سُمير وكان رجلا من بنى عمرو بن عوف فرصد الثعلبي حتى قتله ، وبلغ مالك بن العجلان ذلك فأرسل إلى بنى عوف بن عمرو بن مالك بن الأوس :

— إنكم قتلتم منا قتيلا فأرسلوا إلينا بقاتله .

فلما جاءهم رسول مالك قالوا :

— إنه كان فى السوق التى قتل فيها صاحبكم ناس كثير ، ولا يُدرى أيهم قتله .

— إنما قتله سُمير ، فأرسلوا به إلى أقتله .

— إنه ليس لك أن تقتل سُميرا بغير بينة .

وكره بنو عمرو بن عوف أن ينشبوا بينهم وبين مالك حربا فأرسلوا إليه يعرضون عليه الدية فقبلها ؛ فأرسلوا إليه :

— إن صاحبكم حليف وليس لكم فيه إلا نصف الدية .

فغضب مالك وأبى أن يأخذ فيه إلا الدية كاملة أو يقتل سُميرا ، فأبى بنو عمرو بن عوف أن يعطوه إلا دية الحليف ثم دعوه أن يحكم بينهم وبينه عمرو بن امرئ القيس أحد بنى الحارس بن الخزرج ، ففضى على مالك بن العجلان أنه ليس له فى حليفه إلا دية الحلف ، وأبى مالك أن يرضى بذلك وآذن بنى عمرو بن عوف بالحرب واستنصر قبائل الخزرج . فأبى بنو الحارث بن الخزرج أن تنصره غضبا حين رد قضاء عمرو بن امرئ القيس ، فقامت مناوشات بين الأوس ومالك بن العجلان ، وقد فتح سُمير باب الحروب بين الأوس والخزرج التى كانت تشور لأتفه الأسباب .

وجرى خيال أحيحة إلى صديقه الشاعر امرئ القيس الملك الضليل لما تذكر عمرو بن امرئ القيس . إنه نسب إلى الإله قيس زوج مناة إلهة الأوس والخزرج العظيمة ، وشب في كنف أبيه حجر ملك كندة وكان أصغر أولاده ، وقد طرده أبوه لما تغزل بامرأة من نساء أبيه فصار يتجول في الآفاق يسير في أحياء العرب ومعه أخلاط من شذاذ العرب من طيء و كلب وبكر بن وائل ، فإذا صادف غديرا أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه في كل يوم ، وخرج إلى الصيد فتصيد ثم عاد فأكل وأكلوا معه وشرب الخمر وسقاهم وغنته قيانة .

وفي أرض اليمن أتاه عامر الأعور يحمل خبر أبيه ومقتله ، فقال :
— ضيعني صغيرا وحملني دمه كبيرا ، لا صححو اليوم ، ولا سكر غدا ،
اليوم خمر وغدا أمر .

خليلي ، لا في اليوم مصحى لشارب

ولا في غد إذ ذاك ما كان يشرب

ثم شرب سبعا ، فلما صحا آلى ألا يأكل لحما ولا يشرب خمرا ولا يدهن بدهن ولا يصيب امرأة ولا يغسل رأسه من جنابة حتى يدرك بثأره .
وقدم عليه رجال من بنى أسد واعتذروا إليه ، وأرادوا أن يسووا القضية فقبلوا له .:

— نعطيك ألف بعير دية ، أو نقيدك من أي رجل تشاء من بنى أسد ، أو

تمهلنا حولا .

— أما الدية فما ظننت أن تعرضوها على مثلي ، وأما القود فلو قيد إلى ألف

من بنى أسد ما رضيتهم ولا رأيتهم كفتنا لحجر . أما النظرة فلکم ، ثم
ستعرفونني في فرسان قحطان أحكم فيكم ظبا السيوف وشبا الأسنة حتى

أشفي نفسي وأنال تأري .
وارتحل حتى نزل بكرًا وتغلب ، فسألهم النصر على بنى أسد قتلة والده ،
فبعث العيون على بنى أسد فأحس بنو أسد ريبة وكأتما كان العيون إنذارا لهم
فلجأوا إلى بنى كنانة . وخرج امرؤ القيس وبكر وتغلب في أثرهم ، فأدرك
بنو أسد أن امرأ القيس يتعقبهم فارتحلوا ليلا ، فلما دخل امرؤ القيس إلى بنى كنانة
ظانا بنى أسد بينهم نادى :

— يا لثارات الملك ! يا لثارات الملك .

فخرج له بعض نفر من كنانة وقالوا :

— ما نحن إلا كنانة .

— وأين بنو أسد ؟

— لما نزلت بجمع ذعر القطا فطار عن مجاثمه ، فقالت بنت « علياء بن
الحارث » القائم بأمر بنى أسد : « ما رأيت كالليلة قطا أكثر » . فقال علياء :
« لو ترك القطا لغفا ونام » ، وعرف أنك قد اقترنت منه فارتحل .
ورأى أحيحة وهو جالس في مكانه ينتظر ما تضع زوجه ، رأى امرأ القيس
وهو خارج إلى اليمن بعد امتناع « بكر بن وائل » و « تغلب » من أتباع بنى
أسد ، إنه استنصر « أزد سئوة » فأبوا أن ينصروه وقالوا :
— إخواننا وجيراننا .

ورآه بعين خياله وهو ينزل بمرثد الخير بن ذى جدث الحميري ، ورأى
الرجل وهو يمهده بخمسمائة رجل من حمير ، ورأى امرأ القيس وقد تبعه من
استأجر من قبائل العرب وقد وقفوا عند صنم « ذى الخلصة » ، وقد راح
امرؤ القيس يستشير الإله في أمر حربه ويدير القداح ، فإذا بالناهي يخرج
ثلاث مرات ، ورأى امرأ القيس وهو حائق غاضب يكسر السهام ويضرب

بها وجه الصنم ويقول :

— مصصت بظر أمك ، لو أبوك قتل ما عققنتى .

وتلمل أمحيحة في مجلسه وذهب ليرى ما فعلت زوجته ، فقليل له إنها لا تزال تضع . فعاد إلى مجلسه وإذا بخياله يعدو وراء صديقه امرئ القيس فراح يرى رجال بنى أسد وقد لجئوا إلى المنذر ملك الحيرة يستنجدونه ، فألح المنذر في طلبه ووجه الجيوش من أياد وبهراء وتنوخ لحربه فلم يقدرُوا عليه ، فأمد أنو شروان حليفه المنذر بجيش من الأساورة فسرحهم في طلبه .

ورأى أمحيحة في وضوح — وإن كل بصره — تفرق حمير من حول صديقه ، ورأى الصديق البائس يفر من قبيلة إلى قبيلة ومعه أدرع خمسة : الفضفاضة والضافية والمحصنة والخريق وأم الذبول ، كن لبنى آكل المرار يتوارثونها ملكا عن ملك .

ورأى امرأ القيس وقد نزل عند « الحارث بن شهاب » ، ورأى المنذر وقد بعث إليه بمائة من أصحابه يوعدده بالحرب إن لم يسلم إليه بنى آكل المرار ، ورأى الحارث وهو يسلمهم لأصحاب المنذر ، ورأى امرأ القيس وهو يفر ومعه بنته هند والأدرع والسلاح ومال كان بقى معه .

ورأى صديقه وهو يذهب إلى تيماء ويترك ابنته وبعض الأدرع عند السموأل ، ثم يأتي إليه في يثرب ويترك عنده ما بقى معه من أدرع ومال . وأطرق أمحيحة برأسه ، إنه ليذكر ذلك اللقاء الذى كان بينه وبين امرئ القيس قبل أن ينطلق صديقه إلى القسطنطينية يستنصر يوسطنيانوس قيصر الروم ، كان ذلك من ثلاثين سنة خلت ولكنه يذكر أحداث ذلك اليوم لكأنما كانت وقعت بالأمس القريب ، فقد كان وداعا للقاء بعده ، وإن كانت أنباء الصديق تفد إلى يثرب بما يثلج القلب وينعش الأمل .

إنه سلك طريق الشام ومر بحوران وبعلبك وحمص وحماه وقيصرية وأخيرا القسطنطينية . وقبله قيصر وأكرمه وسارت له منزلة عنده ، وأن ابنة قيصر نظرت إليه فعمشقتة فكان يأتيها وتأتيه .

وأجد يوسطنيانوس امراً القيس وأمه بجند كثيف فيه جماعة من أبناء الملوك ، ولكن الطماح من بنى أسد كان يمقت امراً القيس أشد المقت فهو من بنى أسد وقد قتل امرؤ القيس أخاه . فلحق به وأقام مستخفياً ، حتى إذا ما ارتحل امرؤ القيس ذهب إلى قيصر وقال له :

— إن امراً القيس غوى عاهر ، وإنه لما انصرف عنك بالجيش ذكر أنه كان يرأسل ابنتك ويواصلها ، وهو قائل في ذلك أشعارا يشهر بها في العرب فيفضحها ويفضحك .

وغضب قيصر فبعث إلى امرئ القيس بحلة وشئ مسمومة منسوجة بالذهب ، فلما بلغ الرسول امراً القيس قال له :

— إن مولاى القيصر يوسطنيانوس العظيم أرسل إليك بحلته التى كان يلبسها تكرامة لك ، فالبسها باليمن والبركة ، واكتب إليه بخبرك من منزل منزل .

ولبسها امرؤ القيس واشتد سروره ، فأسرع فيه السم وسقط جلده وسار يتحامل على نفسه حتى بلغ جبل عسيب ، فرأى « ذو القروح » فى الجبل قبراً ، فسأل من عنده :

— قبر من هذا ؟

— امرأة من أبناء الملوك ماتت هناك فدفنت فى سفح الجبل .

وأحس أنه يجود بأنفاسه فسار يجر رجليه حتى ارتقى بجوار القبر ، وراح يقلب بصره فى جبل عسيب ففطن إلى أن نور عينيه يكاد ينطفئ وأن روحه

توشك أن تنسل من بين جنبيه ، فقال ابن الملوك وهو ينظر إلى قبر بنت الملوك :

أجارتنا إن المزار قريب وإني مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إنا غريان ها هنا وكل غريب للغريب نسيب
ومات الملك الضليل أمير الشعراء ذو القروح ، امرؤ القيس بن حجر الكندي
غريبا في أنقرة ، ورن في أذنى أحيحة بن الجلاج قوله لما ظفر بيني أسد :
قولاً لدودان عبيد العصا ما غرکم بالأسد الباسل ؟
قد قرت العينان من مالك ومن بنى عمرو ومن كاهل
ومن بنى غنم بن دودان إذ نقذف أعلاهم على السافل
حلت لي الخمر وكنت امرأ عن شربها في شغل شاغل
فاليوم أشرب غير مستحقب إثما من الله ولا واغل
وندت من امرأة أحيحة صرخة لم أخرجته من شروده ، فهب واقفا وهو
يغمغم :

— الشعر باطل ، الملك باطل ، النعيم زائل ، كل شيء باطل . فم الحياة ؟
ولم الممات ؟ وفيم هذه الحروب الطاحنة التي لا يخبو لها أوار بين قبائل
العرب ؟ أنعيش حياتنا كالأنعام ثم نموت كما يموت البعير كأن لم يكن شيء ؟!
واحتلت صفحة ذهن أحيحة تلك المقابلة التي لم يمض عليها شهور والتي
تمت بينه وبين شيخ من أحبار اليهود ، دار الحديث بينهما حول الله والدين
وأصنام العرب وإله بنى إسرائيل وإذا بالحبر الشيخ يشرد قليلا ثم يقول :

— قد تقارب زمان نبي يبعث هذا أو ان مولده .

— ومن يبعث ؟

— من العرب .

— وما اسمه ؟

— محمد .

كان أحيحة قد ضاق بتلك الحروب الناشئة بين الأوس والخزرج وبالعداوة المشتعلة بين قبائل العرب ، وبالضياع الذى يعيش فيه شباب العرب وشيوخهم ، لا أمل يرتجى ولا هدف يسعى إليه ، بل فراغ فى العقيدة وضيق فى أفق الحياة ، وضرب فى بيداء الوجود على غير هدى ، فلما سمع من الحبر أن نبيا يبعث فى العرب هذا أو أن مولده يحملهم إلى ما فيه عز الدنيا والآخرة ، طمع فى أن يكون ذلك النبى من صلبه ، فعزم على أن يسمى ابنه محمدا إذا ما وضعت زوجته ذكرا .

ودخلت القابلة على أحيحة بن الجلاح وهو غارق فى أفكاره وقالت له :
— وضعت ذكرا كأنه القمر .

وهز الفرع الشيخ فانطلق إلى زوجته منبسط الأسارير وقال فى انفعال :
— سأسميه محمدا .

وتهلل الشيخ بالسرور وحسب أنه أول من عرف ذلك النبأ العظيم ، وراح ينظر فى وجه الوليد وهو يرجو أن يكون محمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسى هو نبى هذه الأمة المنتظر وما دار بخلده أن سفين بن مجاشع فى اليمن قد عرف من رهبان النصارى أن أوان مولد النبى المرتقب قد أظلم الكون زمانه ، فسمى ابنه من قبل محمدا ، فكان محمد بن سفين بن مجاشع أول من سماه أبوه محمدا أملا فى أن يكون النبى الذى يبشر به أحبار اليهود ورهبان النصارى .

وعرف مسلمة الأنصارى أن نبيا يوشك أن يولد فسمى ابنه محمدا ، وكذلك براء البكرى ، وحمران الجعفى ، وخزاعى السلمى ، من أحبار اليهود ورهبان النصارى وكهان العرب بقرب مولد النبى العربى الأسمى الذى

يبعثه الله في الأميين لا في بنى إسرائيل ، فسموا أبناءهم محمدا ، وكل منهم يرجو أن يكون ابنه هو الرسول الكريم ، فكان محمد بن سفين بن مجاشع ، ومحمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسى ، ومحمد بن مسلمة الأنصارى ، ومحمد بن براء البكرى ، ومحمد بن حمران الجعفى ، ومحمد بن خزاعى السلمى ، أول من تسمى بمحمد في العرب لا سابع لهم ، رجاء أن يكون أحدهم هو النبى ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

« والذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون . الحق من ربك فلا تكونن من المتمرين » .

كان حرب بن أمية قميئا هزيبا ولكنه كان يسير مرفوع الرأس شاخ الأنف
يختال كبيرا ، يستشعر في أعماقه أنه الكون وأنه أشرف من ولدته امرأة .
وكانت طمأنينة نفسه أسمى غاياته فراح على مر الأيام يحرق قلبه من الاضطراب
يبتر الخوف والرغبة وسد المسالك التي يتدفق من خلالها الألم والقلق إلى
وجدانه .

كان على علم بأن الحب والشفقة هما الثقب الذي يسمح بدخول موجة
القلق والألم الطاغية إلى قلبه ، فراح يجاهد لي طرح الشفقة جانبا . فالشفقة
ضعف . وكان يترفع عن تقبيل أطفاله حتى لا يفتح أبواب الوهن في نفسه ،
ويطلق لعواطفه العنان ، فبذ الحب ليتحرر من الشعور ، وراح يشاور رأسه
ويتجاهل فؤاده ، فكان بذلك يفتت ما جمعه الله ، فاستوى فظا غليظ القلب
انفض الناس من حوله ، يهابون سطوته ويتأخرون عنه إذا ما تقدم لاحباله
واجتراما لمقامه فيهم ، بل خوفا من شروره وأذاه .

وكان يعتزل الناس ترعفا فما كان يجد فيهم من هو كفاء مجالسته ، ولو أن
إنسانا كان يستطيع أن يعيش في عزلة عن العالم وحده لا اعتزل حرب الناس
جميعا ، ولكن الإنسان لا يقدر أن يعيش فردا بل هو في حاجة إلى أنيس
كحاجته إلى الطعام والشراب والهواء . فنادم عبد المطلب . وكان يضيق
بالمتخذئين في مجلس سيد قريش وكثيرا ما كان ينهرهم ويصدهم من الحديث
في غلظة وجفاء ، وكان يخسب الغيرة تنهش قلبه إذا ما مدح مادح عبد المطلب

أو خاطبه بخطاب ينم عن أن عبد المطلب زعيم مكة ، فقد كان حرب يعتقد في قرارة نفسه أنه أكرم من عبد المطلب وأعلى منه شرفا . ولا غرو فقد نافر أبوه أمية من قبل عمه هاشم أبا عبد المطلب ، فإن كان قد نزل على حكم الحكم وغادر مكة إلى الشام عشر سنين ، إلا أنه لم يقبل ذلك الحكم عن رضا بل لعن الحكم واليوم الذي صار فيه حكما يحكم فيه بأن هناك على وجه الأرض من هو كفاء لأمية بن عبد شمس بن عبد مناف .

وسار حرب في سوق من الأسواق يتيه خيلاء ومن حوله رؤساء قريش حتى بلغوا مكانا ضيقا لا يسمح إلا بمرور إنسان ، فتأخر أشرف قريش ليتقدم حرب ، وإذا برجل من تميم يزاحمه في التقدم فالتفت حرب إلى التميمي في شزر وقال في صوت غاضب ناهر :

— أنا حرب بن أمية .

فلم يلتفت إليه التميمي ومر قبله ، فرماه حرب بنظرة قاسية وقال متوعدا :

— وعدك مكة .

وزفر حرب حمم غضبه وراح يرسل نظرات حانقة خلف التميمي وهو يرغبى ويزبد ، ثم مر من المضيق وهو يعلل النفس بالانتقام من ذلك الذى جرح كبريائه يوم أن يفد إلى مكة .

وبقى التميمي دهرا ، ثم أراد دخول مكة فقال :

— من يجيرنى من حرب بن أمية ؟

فقيل له :

— عبد المطلب بن هاشم .

فانطلق التميمي متسترا بالليل حتى أتى دار الزبير بن عبد المطلب ، فدق الباب وهو يترقب خشية أن يراه حرب قبل أن يجيره آل عبد المطلب .

وبلغ الدق مسامع الزبير وأخيه الغيداق ، فقال الزبير لأخيه :
— قد جاءنا رجل إما مستجير أو طالب حاجة أو طالب قرى ، وقد
أعطيناه ما أراد . فخرج الزبير وما إن رآه التميمي حتى أنشد :

لاقيت حربا في الثنية مقبلا
والصبح أبلج ضوءه للباري
فدعا بصوت واكتفى ليروعني
ودعا بدعوته يريد فخاري
فتركته كالكلب ينبح وحده
وأتيته أهل معالم وفخار
ليثا هزبرا يستجار بقربه
رحب المنازل مكرما للججار
ولقد حلفت بمكة وبزمزم
والبيت ذى الأحجار والأستار
إن الزبير لما نعى من خوفه
ما كبر الحجاج في الأمصار

فقال الزبير للميمي :

— تقدم فإننا لانتقدم على من نجیره .

وأصبح الصباح وخرج التميمي والزبير إلى الحرم ، والميمي يتقدم ابن عبد
المطلب ، حتى إذا ما دخل المسجد رآه حرب فقام إليه فلطمه ، فاستل الزبير
سيفه وهجم على حرب فراح حرب يعدو والزبير في أثره والسيف في يده ،
ورأى أبناء عبد المطلب أخاهم في أثر شيخ بنى أمية فحفوا إليه لينصروه إذا ما
حاول بنو أمية نصره سيدهم .

وانطلق حرب إلى دار عبد المطلب وهو مبهور النفس يتلفت من الفرع ،
ثم دخل الدار وهو يدير في المكان عينين زائغتين وقلبه في صدره يخفق كجناح
حمام ، حتى إذا ما رأى عبد المطلب قال في صوت مرعوب :

— أجرني .

— ممن ؟

— من الزبير .

فأكفأ عليه جفنة كان أبوه هاشم يطعم الناس فيها ، وبقي حرب تحتها
يرتجف فرقا تنثال على رأسه أفكار مفزعة مرغت كبريائه في الرغام ، فقد
ثارت كرامته مرة وحرضته على الخروج لأبناء عبد المطلب وليقتل كريما فتأثر
بنو أمية لمقتله ، وسرعان ما غاضت تلك الكرامة لما هجس في صدره هاجس
يوسوس له : وماذا يفيدك سفح دم كل بني هاشم يا حرب لو مت مقتولا ؟
وبقي تحت الجفنة وهو في هلع قد أرهفت حواسه ، تذهب نفسه شعاعا
لزيف النسيم أو رفيف ثوب أو حفيف قدم تمشى هونا على الأرض . وكاد
يموت من الخوف لما سمع وقع أقدام قادمة فقد خيل له وهمه أن الجفنة سترفع
ثم ينزل سيف ليقطع رأسه ، ومس صوت عبد المطلب أذنيه مسارقيقا أعاد
الطمأنينة إلى نفسه قال :

— اخرج يا حرب .

فقال وهو ينكمش في نفسه تحت الجفنة :

— كيف أخرج وسبعة من ولدك قد اجتمعوا بسيفوفهم على الباب ؟

— اخرج وأنا أجيرك .

ورفع عبد المطلب الجفنة وألقى على حرب رداءه ، فوقف حرب برهة
يجمع شتات نفسه ، ثم خرج على الزبير وإخوته فلما رأوا رداء أبيهم علموا أنه
(مولد الرسول)

أجاره فوضعوا سيوفهم . وسار حرب بينهم مطمئنا وما لبث أن شمع بأنفه ورفع رأسه ومشى في كبر وخيلاء .

وذات يوم ذهب حرب إلى سوق من أسواق تهامة إذا تقدم تأخر الناس ، وإذا تكلم صمت الناس . وبينما هو في قمة غروره جاء اليهودى الذى كان في جوار عبد المطلب والذى يمقته حرب من كل قلبه ، ولم يلق سمعه إلى ما يقول حرب وهو صامت بل راح يجادله على أعين الناس ، فضاق حرب بذلك اليهودى الوقح ونهره ، فأغلظ اليهودى القول على حرب فأذهب غيظ قلوب الناس وشفى صدورهم وإن كتموا عواطفهم خشية بطش أمية وأهله . وضاحت الأرض أمام حرب على رحابتها وغشيتها ظلمات ، وإن كانت الشمس ترسل نورها مشرقا وهاجا فقد غامت نفسه بسحب الحنق والغضب وأعمته عن كل ما حوله ، ولم يعد يحس إلا المهانة التى لحقته من ولد عبد المطلب وحليف عبد المطلب اليهودى وإن كان في جوار عبد المطلب !

ودعا حرب رجلا من رجاله وراح يوسوس له ويغريه وينفث في صدره سموم غضبه ، فانطلق الرجل ينقب عن ذلك اليهودى الذى أهان سيد بنى أمية حتى عثر عليه في ناحية من السوق قتिला .

وبلغ عبد المطلب أن حربا أغرى على قتل اليهودى الذى كان في جواره فغضب وعزم على أن يفارق حربا وعلى أن يترك منادمته إلى أن يدفع دية القتيل .

وجاء حرب يكاد ينفجر من الكبر وهم أن يجلس بالقرب من فراش عبد المطلب ، فقال له عبد المطلب :

— لا تنادنا حتى تدفع دية القتيل .

— أى قتيل ؟

— الذى أغريت على قتله فى السوق ؟

— اليهودى !؟

— نعم . إنه كان فى جوارى .

وتغير حرب واربد وجهه واستشعر مهانة لما طالبه ابن هاشم بدية يهودى أغلظ له القول على أعين الناس فأغرى به من قتله جزاء وفاقا على وقاحته . ودار حرب على عقبه وانطلق مغاضبا هؤلاء القوم الذين يحاولون على الدوام أن ينالوا من كرامته دون أن يحفلوا بمكانته بين أشرف مكة وساداتها .

كان الغيظ يملأ جوانحه ، وراحت الأفكار المريضة تزحف على عقله حتى استولى عليه سؤال حائر : لماذا يحاول بنو هاشم أن يحقروا بنى أمية كلما سنحت لهم ساحة ؟ أجار الزبير ذلك التيمى وهو يعلم ما فعله من وقاحة لما تقدم عليه يمر من المضيق قلبه ، وهو من يتأخر عنه الناس احتراماً وإجلالاً ؛ واحتضن عبد المطلب ذلك اليهودى سليط اللسان وأجاره فراح ذلك اليهودى فى كل مجلس يعامله معاملة الأكفاء . وقد شجعت حماية عبد المطلب له على أن يغلظ له القول فى السوق فحق عليه القتل ، فلما نال جزاءه هب عبد المطلب ينادى بدفع ديته . لماذا يطالب عبد المطلب بدية اليهودى ؟ إنهما ما فعلا ذلك إلا تحقيراً للشأنه ، وخوفاً من أن يتترع من بنى هاشم الشرف والسلطان .

ورن فى جوفه سؤال فيه إنكار لذلك الخاطر : « وهل بنو هاشم أشرف من بنى أمية ؟ إن كانت لهم السقاية والرفادة فلنا دار الندوة وعقد لواء الحرب » وكاد يستريح لذلك القرار لولا أن همس فى جوفه هامس : « إنهم يحبون الناس بإطعامهم وسقائهم بينا تسوقونهم إلى الحرب لتسفك دماؤهم كالأغنام » .

وغضب من ذلك الخاطر الذى عكر عليه صفوه الذى كاد أن يلفه وراح

يقول بصوت مسموع ليطغى على وسوسات نفسه التي بدأت تقلقه : « إننا لا نعقد لواء الحرب إلا دفاعا عن شرف قريش ، إننا لا تعلن الحرب إلا على أعداء قريش ، ولولانا لذهب قريش أدراج الرياح . ولو أنصف العرب لعرفوا لنا ذلك الفضل و لرفعوه فوق كل فضل ، ولكن العرب لا يرون جلائل الأعمال إلا ببطونهم » .

وساءه أن يعترف بفضل بنى هاشم فعاد يقول في نفسه : « إن كان عبد المطلب قد أطعم الحجيج وسقاهم ، وإن كان بنو هاشم قد أوسعوا على الناس في المواسم فإن نيران الضيفان مشتعلة على الدوام على دور أمية ، فإن كانوا قد أطعموا فقد أطعمنا ، إننا وبنى هاشم في الكرم كفرسى رهان ، ولكننا سبقناهم بقيادة الجيش وحمل اللواء » .

وتذكر في لحظة غضبه ابنه أبا سفيان فتهللت أساريه ، وراح يقيم الموازات بينه وبين أبناء عبد المطلب : « أبو سفيان يرجح الزبير ، وهو أكفأ من أئى طالب ، وأئى عبد الله منه ، إنه لو وزن بأبناء عبد المطلب لرجحهم جميعا . وليس في بنى هاشم من هو كفاء لأئى سفيان ، فعلى بنى أمية أن تتكاتف لتمهد الأمور ليصبح أبو سفيان سيد مكة بلا منازع » .

وأشرق صدره بالأمل . ولكن سرعان ما غاض ذلك البصيص وعاد الغل يستولى عليه ، وراحت أصوات بغیضة تفح في وجدانه فحیح الأفعى . أيجير على الزبير ؟! أيطالبنى عبد المطلب بدية اليهودى ؟! لا كان الزبير ولا كان عبد المطلب ولا كانت قريش ولا كانت مكة لو أننى رضخت لإرادة من يريدون تحقيرى » .

ورأى أباه أمية بن عبد شمس يقوده عبده ذكوان فوسع من خطوه ليلحق بهما ويفر من وحدته التي تفجر مراحل الحقد والغضب والغل في نفسه ، وما

إن سار معهما حتى أحس راحة ، ولكن ما أسرع أن ضاق بتلك الصحبة فانطلق لا يلوى على شيء .

وعزم حرب على أن يعتزل عبد المطلب ومجلسه وقد حسب أن ذلك يريجه من الهوان الذي يستشعره إذا ما طالبه عبد المطلب بدية اليهودى ، ولكن عبد المطلب لم يدعه بل أرسل إليه يطالبه بالدية فنارت ثورته وأعلن في غضب أنه لن يدفع تلك الدية أبدا .

ومرت أيام وحرب بن أمية برم بوحدته حانق على ذلك الصوت المنبعث من نفسه يهدده : « الدية أو الثأر » ، نائر على ضعفه الذى يزين له سلوك طريق السلامة ودفع الدية والعودة إلى منادمة الصحاب .

واستكبر حرب ولج في العناد وإن كانت معاول الهزيمة تدك مقاومته على مر الأيام ، حتى ساق ذات صباح مائة من الإبل إلى بيت عم اليهودى دية القتل ، فقد عجز حرب عن الاستمرار فى عداوة عبد المطلب وأنف من مخالطة عامة الناس ، فما كان بقادر على أن يعيش فى عزلة عن قومه وقد تاقت نفسه المتكبرة إلى مجالسة السادة ، فهرع بعد أن أدى الدية وهو صاغر إلى منادمة عبد المطلب لا حبا فى عبد المطلب بل حبا فى نفسه .

كانت جبال مكة تمتص حرارة الشمس الحامية ثم تنفثها كشواظ من نار في أرجاء الوادى المقدس ، وكان الحصى الذى يفرش الأرض حول الكعبة يتصاعد منه دخان لكأثما يوشك أن يتوهج ، وقد غاب حمام الحمى عن الحرم فقد طار إلى دور مكة يختفى في ظل شرفاتها من الحر اللافتح . وعلى الرغم من القىظ الشديد الذى انبهرت له الأنفاس فى الصدور فقد كان رجال يطوفون بالبيت العتيق ، وكان عبد الله يطوف معهم وقد تفصد منه العرق فغمر جسمه وسال على لحيته التى بدأت تنبت فى وجهه ، فقد كان عبد الله شابا يافعا فى الثامنة عشرة لم يضع بعد قدمه على أعتاب العشرين .

وانتهى من طوافه فوسع من خطوه ، وخرج من باب إبراهيم يغذ السير ويحتمى من لفتح الشمس بالدور ، حتى إذا ما بلغ الطريق الضيق الذى يقوده إلى داره وقف فى الظل يلتقط أنفاسه فى راحة ويفكر فى هدوء . إنه خارج فى المساء فى رحلة الصيف إلى الشام ، إنه سعيد بهذه الرحلة ، فسيزور المدينة فى عودته وسينزل ببنى النجار أخوال أبيه عبد المطلب ، وسيشترى لآمنه حلية من الذهب من سوق قينقاع ، فما من شاب من شباب مكة خرج إلى المدينة إلا وعاد بأساور أو أقراط أو خلاخيل لأهله .

وسار هونا والأفكار تتوافد على رأسه ، إنه فقير لا يملك إلا جارية حبشية وخمسة أجمال وقطعة من غنم ولكنه لا يزال فى مقتبل العمر . سيضرب فى الآفاق ويخرج فى غير قريش إلى الشام وإلى اليمن وإلى الحيرة إلى مصر ، وسيكسب

من التجارة فيجمع بين الغنى والشرف ويصبح سيّدا من سادات قريش يطعم المحتاج ويغيث الملهوف ويعين على نوائب الدهر .
وتهلل بالفرح لما تذكر أن أباه الشيخ قد عهد إليه أن يمتار من المدينة تمرا ، وفي القافلة رجال عركوا التجارة وعركتهم لهم باع طويل في البيع والشراء ، إن أباه ما فعل ذلك إلا ليشعره أنه صار رجلا يمكن أن تعتمد عليه قبيلته في بعض أمورها . وسيأتي اليوم الذي يصبح فيه عماد مكة وصاحب الكلمة العليا فيها .

وفاضت نفسه بالسرور واستشعر أنه قد دخل الحياة من أوسع أبوابها ، وهل للحياة باب أوسع من باب التجارة ؟ سيطوف بالدينا وسيدلف إلى قصور كسرى وقصور قيصر وفرعون مصر وملك الحبشة وملك الحيرة ، وسيبرم معاهدات الصداقة بينه وبينهم جميعا كما آلف أجداده هاشم والمطلب ونوفل من قبل ملوك الأرض وأباطرتها .

كان فرحه لا يحد لما فداه إلهه بمائة من الإبل ، ولكن غبطته في تلك اللحظة كانت تفوق كل غبطة فقد ملأه يقين أن أيام سعادته قد أقبلت ، وأنه سيصبح شيئا مذكورا لا في مكة وحدها بل في طول الأرض وعرضها .

وبلغ الدار وراح يدق بابها في رفق وهو ينتظر أن يفرج عن جاريته الحبشية ، وإذا بالباب يفتح وإذا بآمنة تستقبله باتسامة مشرقة فأحس كأن الوجود كله قد تهلل بالفرح . وسار إلى جوارها وأقبل عليها يحدثها عن آماله العريضة وهي تصغى إليه منشرحة الصدر ناعمة البال تطوف

بها سكينه وأمن ، وإن كانت تعلم أن زوجها مفارقها بعد سويعات في رحلة قد تكون أطول من الأيام السعيدة التي قضياها معا في العش الجميل .

إنها شهور قليلة تلك التي مرت مذ تزوج سليل البيت الهاشمي أفضل فتاة في قريش نسبا وموضعا ، ولكنها كانت شهورا مترعة بالنشوة . وقد كانت تلك الليلة التي كانت فيها بين اليقظة والنام والتي سمعت فيها هاتفا يهتف بها في رؤياها : « انك قد حملت بسيد هذه الأمة » أروع أيام حياتها ، فقد انتشت مغمسا الهاتف أذنيها نشوة روحية ملأت جوانحها حتى انها باتت تحيا فيها ولها وبها .

كانت آمنة لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها ولكنها كانت تعرف مكانتها . إنها سيدة من سادات قريش وزوجة ابن زعيم قريش وأحب ولده إلى قلبه ، وقد تحقق لها أعز حلم تحلم به فتاة عربية أن تصبح أما ، وقد سمعت هاتفا يهتف بها أنها حملت بسيد هذه الأمة . وقد طار بها الخيال فرأت ابنها يجلس على فراشه في ظل الكعبة كما يجلس جده عبد المطلب وقد التفت الناس حوله وألقوا إليه أسماعهم وهو يفصل في قضاياهم ، فقد كان أقصى ما يمكن أن تتخيله امرأة من قريش أن يكون ابنها زعيما كعبد المطلب ، أو شريفا كعبد الله بن جدعان ، أو شيخا من شيوخ دار الندوة .

وراح الزوجان اللذان لم يمض على زواجهما إلا بضعة أشهر يتناجيان ، وما أسرع أن أقبل المساء وحانت ساعة الوداع . فراح عبد المطلب يرنو إلى وجه آمنة الذي كان يتألق بالنور في حب واعجاب ودهش ، ففي عينها هيام

وعلى شفتيها بسمه هادئة ، لم يعرف وجهها الفزع ولم ترتجف خوفا من وحدتها فلن يكون معها في الدار إلا جاريتها الحشوية الصغيرة التي كانت في مثل سنها ، بل كانت ثابتة مرفوعة الجبين تعرف حقيقة دورها في مجتمع يعيش بالتجارة وعلى التجارة ، يطوف رجاله بالآفاق ثم يعودون إلى الزوجة الصابرة التي تنتظر أوبة حبيبها لتنسيه متاعب الرحلة ووعثاء الطريق ، ولا غرو فقد كانت كانت فتاة من أشرف حى في قریش .

وفطن عبد الله إلى الجهد الذى تبذله زوجته الشابة حتى لا تبدو أمام عينيه منارة متهاككة تنشج بالبكاء ويعلو صوتها بالنجيب ، ففاض تأثره حتى وادت في طرفى عينيه القريبتين من أنفه دمعتان ، وخشى أن يبدو أمامها ضعيفا يسح العبرات فدار على عقبيه وانصرف لا يلتفت خلفه .

كانت آمنة تحس رغبة في البكاء لما كان عبد الله معها ولكنها كانت تتجلد لتبدو هادئة ، وكانت ثورة عارمة في أعماقها تكاد تعصف بها فما سبق لها أن عاشت في في دار كدارها وحدها . ومشى الخوف إليها إلا أنها كبحت جماح ضعفها وراحت توحى لنفسها أن نتاسك حتى يخرج عبد الله ثم تطلق لعواطفها العنان ، وكانت تحسب أنها ستتهار بعد أن يغيب زوجها الحبيب عن عينها وستنفجر باكية ، ولكن ما إن ذهب عبد الله حتى أحست أنسا يملأ أرجاءها لكأنما الكون كله معها في دارها يؤنس وحدتها . وعجبت لحالها ! كانت تسمع من نسوة بنى زهرة عن مشقة الحمل وثقله ولكنها حملت فما وجدت له مشقة ، وكانت تهاب الوحدة وترتجف منها فرقا وإن أبدت

شجاعة وعزما ، وكانت واثقة من أن قلبها سينخلع رعبا بعد أن يخلو الدار من فتاها ، ولكن سكينه وأمنا نزلا بها وهدهدا مشاعرها .

وخرج عبد الله وقد ارتفع القمر في السماء ينير السبيل فسار بضع خطوات ثم وقف والتفت خلفه وألقى نظرة طويلة على داره ، فانقبض صدره وطافت به موجة من الأسى واستشعر وحشه لم يحسها من قبل . إنه يحب آمنة وإنه لما يؤلم النفس أن يفارقها في أشهر زواجهما الأولى ، ولكنه ما كان يحسب أن فراق آمنة ينزل به مثل الحزن الذي انتشر بين جوانحه . ومرت لحظات وعيناه ثابتتان على داره لكأنما يتزود لدهر طويل من البعاد ، ثم دار على عقبه وراح يسعى إلى الكعبة .

كانت النيران مشتعلة على جبل قبيس لكأنما كانت منارة يهتدى بها الضاربون في البيداء ، وكانت السنة نيران الضيفان تتراقص في سواد الليل على بيوت الكرام ، وكانت المشاعل في أيدي الخارجين إلى حيث بركت غير قريش ، فبهرت أضواء النيران نور القمر وأحالت ليل مكة إلى نهار .

وراح عبد الله يطوف بالبيت العتيق مع الطائفين ، ثم ذهب إلى حيث العير فإذا بالمكان يموج بسادات مكة وعبيدها ورجالها ونسائها ، وقد تبرجت النساء وأبدن زينتهن ورخن يضربن بأرجلهن حتى توسوس الخلاخيل وسوساتها التي تجعل الرجال يلوون أعناقهم ولا يغضون من أبصارهم . وانتشرت حلقات السمار : حلقة تعب كئوس الخمر وتصغى إلى قينة من القيان تغنى شعرا لامرئ القيس ، وحلقة ضربت حول عراف يضرب الرمل ويروى على الذين أعاروه سمعهم ما يخبئه الغيب ، وحلقة من الفقراء والمساكين أقبلوا على طعام جاء به أجواد من قريش ، وهنا وهناك البغايا صاحبات الرايات الحمر وقد انتشرن في المكان يودعن شباب القافلة ورجالها

المترفين الذين راحت أفكارهم تسبقهم إلى صاحبات الرايات الحمر في يثرب والشام .

وراح عبد الله يقلب وجهه في المكان فإذا بمشاعر رقيقة تغمره ويحس أن عطفًا سابغا متبادل بينه وبين الحرم وجبل قبيس والأخشبين جبلي مكة والحجون والصفاء والمروة ، ومد بصره إلى بعيد فرأى غار حراء كقبة غمرتها أشعة الشمس الفضية بدت كلؤلؤة تتألق بنور لطيف لكأنما تجلت على الغار أنوار السماء .

واستشعر رحابة في قلبه وأحس أنه يحتوى الوجود كله ويضمه بين جنبيه ، وأن شيئًا جليلا غامضا ساحرا لذيذا قد أمسى يربط بينه وبين الوادي المقدس بل بينه وبين الكون جميعه ، ورفع بصره إلى السماء فخيّل إليه أن اسمه قد كتب بأحرف من نور وقد سبقه اسم آخر غشى نوره عينيه فلم يتبينه ، فهمس في نفسه هامس : إن لي لشأنا مع هذا البيت وهذه السماء وهذا الكون . وأفاق من أحلامه على صوت يناديه :

— عبد الله .. عبد الله ..

فالتفت فإذا بأخيه الزبير قد جاء يسعى ، فهرع إليه وقال له :

— أين أبى ؟

— إنه قادم في إثرى ليودعك قبل الرحيل .

وسار عبد الله والزبير يتناحيان ، وكان عبد الله يشرد بخياله بين لحظة وأخرى فقد كانت عواطفه جياشة نابضة بمشاعر رقيقة ما كان يدرى أن كنوزا نفيسة عامرة بها ، فقد سافر من قبل مع أبيه إلى اليمن قبل أن يتزوج آمنة ولم يحس يومها ما يحسه في هذه الليلة من تناسق مع كل ما حوله ، ومن فناء في كل ما حوله ، ومن حب لكل الدنيا ، وإنه هو وآمنة قد ارتفعا ليملا ما بين

أرض مكة وسمائها ، وأنه يسير في عالم مسحور حتى إنه بات لا يدري أيعيش في يقظة أو في حلم من الأحلام .

وجاء عبد المطلب بحف به أبنائه كالقمر ومن حوله نجوم السماء ، فحرف إليه عبد الله وارتمى في أحضانه وبقي على صدره فترة طالت كأنما قد استراح إلى القلب الحنون الذي يخفق بحبه . ثم ابتعد عبد الله عن أبيه الشيخ فانقبض صدر عبد المطلب فقد أحس كأنما قد انتزع ابنه منه ، وزاد في قلقه أنه شعر بدموع تبلل روحه وإن لم تطفرف إلى عينيه .

ووقفت رقيقة بنت نوفل تنظر إليه ؛ كان إخوة عبد الله يعانقونه مودعين فردا فردا وكان بين ذراعى أبى طالب ولكنها لم تكن ترى إلا وجه عبد الله وعجبت في نفسها لماذا تديم النظر إليه في تلك الليلة ، إنها طالما رأته بعد أن عرضت عليه نفسها وقالت له : هيت لك . يوم أن فداه إليه بمائة من الإبل قبل أن يدخل على آمنة ولكنها لم تنجذب إليه بعدها ، كان ساحرا قبل أن يدخل على بنت وهب إلا أنه فقد ذلك السحر بعد أن دخل عليها فلم يعد لها فيه حاجة ، فما بالها تطيل إليه النظر ؟ إنها لا تدري وكل ما تدريه أن نفسها تحدثها أن شيئا ما سيقع لابن عبد المطلب يتجاوب صداه جبال مكة ووديانها كما تجاوبت به يوم أن هم أبوه بذبحه .

وساد المكان سكون رهيب ، أطبقت المغنيات شفاههن وماتت ضحكات المأجنين ووضعت ككوس الخمر ، حتى البغايا صاحبات الرايات الحمر أطرقت برعوسهن فقد جاء موكب الإله وارتفعت الأصوات بالحمد والتسبيح . كان الإله في محفة على أعناق الكهنة وقد انطلقوا به حتى بلغوا الخيمة المقدسة وأريج الطيب ينتشر في المكان ، وبين الابتهالات والدعوات وضع الإله في الخيمة التي كانت على ظهر بعير برك على رأس القافلة .

وقام الجمل بحمله المقدس فأذن بالرحيل ، فالتقت عيون بعيون وخفقت قلوب وقلوب وسحت دموع وانهمرت دموع ، وسارت القافلة إلى الأفق البعيد ، فالتفت عبد الله خلفه يلقي نظرة وداع على أحب بقعة في الأرض إلى قلبه .

كانت وديان مكة قد لبست حلتها السندسية ، اخضرت الأرض وحملت الأشجار أطيب الثمار بعد الجذب الشديد ، فعرفت تلك الأيام بسنة الابتهاج ، وأتى قريش الرغد وحلت عليهم بركات السماء .
وسرت القافلة في الليل تسير على بساط أخضر يموج بأنوار القمر الفضية السحرية قد وشى بالنوار الأصفر ، فكان روعة تبده البصر والعقل والوجدان .

وانطلقت القافلة في أروع معبد حتى أطبق عليها الأفق وبعدت عن الوادي المقدس ، وإن ظل البيت العتيق مشرقا في سويداء القلوب مضيئا جنبات أرواح تعلقت به وشغفت به حبا .

وقامت مكة من رقادها على صوت عيص الراهب الذي جاء من الشام ونزل بمر الظهران يقول :

— يوشك أن يولد فيكم مولوديا أهل مكة تدين له العرب ويملك العجم ، هذا زمانه ، فمن أدركه واتبعه أصاب حاجته ومن أدركه وخالفه أخطأ حاجته .

كان عيص يلزم صومعة له ويدخل بين الحين والحين فيلقى الناس ويقول مقالته ثم يقفل راجعا إلى صومعته . وقد هزهم قوله أول مرة ولكنهم ألفوا نبوءته فأعرضوا عنها ، فأين ذلك العربي الذي تدين له العرب ويملك العجم ، والأمم من حولها تكاد أن تتخطفهم ؟

أطرق أبرهة برأسه يفكر فيما جاء به رسول يوسطينوس الثانى قيصر الروم ، فإمبراطور الروم يسأله أن يتحرك بجيوشه ليغزو الجزيرة العربية حتى تتصل جيوش الحبشة واليمن التى تدين بالنصرانية بجيوش الشام والقسطنطينية ، ثم تنطلق الجيوش الصليبية لغزو فارس . وإن إمبراطور الروم يستحثه على الإسراع بالخروج فالحرب الدائرة بين الشرق والغرب توشك أن تكون نكبة على القسطنطينية ، وفى انكسار الروم توهين للمسيحية وإضعاف لشأن الملوك المسيحيين .

وعادت به ذاكرته إلى ثلاثين سنة مضت، إلى تلك الأيام التى كانت الدعاية البيزنطية والحبشية لا هم لها إلا بث الكراهية فى العالم المسيحى على اختلاف مذاهبه للحميريين الذى تهودوا واضطهدوا النصرارى المسلمين . فكانت حملة الحبشة على اليمن فى ظاهرها باسم الدين ، وإن كان هدفها الحقيقى الذى تخفيه هو الاستيلاء على اليمن وإدخال ذلك القطر الغنى ذى الموقع الخطير تحت نفوذ البيزنطيين، لتتم لهم السيادة على مياه البحر الأحمر ، والسيطرة على مضيق المندب والمحيط الهندى وعلى ثروة إفريقية والهند وما وراء الهند.

إن ما يدعو إليه قيصر مشروع خطير راود عقل الإسكندر من قبل وظل حلما فى خياله ، وحاول أوليوس غالوس أن يخرج الحلم إلى عالم الوجود فمنى بإخفاق شديد ، ترى أينجح أبرهة فى تحقيق حلم الإسكندر وفيما أخفق فيه أوليوس غالوس القائد الرومانى العظيم؟

وراح أبرهة يفكر في الجزيرة التي ما فتئ قياصرة الروم يلحون عليه أن يسير بجيوشه فيها حتى تلتقى جيوش الحبشة بجيوش الروم فألفاها قبائل متنافرة حالت المنافسات بين زعمائها دون تكوّن دولة عربية قوية لها وزن في ميزان الدول ، وما أسير تأليب رئيس على رئيس أو تأييد زعيم موال أو القضاء على زعيم انتقض ليثور على سلطانه ، إنه قوة لا قبل لقبائل العرب بها ، وهو على يقين من أنه لو سار بجيوشه فلن تلبث القبائل العربية أن ترقع مستسلمة عند قدميه .

وانتفخت أوداج أبرهة غرورا ، وراح يجري وراء خياله فتذكر حليفه زهير بن خباب سيد كلب وشريفها وخطيبها وشاعرها وطبيبها وكاهنها وفارسها وأوجهها عند الملوك ، وتذكر حين طلع على نجد وأتاه زهير فأكرمه وفضله على من أتاه من العرب ثم أقره على بكر وتغلب ابني وائل ، وقد فرح آل زهير وقالوا : إن أبرهة اصطفى آل زهير وسوسهم على الناس . إن زهيراً قد جبي له الخراج من قبيلته ، وقد أصابته سنة شديدة لم يتمكنوا فيها من دفع ما عليهم فطالبهم زهير بها فاعتذروا عن الدفع ، فاشتد عليهم ومنعهم من النجعة حتى يؤدوا ما عليهم فكادت مواشيمهم تهلك ، فلما رأى ذلك « ابن ربابه » أحد بني تيم الله بن ثعلبة أتي زهيراً وهو نائم فأغمد السيف في بطنه ، ثم فر هارباً ظاناً أنه قد أهلكه .

وأفاق زهير فأخذه من كان معه من قومه حتى وصلوا به إلى قبيلته ، فجمع عندئذ جموعه ومن قدر عليه من أهل اليمن وغزا بهم بكراً وتغلب وقاتلهم قتالاً شديداً انهزمت به بكر وقاتلت تغلب بعدها فحاقت بها الهزيمة ، وأسر كليب ومهلل ابنا ربيعة ، وأخذت الأموال وكثرت القتلى في بني تغلب ، وأسرت جماعة من فرسانهم ووجوههم وانتصر زهير نصراً عظيماً .

ودانت لأبرهة نجد ، وحمل زهير إليه خراج معد وبكر وتغلب فوقر في وجدانه أن ما من زعيم من زعماء القبائل العربية إلا ويتهلل بالفرح إذا ما أقره على قبيلته ، وما من أحد منهم إلا ويسارع بحمل الخراج إليه تقربا إليه وكسبا لرضاه فقد كان سيد اليمن المطاع وأقوى ملك في المنطقة .

وكان أبرهة يعيش حياة الملوك المترفين ، فكان لا يقل فخامة ولا روعة عن قصر كسرى أنوشروان في المدائن أو قصر يوسطينوس بالقسطنطينية أو قصر الخورنق مقر ملوك الحيرة ، وقد بنى الكنائس العظيمة في مأرب وفي ظفار وفي صنعاء وفي نجران ، وراح ينشر النصرانية في اليمن ويدعو العرب إلى الحج إلى كنيسة العظيمة في صنعاء ويعمل على أن يصرفهم عن الحج إلى مكة لتعود عليه المغامم التي تجنيها قريش من الحجيج في موسم الحج . فما دار بخلده أبدا أن أشرف قريش يخرجون عن جزء من أموالهم لإطعام حجاج بيت الله ، وأن السقاية والرفادة شرف عظيم يتنافس عليه سادات قريش ليكون لهم ذلك المجد الذي تشرئب إليه أعناق الرجال .

وكان أبرهة قد فوض ابنه أكسوم أمر « معاهر » أرض أقبال معاهر انتزعها من أصحابها وسلمها إليه فعرف بذي معاهر ، وفوض ابنه الثاني الذي أنجبه من زوجته العربية التي انتزعها من زوجها على شناتر وعرف بذي شناتر ، وعرفه الغرب بمسروق لأنه جاء من امرأة سرقها أبرهة من زوجها بسلطانه . كانت الأمور مستقرة لأبرهة ، إنه يحيا حياة الملوك المترفين ، فكان إلحاح قياصرة الروم عليه بغزو الحجاز لا يصادف هوى في نفسه فكان يتلكأ في تنفيذه ، فما الذي يحمله على المغامرة وقطع فيافي وقفار في صحراء جرداء تحت نار الشمس الحامية عرضة للعطش والضياع ، وأن ينزل به ما نزل بأوليوس غالوس يوم أن أغراه قيصر بفتح بلاد العرب والاستيلاء على ما بها

من كنوز؟

ورأى أبرهة أن يمد سلطانه على القبائل بأن يبعث إليهم رجالا مواليين له يسوسهم على الناس يرغمونهم على طاعته ويجبون له الجزية ، فمن حوله أشراف كل قبيلة رهن إشارته وطوع أمره . واستراح للفكرة فبعث رجلا ممن عنده اصطفاه ليكون حاكم تهامة من قبله .

وخرج الرجل من قصر أبرهة يكاد يطير من الفرح فقد ولاه سيد اليمن على تهامة ، ولم يفكر الرجال في أن أبرهة قد ولاه على قوم لم يخضعوا لسلطانه ، فقد كان الرجل مبهورا بسيده لم يخطر له على قلب أن هناك على وجه الأرض من يعصى له أمرا أو تراوده فكرة عصيانه وشق عصا طاعته .

وبينا كان أبرهة في قصره بين ندمائه ورجال من أشراف اليمن والحبشة وأشراف القبائل التي تحالفت معه ، جاءه رسول يحمل إليه نبأ مقتل الرجل الذى اصطفاه ليكون حاكم تهامة ، فقد أبى القوم أن يسمعوا له ويخضعوا للذل الذى جاءهم به ، وقد نفسوا عن ثورتهم بسفك دمه .

وغضب أبرهة ومارت في جنباته ثورة عارمة لكرلمته التى أهدرت ، وكان لا بد من أن يشن حربا على العرب جميعا انتقاما لكبريائه التى جرحت ، ولتكن الحرب التى ما فتىء قياصرة الروم يلحون عليه أن يسنها نصرا لدينه وتخفيفا عن الدولة الرومانية الشرقية التى كانت تقاسى وحدها وطأة الحرب الدائرة بينها وبين فارس .

وراح أبرهة يدبر أمره ويرسم خططه فرأى أن العرب قبائل متناحرة متنافرة ما أيسر أن يخضعها بحد السيف لسلطانه ، لا يربط بينها إلا ذلك البيت العتيق الذى بمكة والذى يحجون إليه ويعظمونه والذى عجز عن أن يحول عنه حجاج العرب إلى كنيسته الفاخرة ، فإن هدم ذلك البيت فإنه سيمزق (مولد الرسول)

الآصرة الوحيدة التي تربط بين أفئدة العرب جميعا ولن تصبح بين القبائل رابطة ، فعزم على أن يخرج ليديك ذلك البيت ليسهل له بسط سلطانه على العرب .

وعجب أبرهة في نفسه من هؤلاء العرب عبدة الأوثان الذين أبوا أن يدخلوا دينه ولجوا في العناد ، وعلى الرغم من أن أبرهة قد لبث فيهم سنين طويلة فإنه لم يفهم عقليتهم ، فالعرب تفخر بالأسرة الكبيرة التي يكثر عددها ، وترى في ذلك عزة ومنعة ، فإن كانت النصرارى يدعونهم إلى إله ليس له إلا ولد واحد فإنهم يعبدون إلهها عظيما له بنات وبنون يقربونهم إليه زلفى ، وعندهم أن الإله الذى له أولاد كثيرون خير من إله ليس له إلا ولد واحد . « وقالوا اتخذ الله ولدا ، سبحانه ! بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون : بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون » .

توج أبرهة محمد بن خزاعى وأمره على مضر وأمره أن يسير فى الناس يدعوهم إلى حج كنيسته التى بناها بصنعاء ، وأن يجيبى له منهم الخراج وأن يلزمهم طاعته ، فسار محمد بن خزاعى حتى إذا نزل ببعض أرض بنى كنانة وقد بلغ أهل تهامة أمره وما جاء له ، بعثوا إليه رجلا من هذيل رماه بسهم فقتله ، فلما بلغه النبأ حلف ليغزون بنى كنانة ، ولكنه قد وطن العزم على هدم الكعبة وكان لا بد من سبب لتبرير ذلك الاعتداء .

كان أبرهة فى مجلسه ينظر إلى الباب كأنما كان ينتظر قدوم أحد ، وكان من عنده من العرب والأحباش يظهرون له الود والإكبار والإجلال يلتمسون فضله وإن هى إلا لحظات قصيرة حتى فتح الباب وأقبل راهب من الرهبان وفى وجهه فزع وقال :

— دنست كنيستك يا مولاي .

فقال أبرهة في دهش :

— كيف ؟

— قعد فيها رجل من العرب .

— من أى العرب ؟

— من أهل هذا البيت الذى تحج العرب إليه بمكة لما سمع من قول مولاه :

لست بمنته حتى أصرف إلى كنيستى حاج العرب .

وهب أبرهة غاضبا وأقسم بالله ومسيحه ليسيرن إلى البيت فيهدمه .

كان سببا واهيا ذلك السبب الذى قيل لتبرير شن الحرب على مكة وهدم

بيتها العتيق ، ولكنه كان سببا على أية حال ، فقد كان لا بد من سبب يثير

حماسة الجماهير لامتشاق الحسام لتحقيق أغراض السادة السياسية .

وبعث أبرهة إلى النجاشى ينبئنه أنه قد عزم على غزو مكة وعلى تقويض

كعبتها ، وسأله أن يمده بالجنود والفيلة ، فتدفقت الجنود على اليمن . وجاءت

الفيلة من الحبشة ، وراح أبرهة يعد العدة لحملة لم تر جزيرة العرب مثلها ،

ليتصل نصارى الحبشة واليمن بنصارى غسان والقسطنطينية ، ثم ينطلق حملة

الصليب نحو الشرق لقتال الفرس ونشر لواء المسيحية الخفاق على وجه

الأرض .

وراح أبرهة يحلم بأيام مجيدة كأيام الإسكندر الأكبر ، وسمع العرب بما

عزم عليه أبرهة فأعظموه وفضعوا به ، ورأوا جهاده حقا عليهم فراحت كل

قبيلة فى طريق البيت العتيق تتأهب للدفاع عن بيت الله الحرام أو المهلاك دونه ،

ولم يفكر أحد منهم فى أن يجمع كلمة العرب ليقفوا فى وجه الطاغية صفا

واحدا ، « والله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما » .

وراح الحادى يغنى بصوت يموج بالشجن يصور حنينه إلى الوطن وإلى البيت العتيق وإلى الحجون وإلى الصفا وإلى ما فى مكة من أحبة وصحاب ، فإذا بإحساسات ناعمة تتدسس إلى أفئدة الفتیان ، وإذا بالركبان يشاركون الحادى فى الغناء ، وإذا بالدموع تظفر إلى عيني عبد الله فقد لاحت له آمنة تملأ الفضاء بين الأرض والسماء يشع من جبينها ذلك النور الذى يملأ جوانحه حبا ورحمة وأمنا .

إنه مذودع آمنة يحس كأنما خلف قلبه هناك ، فلم ينش طيفها عنه آناء الليل وأطراف النهار . إنها فى خياله وفى وجدانه وفى سويداء الفؤاد ، إنها أمامه وعن يمينه وعن شماله وحيثما يقلب وجهه يمس حديثها العذب أذنيه مسارقا يحبى فيه أجمل الذكريات . وإن صوتها وهى تحدثه عن الرؤيا التى رأتها والتى سمعت فيها هاتفا يهتف بها : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، يسرى فى ضميره كموسيقى حالمة ناعمة تدغدغ حواسه ، أو كصوت ملائكى آت من السماء بالبشرى يحمله على أجنحة السعادة إلى عوالم من الفرح والبهجة ، تبدو له من فرط نشوته أنها ليست من هذه الأرض .

وراح يحاول أن يميظ اللثام عن الغيب وأن يرسم صورة بخياله لابنه الحبيب الذى بشرت به آمنة ، إلا أن كل أحلامه قد قصرت على أن تسمو إلى ما ينتظر ابنه من مجد ، فقد كانت أمانيه أرضية عجزت عن أن ترتفع بآبانه إلى السماء وإلى ما فوق السماء ، لتربط بينه وبين رب الكوب الأسباب .

ومد رجل من رجال القافلة أنفه وزفر زفرة طويلة ثم قال :

— أشم ريح غزة .

ومس الصوت أذنى عبد الله فإذا بصوت حنون ينبعث من أغواره يقول في

وجد :

— أشم ريح مكة .

وعاد يعيش بوجدانه في مكة ويطوف بالكعبة ويلقى نظرات حب على مجلس عبد المطلب في ظل البيت ، ويهرع إلى داره الحبيبة يناجى آمنة ، ويتسّم لجارته الحبشية ويوصيها بسيدتها خيرا ، فإنها قد حملت بسيد هذه الأمة . وتدور محاورات طويلة مفعمة بالنشوة بينه وبين الصحاب وإن كان يطوى مع غير قريش أرض الله .

وهبت ريح النسيم وبدت السحب في رقعة السماء كأنها قطيع من بقر الوحش ، فراح الرجال يحثون الإبل على الإسراع لتجد القافلة لها عاصما من المطر في غزة ، فإن هى إلا سويعات وينهمر الغيث . ومرت ساعة وراحت السحب تمر كأنها بغال دهم تجر جلالها ، وصار لاهم لرجال القافلة إلا مراقبة السماء بينا كان عبد الله غائبا عن الوجود بالرؤى العذاب التى تترادف على رأسه فتولد فى نفسه آمالا مشرقة عريضة تعزف على قيثاره فؤاده أرق الألحان .

وطافت به نبوءة سودة عمّة وهب ، كاهنة قريش ، فقد تنبأت لآمنة بأنها النذيرة أو تلد نذيرا . وقد جاءت رؤيا آمنة وذلك الهاتف الذى هتف بها بأنها ستلد سيد هذه الأمة مؤكدة نبوءة كاهنة قريش . ستلد آمنة ذلك النذير الذى كانت نساء مكة كلها يتمنين أن يخرج من بطونهم . وتهلل عبد الله بالفرح فسيكون لابنه شأن عظيم وإن كان لا يدري ما النذير ، فقد كان من قوم لم

يبعث الله فيهم من قبل نذيرا ولا رسولا

ودنت السحب من الأرض وتدلّت فبدت كأنما بين أعلاها وأسفلها
أثواب هينة رقيقة منشرة ، أو ضوء مصباح خافت يكاد أن يلفظ أنفاسه ، ثم
أسدل عل وجه السماء نقاب من سحب داكنة فارتفع صوت الحادى بالحداء
يحث الإبل على الإسراع فقد لاحت أرباض غزة .

وبرق البرق ثم هزم الرعد وسرعان ما هطلت الأمطار ، فاضطرب قطار
القافلة لحظات ، فقد خف الرجال لتغطية ما يخشى عليه من البلل ، وهرع
الكاهن ليطمئن إلى أن إلهه في مأمن من الماء النازل من السماء ، ثم استقامت
العير وانطلقت تغذ السير في دروب غزة .

وجفت دموع السحب وأطلت زرقة صافية من بين الغمام وما لبثت أن
انداحت حتى استولت على رقعة السماء ، وبدت الأرض على جانبي القافلة
كأنما كسيت ببساط من سندس أخضر وشى باليواقيت والزبرجد والمرجان ،
وبلغت القافلة السوق فحطت رحالها وراح الرجال يلتقطون أنفاسهم .

وتمدد عبد الله في خيمته وقد أطلق لخياله العنان ، فراح الفتى يجتر ذكرياته
وهو سعيد ، فقد كانت السنوات القليلة التي مرت على عمره مفعمة بأحداث
جسام وبتجارب قد لا يمر بها من بلغ من العمر عتيا ، فمن سادات قومه
أخذه أبوه ليذبحه قربانا لإلهه ففداه الإله بمائة من الإبل ، ومن زوجات
أشراف قريش بشرت بأنها قد حملت بسيد أمته ؟ إنه سعيد بحياته راض كل
الرضا عن دنياه .

وتذكر جده هاشم بن عبد مناف أول من ثرد الثريد وهشمه في الجذب .
وأول من سن الرحلتين لقريش رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى
الشام .

وقد صارت إليه الرفادة والسقاية وساد قومه ولما يبلغ الخامسة والعشرين . إن هاشما قد امتاز بصفات فاضلة لم يطاوله بها أحد من قومه . ترى أتمد به الأيام ليلغ ما بلغه هاشم من مجد ؟ أيكون ابنه الذى بشرت به آمنة صنو هاشم ؟ وطافت به فكرة أن ينطلق لزيارة قبر هاشم فقام قبل أن يأخذ نصيبه من الراحة واتخذ طريقه إلى القبر وهو يتمثل مطرود بن كعب الخزاعى :

وهـاشم فى ضريحٍ وسنط بلقعة

تسقى الرياح عليه بين غزات

وبلغ قبر هاشم فوقف الحفيد مطرقا خاشعا أمام قبر جده الذى ربط بزواجه من سلمى الخزرجية بين مكة ويثرب . والذى جعل لهم بذلك الرباط المقدس أخوالا من بنى النجار ، فهو الجسر الذى شد وثاق مكة بالمدينة ، والذى خلق لبني هاشم عصبية من أهم محاط فى طريق قوافلهم .

وشرد خياله فتذكر المطلب الذى هلك بردمان فى أرض اليمن ، ونوفلا الذى فاضت روحه بسلمان من ناحية العراق ، وطاف به سؤال : ما حكمة موت سادات قريش غرباء فى أرض العرب بين قبورهم مفاوز وصحراوات ، أتكون قبورهم معال على طريق قوافل قريش ؟ أتكون رابطة بين مكة والعراق واليمن والشام تجعل الأفئدة تهفو إلى تلك البلاد ما دامت الرابطة السياسية بين تلك الدول قد انفصمت وحلت بينها العداوات ؟ ولم يهتد الفتى اليافع إلى شيء فدار على عقبه وهو يفكر فى الموت ، ويعجب من القائلين إن هى إلا حياتنا الدنيا ، فإن كان ما يقولون حقا فما أتهها من حياة ، أيعيش المرء سنين قصرت أم طالت ثم يموت كما يموت البعير ثم لا شيء ؟ لو كان الأمر كذلك لكان الخلق باطلا . إنه يؤمن بما وصل إليه أبوه بأن وراء هذه الحياة حياة

أخرى يحاسب الإنسان فيها على ما قدمت يدها إن خيرا فخير وإن شرا فشر .
ومرت أيام السوق مفعمة بالعمل والبهجة ، فقد باع رجال قريش كل ما
معهم من سلع وحققوا أرباحا أثلجت صدورهم ، وأقبلوا على الشراء بعد
البيع فكانت الخمور أكثر ما اشتروه فمتروهم مكة وساداتها يدفعون في خمور
الشام كل ما يطلب منهم من ثمن .

وتقضت أيام غزة ولياليها النابضة الحية ، فقد كان السمر يمتد حتى مطلع
الفجر ؛ رجال قريش يتبارون في شعر الفحول من شعراء العرب ، والمتأدبون
من أهل غزة يهرعون إلى ذلك النادى يلقون سمعهم إلى الرواة منتشية أرواحهم
مفعمة بالفرح أفئدتهم ، وكان بعض رجال غزة يقصون أنباء الغساسنة
ويروون أنباء الحروب التي لا تنقطع بين الغرب والشرق ، بين الإمبراطورية
الرومانية الشرقية وإمبراطورية فارس الساسانية .

وتجهزت غير قريش للعودة فاستوى الرجال على ظهور إبلهم ، وأذن
بالرحيل فانطلقت القافلة وقد استقبلت مكة ، وراح الرجال يكثرون من
التلفت فقد كانوا يعتقدون أن كثرة التلفت توجب العودة وكانوا جميعا يتمنون
الأوبة ليسعدوا بالخضرة والماء والوجه الحسن ، فقد كان في كل سوق من
أسواق الأرض منازل للبلغايا صاحبات الرايات الحمر .

وراح عبد الله يفكر في يثرب وفي أخواله من بنى النجار ، فأبوه قد أرسله
مع القافلة ليمتار تمرا ويزور أخواله ، فعبد المطلب يجب أن تظل الأسباب
متصلة بين بنى هاشم والخزرج في المدينة . فشيخ قريش لا ينسى ذلك اليوم
الذي أراد فيه عمه نوفل أن يسلبه حقه فوجد من ينصره من أخواله على عمه ،
وقد عرف ما كان من نصرة رزاح بن ربيعة لأخيه قصى يوم أن جاءه في حج
قضاة وثبت سلطانه على مكة ، فكان عبد المطلب حريصا على أن تظل

الوسائل طيبة بينه وبين بنى النجار ، فقد يفزع إليهم يوما بعض ولده يلتمس منهم النصرة والتأييد .

وسرت القافلة في الكون العريض ، وانصرفت ليالي وأيام وأحس عبد الله وهنا يدب في جسمه فلم يحفل به كثيرا ، فقد كان يحسب أن التعب دب في أوصاله وأن ذلك الإرهاق لن يلبث أن يزول إذا أعطى حقه من الراحة .
ودخل خيمته ، وما إن أسلم جنبه للرقاد حتى راح في سبات عميق وغط في نومه وانبثق منه العرق وذبل لونه ، حتى إن الذى دلف إلى خيمته ليوقظه وقف ينظر في وجهه الأصفر خافق القلب وقد نزل ب صدره شيء من الخوف والقلق .

وتقدم الرجل وهتف في صوت خافت :

— عبد الله .. عبد الله .

وظل عبد الله في نومه يلتقط أنفاسا مضطربة في جهد شديد ، فمد الرجل يده وراح يهزه وهو يناديه :

— عبد الله .. عبد الله .

وفتح الفتى عينين واهنتين عجز عن أن تظلا مفتوحتين ، فسحب عليهما جفنيه ، وأطرق برأسه على صدره وزفر زفرة طويلة في صوت مسموع ، فقال له الرجل :

— ما بك يا عبد الله ؟

وأراد عبد الله أن ينهض ولكنه عجز عن النهوض فقال في صوت خافت :

— إني سقيم .

وامتلأت خيمة عبد الله برجال القافلة ، فابن شيخ قريش وأحب ولده إلى قلبه مريض ، وأعطاه كاهن القافلة وطبيبها بعض العقاقير ، ثم حمل عبد الله

ووضع في هودج على ظهر بعير ، ورجال قريش يرجون أن تزول عنه الوعكة
التي ألت به قبل أن يبلغوا المدينة .

وانسابت القافلة في دروب المدينة تمشى وهنا ، وارتفعت أصوات
الترحيب من المدنيين .

— غير قريش .. غير قريش ، مرحبا بعير قريش .

ولم تهلل الوجوه بالفرح بل كان العبوس على كل الوجوه ، فعبد الله
لا يزال مريضا وإن أمره يسوء يوما عن يوم ، وقد حار فيه كاهن القافلة
وطبيها .

وحطت القافلة رحالها في السوق ، وفي نفس الوقت كان سادات قريش
ممن كانوا في العير آخذين بخطام الناقة التي عليها هودج عبد الله المريض
منطلقين إلى دور أخواله من بنى النجار ، وسار الركب الصغير يغمره الأسى
في طرقات المدينة ، ومر بالدار التي بناها تبع اليمن تبان أسعد للنبي المنتظر يوم
أن جاء ليهدم يثرب ومنعه أحبار اليهود عن ذلك قائلين ، إنها مهاجر رسول من
بنى إسماعيل ، ولم يحس الركب خطر تلك الدار فقد كانت دار تريد أن
تنقض ، وكان الغيب وحده يعلم ما بين المريض الذي في الهودج وبين تلك
الدار من وشائج وأواصر وأسباب .

ووقف الهودج أمام دور بنى النجار ، وما إن بلغ مسامعهم أن عبد الله
مريض حتى خفوا إليه مهطعين وحملوه في رفق ، وقبل أن يغيبوا به في الدار
جاهد عبد الله وفتح عينيه وقال لرجال قريش في صوت ضعيف :

— لا تنسوا أن تشتروا التمر الذي طلب منا عبد المطلب أن نشتريه .

ثم أغمض عينيه ولاح في وجهه شيء من الراحة ، فقد اطمأن إلى أن قافلة
قريش ستعود وهي تحمل ما طلبه أبوه .

وانصرف الرجال يبتهلون إلى آلهتهم أن يشفى ابن عبد المطلب ليعود معهم . فقد أصبحوا يفزعون من مجرد فكرة عودة القافلة إلى مكة دون أن يكون فيها فتى قريش الذبيح .

وراح رجال قريش يمشون وقتهم في السوق وفي عبادة الله وقد أعرضوا عن مباحج يثرب وهوها ، باتت نفوسهم قلقة لما أيقنوا أن أوبة عبد الله معهم لم تعد أمرا ميسورا ، فقد اشتدت عليه وطأة المرض وخشوا أن يهلك منهم في الطريق .

وجاء يوم الرحيل فذهب الرجال إلى حيث رقد عبد الله وراح الرجال وبنو النجار يتناجون ، كان بعض الرجال يرى أن يحمل معه عبد الله ، فدخل القافلة مكة وعبد الله معها مريض أهون على أهل مكة من عودة القافلة دون أن يكون فتاها بين العائدين . ولكن أحوال عبد الله من بنى النجار أبوا أن يغادر عبد الله فراشه قبل أن يبيل من مرضه ، وانتصر الرأى القائل ببقاء عبد الله عند أحواله ، فألقى الرجال على عبد الله نظرة طويلة ثم داروا على أعقابهم منكسى الرعوس ، تخفق أفئدتهم خوفا ورهبة كلما تذكروا دخولهم مكة دون أن يكون فيهم فتى مكة وابن سيدها الحبيب ..

نشر الليل رداءه الأسود على مكة ، وغابت نجوم السماء وهجع الكون
وراح في سبات ولكن النسوة في أغلب دور المدينة المقدسة لم تعرف عيونهم
النوم ، فقد حان أوان عودة قافلة قريش من الشام ، ودنت ساعة تلاقى الأحبة
بعد طول الفراق .

واختلجت عين امرأة منهن فأشرق وجهها بالابتسام ، ورأت أخرى تهلل
أسارير صاحبها فقالت لها :

— في وجهك حلم شهى .

- — اختلجت عيني . سأرى من أحب عن قريب .

فقالت لها صاحبها :

إذا اختلجت عيني تيقنت أنني أراك وإن كان المزار بعيد

وفي دار أخرى أخذت زوجة ترابا من موضع قدم زوجها وموضع رحله ،
فقد لقت منذ نعومة أظفارها أن ذلك أسرع لرجوعه ، وراحت تقول وهي
تغدو وتروح في غرفتها متلهفة على عودة رجلها :

أخذت ترابا من مواضع رحله غداة غد كيما يطوب مسلما

وراخت الفتيات المتلهفات على الزواج ينشرن جانبا من شعورهن
ويكحلن عيونهن ويحجلن على إحدى أرجلهن في جنح الليل وهن يقلن :

— يا لكاح ! أبغى النكاح ، قبل الصباح .

وبالقرب من النافذة راحت آمنة ترقب الطريق خافقة القلب وعلى مقربة منها جلست جارية عبد الله الحبشية تتحدث وآمنة غائبة عنها ، فقد سبقها خيالها إلى لقاء الحبيب . رأت بعين الشوق قافلة قريش تحط رحالها خارج أول بيت وضع للناس ورأت عبد الله ينزل عن راحلته يتألق وجهه بالنور ويشرق بالابتسام ثم ينطلق كالقمر يحف به رجال قريش كالنجوم إلى الحرم ، يطوف به سبعا . وسرعان ما رآته يعدو في دروب مكة ، وخيل لها وهمها ولهفتها على أن تلقى عبد الله أنها تسمع طرقاته على الباب ، وراحت تجرى وراء أحلامها المنححة التي تملؤها نشوة وانسراحا ، فرأت نفسها تستقبل زوجها العائد الذي تركها وهي لا تزال في ثياب العرس في وجد وهيام ، وراحت تتحدث طيفه وقد تهلل بالفرح وتروى له أعذب الأحاديث عن ذلك الذي حملت به ولم تحس ما سمعت عنه من نساء بنى زهرة من ثقل الحمل وآلامه .

واستراحت للأحداث البهيجة التي كان خيالها يمدّها بها فأطلقت العنان لأفكارها ، وراحت تقول لطيف عبد الله وقد رفت بسمة حاملة على شفيتها : إن هالة قد حملت من أبيك وقد عزم عبد المطلب أن يسمي ابنه حمزة إن جاء ولدا ، بينا لم نفكر بعد في اسم لوليدنا ، أنسميه قصيا أم هاشما أم عبد المطلب ؟ إني أعلم يا عبد الله أنك تحب أبا طالب وأن أبا طالب يحبك ، أنسميه أبا طالب ؟

وملأت النشوة فؤاد آمنة فشرد خيالها ، وطالت وقفها عند الشباك حتى خدرت رجلها فالتفتت إلى جارية عبد الله وقالت :

— خدرت رجلى .

فقالت الجارية التي كانت تتحدث غير ملتفتة إلى شرود سيدتها .

— ذكر الحبيب يزيل خدر الرجل . ادعى أحب الناس إليك .
فقال آمنة في صوت متهدج فيه رنة أسرة منبعثة من كنز الحب :
— يا عبد الله .. يا عبد الله .

وعادت آمنة لتغيب عما حولها في الدنيا المشرقة الخافقة بالأمل التي أقامتها
في وجدانها ، رأت عبد الله يثوب إليها وعلى شفثيه بسمة أروع من كل مباحج
الدنيا ، ويلف حول عنقها قلادة من الذهب أتى بها من سوق بنى قينقاع . إنها
تكاد تحس أنامله وهو يصلح القلادة على جيدها ، وأنفاسه تتردد في جنبات
الغرفة ، وصورته تملأ الأفق كله وتحيل ليل حياتها نورا لطيفا مفعما بالبهجة
والحب والسلام .

ومزق سكون الليل صوت جهورى تردد في جنبات مكة كأنه البشرى أو
العيد :

— أقبلت غير قريش .. أقبلت غير قريش .

ودق قلب آمنة بين ضلوعها دقات عالية عنيفة وتبخرت في لحظة كل
أحلامها ، وسرت في بدنها رعدة وقشعريرة . إنها باتت أمام المجهول وجها
لوجه وعماء قليل ينبج الصبح عن الحقيقة ، ترى كيف أنت يا عبد الله ؟ أين
أنت يا حبيبي ؟ وغلبتها عاطفتها الجياشة في جوفها فانهمرت الدموع من
مآقيها .

وفتحت دور مكة وخرج الرجال مهرولين لاستقبال الأحبة العائدين .
وانطلق عبد المطلب وأبناؤه ليضموا عبد الله إلى صدورهم الملهوفة ، وراح أبو
هلب يهرول ويتحلب ريقه لخمير الشام .

وحطت القافلة وأقبل أهل مكة يستبقون إليها وعانق الرجال الرجال ،
وانبثقت دموع الفرح وعبرات الرحمة من العيون وارتفعت الأصوات تنادى

الأحبة ، وقد ماج القادمون بالمستقبلين وارتفع صوت عبد المطلب ينادى في انفعال :

— عبد الله .. عبد الله .

وراح الحارث والزبير وأبو طالب وإخوتهم يشقون الجموع ويتلفتون بعيون زائغة وينادون على أخيم في فزع ولهفة دون جدوى ، فلم يكن عبد الله فتي قريش اليافع بين العائدين .

وأقبل زعيم القافلة على شيخ بنى هاشم وهو يتصنع التجلد ويرسم بسمه هادئة على شفثيه ، وما إن رآه عبد المطلب حتى قال له في صوت فيه رهبة ووجد :

— أين عبد الله ؟

فذهبت نفس الرجل شعاعا ولم يقو على أن يستمر في بشاشته ، بل قال وقد عبس :

— خلفناه عند أخواله بنى عدى بن النجار وهو مريض .

فأحس كأن يدا قوية تهصر قلبه وأن دموعا تبلل روحه تريد أن تطفر من مقلتيه ، وراح يجاهد ليقاوم مخارفه ، ولكنه لما تذكر آمنة انهارت مقاومته وكادت تخور عزمته . فإنها المهمة ثقيلة على قلبه أن يقول لآمنة التي تنتظر أوبة حبيبها وهي مفعمة بالسرور إن فتاها مريض هناك في يثرب عند أخواله بنى النجار .

لك الله يا آمنة ، خلا كل حبيب بحبيبه وحبيبك غريب مريض في أرض الغرباء . ترى أيوب عبد الله يوما ؟ وقفزت إلى رأس عبد المطلب ذكريات أليمة مرث بقريش ، إن أباه هاشما مات غريبا في غزة ، ومات عمه المطلب في

أرض اليمن ، وهلك عمه نوفل في أرض العراق ، أيموت عبد الله في يثرب ؟
وفزع عبد المطلب لذلك الخاطر وأن أنه كان فيها ذوب نفسه ، لكأنما
كانت سكيناً مزقت نياط قلبه . وجاء إليه أبناؤه وقد بلغهم خبر مرض عبد الله
ولاح في وجوههم الأسى العميق إلا أنهم راحوا يحاولون إدخال الطمأنينة على
قلبه وإن كانت الطمأنينة قد فرت من أفئدتهم ، فقد كانوا يعلمون أن عبد الله
أحب إلى أبيهم منهم أجمعين .

وذهب عبد المطلب وبنوه إلى دار آمنة مطرق الرعوس قد سكنت ألسنتهم
عن الدوران في أفواههم وإن كانت أفكارهم جميعاً قد اتجهت إلى الفتى المريض
في يثرب ، وإن كانت قلوبهم مفعمة بالرحمة والإشفاق .

ونسى أبو لهب لما سمع بمرض عبد الله خمر الشام وسمّر الليل وما راوده من
أحلام المترفين الغارقين حتى الذقون في الشهوات ، فأبو لهب يحب عبد الله
ويحس راحة تغمره كلما جلس إليه وناجاه ، فقد كان في عبد الله شيء غامض
مثير يجذب إليه النفوس والأرواح .

ورأت جارية عبد الله الحبشية شيخ قريش وولده قادمين ففترست فيهم
لعلها ترى عبد الله ولكنها لم تجده بينهم ، فقالت في صوت خافت :
— سيدى عبد المطلب قادم .

ونظرت آمنة وقد أشدت وجيب قلبها وراح صدرها يعلو ويهبط في
اضطراب . وتدفقت مشاعر متباينة إلى جوفها حتى اختلط عليها أمرها
وأحست أنها تعيش لحظة حاسمة في حياتها ولفها خوف شديد لما تبينت أن
زوجها الحبيب لم يقبل مع القادمين .

ودخل عبد المطلب باسر الوجه وخلفه بنوه على وجوههم غبرة ، فما إن
رأتهم آمنة حتى بدا الهلع في وجهها وملاً الفزع عينها واستشعرت كأن

روحها تكاد أن تفر من فيها ، وقرأ عبد المطلب الرعب في محياها فقال في حنان :

— لا تراعى يا آمنة إنه بخير .

— أين عبد الله ؟

— عند أخواله في يثرب .

— ولماذا لم يعد مع العائدين ؟

فأطرق عبد المطلب وقال وهو يغالب دموعه :

— إنه مريض هناك .

وكأنما أراد أن يطمئن نفسه قبل أن يدخل الطمأنينة على قلبها :

— سيسافر الحارث إلى يثرب ليعود بأخيه .

فقال الزبير في انفعال :

— بل سأسافر أنا وأعود بعبد الله .

وشردت آمنة وساد المكان سكون ثقيل ، وانبعثت الضحكات من دور

مكة وخيم القلق والأسى والخوف من المجهول على دار عبد الله .

وفي الصباح كان عبد المطلب وبنوه يودعون الزبير وألسنتهم تلهج بذكر

عبد الله ، وقد فاضت عواطفهم حتى إن أحدهم كان يتحاشى أن تلتقى عيناه

بعيني صاحبه . وعلى البعد وقفت جارية فتى قريش ترصد ذلك الوداع ،

حتى إذا ما انطلق الزبير ورفقاؤه نحو الأفق عادت الجارية إلى سيدتها القلقة

الأرقة المنزعجة لتنبئها سفر الزبير وقرب عودته بأخيه بارئاً يملأ الدار حياة

وأملًا .

ومرت الأيام والزبير يغذ السير ليفر من وساوسه التي كانت تعذبه وتضنيه

وتلهب وجدانه بسوط عذاب ، فقد كانت مخاوفه تفتح في سريره بأن أخاه

(مولد الرسول)

وأنة سيجد عند بلوغه يثرب أنه قبر ، فكان الزبير يهز رأسه هزا عنيفا يريد أن يطرد ما احتله من رؤى مشثومة ، ولكن محاولاته كانت تذهب أدراج الرياح فقد كانت فكرة موت أخيه تلح عليه إلحاح الذباب كلما ذب آب .

وما أكثر ما أغمض عينيه حتى لا يرى صورة أخيه مسجى على فراش الموت ، ولكن الصورة ظلت واضحة في ضميره تزداد وضوحا كلما حاول أن يطمسها من وجدانه ، فقد أبت عين خياله أن تغمض عن المخاوف التي كانت تساوره في نهاره وتعذبه في منامه .

ودلف إلى يثرب من ثنيات الوداع ، وما إن اجتازها حتى رن في أغواره صوت بشع يردد : « ثنيات الوداع .. الوداع .. الوداع » وجاهد ليصم أذنيه عن نذير البين ولكن هيهات فقد صارت نفسه كقاعة يرن في جنباتها صوت خطيب مفوه لا حديث له إلا الوداع الذى لا لقاء بعده .

وانتهت عند دار بنى عدى بن النجار رحلة العذاب ، فما إن بلغ دار أخواله وسأل عن عبد الله وقيل له إنه بخير حتى تبخرت كل متاعبه وآلامه ؛ وراح يرقى الدرجات وقد نامت مخاوفه إلى حين وبدأ الأمل يزحف إلى صدره . ولكن ما إن دخل على أخيه ورآه ذابلا ذبول الموت حتى غاض تفاؤله وأحس وقدة نار في حلقه وأن الأرض تميد به وأنه يريد أن ينقض ، إلا أنه تمالك وانتزع بسمة رفت على شفثيه وإن كان قلبه يدمى في وجد :

— عبد الله .. عبد الله .

وخيل لعبد الله أن صوت أخيه آت من واد سحيق وإن مس أذنيه مسارقيا عذبا ، وجاهد حتى فتح عينيه فرأى صورة الزبير تتراقص أمامه فأحس راحة في أعماقه وعجزت أساريه عن أن تعبر عن الفرحة التي انتشرت بين

ضلوعه . ومد يدا ضعيفة واهنة إلى الزبير فاحتواها الزبير بين يديه وهو يتسم ، وإن كانت الخناجر تطعن فؤاده ، وتمزق أحشائه .

وراح الزبير يروى لأخيه أبناء آمنة وأخبار عبد المطلب ولهفة إخوته على عودته وعبد الله يصغى وقد لاح في وجهه الأسى والوجد حتى نال منه التعب فأسبل عينيه وراح في سبات ، فانسل الزبير من الغرفة وذهب بعيدا ليجهش بالبكاء .

ومرت أيام والزبير إلى جوار أخيه يحاول أن ينفث فيه الأمل بأحداثه الطلية عن آمنة وعن ابنها الذي حملت به ، وعن رغبة آمنة في عودته ليشهد ابنه الحبيب ، ولكن عبد الله كان يعانى من سكرات الموت . وبينما كان يجود بآخر أنفاسه سمع صوت آمنة كالطينين تقول : « بينما كنت بين اليقظة والنام سمعت هاتفائى : إنك حملت بسيد هذه الأمة » ، فرفت بسمة على شفتى عبد الله ثم سكنت حركته إلى الأبد .

وجhez عبد الله وحمل على الأعناق ، وسار الزبير خلف نعش أخيه وهو واله حزين ، لا يرقأ له دمع ، فقد مات فتى قريش غريبا فى يثرب كما مات سادة قريش غرباء فى الأرض ولم يجد عبد الله من يندبه ، ولو مات فى مكة لوقفت النائحات على رعوس الجبال يندبن ابن عبد المطلب .

وقبر عبد الله فى دار التابعة أحد بنى عدى بن النجار وصار الفتى فى الغابرين ، ثم عاد الزبير مهيبض الجناح كسير القلب إلى راحلته ، وانطلق إلى مكة يحمل إليها أسوأ خبر منذ عاد الناعون نبأ هلاك هاشم بن عبد مناف . وفى الطريق راح الزبير يسأل نفسه : فىم كان الفداء إذا كان الموت قد كتب على عبد الله ؟ لو أن عبد المطلب ذبح حبيبه بيده قربانا إلى إلهه لوجد فى الوفاء بنذره بعض العزاء . أما وقد رضى إلهه بنحر مائة من الإبل عوضا

عن عبد الله فلم اغتال الفتى بعد الفداء ؟

ورأى نفسه يعنى عبد الله إلى عبد المطلب فأحس غثيانا وبالأرض تدور به وأنه يوشك أن ينهار . وراحت القافلة الصغيرة تسير هونا لم يرتفع فيها صوت الحادى وقد أطرقت الإبل برعوسها كأنما كانت تحس فداحة الخسارة التى منيت بها قريش .

ورأى الزبير جبال مكة العالية فلم يتهلل بالفرح كما اعتاد أن يفرح كلما وقعت عليها عيناه ، بل انقبض صدره وأسف على انتهاء الرحلة التى ود أن تطول إلى الأبد حتى لا يعنى إلى عبد المطلب أحب ولده إلى قلبه .

وحطت الإبل بفناء الكعبة ونزل الزبير عن راحلته وذهب مطأطئ الرأس إلى حيث يجلس عبد المطلب وأبناءؤه وندماؤه . ورأى عبد المطلب الزبير وهو قادم وحده فى وجهه أعمق الأسى فاشتد وجيب قلبه وعرف فى لحظة كل المأساة . ورأى الإخوة أحاهم الزبير فهرعوا إليه مفزوعين قائلين :

— أين عبد الله ؟

وملأت الدموع عيني الزبير وقال فى صوت حزين وقد نكس رأسه :

— مات .

وسار الشيخ وقد انحنى ظهره بين أبنائه يكاد ينوء من الحزن وقد نزل بقلوبهم هم ثقيل ، وانطلق الجميع إلى بيت آمنة ليواسوها فى أفدح نكبة تنزل بامرأة ، وما إن دخلوا عليها حتى فهمت كل شىء فانهارت الدموع من عينيها وراحت تندب الزوج والحبيب ، وانتبذت مكانا قصيا وراحت تقول :

عفا جانب البطحاء من زين هاشم

وجاور لحدا خارجا فى الغماغم

دعته المنايا دعوة فأجابها
وما تركت في الناس مثل ابن هاشم
عشية راحوا يحملون سريره
تعاوره أصحابه في التراحم
فإن تك غالته المنون وريُّها
فقد كان معطاء كثير التراحم

وذاع في مكة خبر موت عبد الله فسكتت القيان عن الغناء وساد الوجوم
ولبست المدينة المقدسة على فتاها الذبيح ثوب الحداد ، وراح الناس يتساءلون
في عجب كإتساءل من قبل الزبير بن عبد المطلب : وفيم كان الفداء ؟ ولم
يفطن في مكة كلها إلى حكمة الفداء غير رقيقة بنت نوفل فقد قالت في نفسها
أو في عبد الله غايته من الحياة بعد أن فداه الله بمائة من الإبل ودخل على آمنة بنت
وهب وأودعها ما كان يتألق في وجهه من سحر ونور .

تجهز جيش أبرهة لغزو الحجاز ليتصل نصارى الحبشة واليمن بنصارى الشام والقسطنطينية ولينطلق الجميع إلى أرض فارس لوضع حد للحروب الناشبة بين الشرق والغرب ، بين المجوسية والمسيحية ، ليرفرف الصليب على وجه الأرمس ، ولتدين البشرية بدين اختلف أهله وانقسموا إلى طوائف وفرق .

وجاء أبرهة بفيل من الحبشة امتطاه وسار به على رأس جيشه ، وذاع بين العرب أن جيش أبرهة ما خرج من اليمن إلا ليهدم الكعبة ليجذب العرب إلى كنيسته وليفرض عليهم النصرانية وليؤدبهم جزاء وفاقا على انتهاك بعضهم حرمة كنيسته وتلطيحها بالدنس ، ولم يفتن العرب إلى الغرض السياسى الذى كان يريد تحقيقه فرأوا جهاده حقا عليهم .

ودعا ذو نفر رجالا من اليمن وكان من ملوكهم وأشرفهم ، فخف إلى قومه ومن أجا به من العرب وسار بهم لحرب أبرهة وصدده عن البيت المقدس الذى جعله الله مثابة وأمنا .

والتقى جيش أبرهة برجال ذى نفر ودار بين الجانبين قتال استبسل فيه اليمنيون ومن استجاب لندائهم من سائر العرب ، ثم دارت الدائرة على اليمنيين وحاقت بهم الهزيمة وسقط ذو نفر أسيرا فى يد جنود أبرهة .

وأتى به أسيرا إلى أبرهة فجعل يرميه بنظرات غاضبة ثم أمر بقتله ، فقال له

ذو نفر :

— أيها الملك لا تقتلني فإنه عسى أن يكون بقاى معك خيرا لك من قتلى .
فأمر أبرهة أن يجسوه عنده في وثاق ، ثم انطلق في أرض العرب حتى إذا
كان بأرض حَثْعَم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمي في قبيلتي حثعم شهران
وناهس ومن تبعه من قبائل العرب .

كان نفيل والذين معه أذل من أن يصدوا زحف جيش الفيل ولكنهم وقفوا
في وجهه وقد شهروا سيوفهم وحاربوا عن بيتهم المقدس في شجاعة ، وسقط
الرجال قتلى يغطون أرض المعركة ولم يولوا الأدبار ولم يزولوا عن مواقعهم ،
حتى سقط نفيل أسيرا في أيدي جنود أبرهة .

وسيق نفيل إلى حيث كان الملك فراح أبرهة يرميه بنظرات حامية ، ثم أمر
بقتله فقال له نفيل :

— أيها الملك لا تقتلني ، فإنى دليلك بأرض العرب .

فخلى سبيله وخرج معه يدله . وبلغت الأنباء الطائف أن جيش أبرهة يدنو
وأنة ما خرج إلا ليهدم الكعبة ، فدخل الناس إلى معبد اللات وأطلقوا البخور
ونحروا القرابين وسألوا آلهتهم أن ترفع عنهم غضب أبرهة ومقتة .

ومر أبرهة بالطائف فخرج إليه مسعود بن مالك بن كعب بن عمرو بن
سعد بن عوف بن ثقيف فقالوا له :

— أيها الملك إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ، ليس عندنا لك
خلاف وليس بيتنا هذا الذى تريد ، إنما تريد البيت الذى بمكة ونحن نبعث
معك مندلك عليه .

وفرت سقيف إلى لاها بمنقلب الخائب الخاسر

وتجاوز أبرهة عنهم فبعثوا معه أبا رغال يدله على الطريق إلى مكة .

وخرج أبرهة ومعه أبو رغال وقد امتلأ أبرهة غرورا فما استطاع أحد أن يصمد في وجهه وإن القبائل ترتجف منه فرقا وطمأ منه رعبا إذا ما عاينت جيشه ورأته على رأس فيله شامخا بأنفه . ووقر في وجدانه أن ليس في الأرض ولا في السماء من قوة تحول بينه وبين هدم بين العرب والزحف إلى الشام ليلتقى نصارى الجنوب بنصارى الشمال .

وخطر على رأسه أنها وثبة واحدة ثم ينقطع آخر خيط يشد العرب بعضهم إلى بعض ، وثبة واحدة ثم تتفرق كلمة العرب إلى الأبد ، فذلك البيت هو الخطر الذى قد تتجمع حوله قبائل العرب المتنافرة المتباغضة المتقاتلة يوما ما إذا وجدت الزعيم الحانى الذى يؤلف بين قلوبهم ويجمعهم بين ذراعيه كما تجمع الدجاجة أفرانها تحت جناحها .

وخرج أبرهة ومعه أبو رغال يدلّه على الطريق ، ولم يحاول أبو رغال أن يضلّل جيش أبرهة كما فعل صالح يوم أن كان دليلا لجيش أوليوس غالوس ، بل سار بأبرهة على الطريق حتى أنزله المغمّس على طريق الطائف ومكة . وعسكر أبرهة وراح يتأهب للوثبة الفاصلة . إنه يرى جبل أنى قبيس والأخشبين جبلى مكة وإن هى إلا زحفة واحدة ويسوى بالأرض بيت العرب المقدس . وفيما هو عاكف على رسم خططه جاءه من قال له : إن أبا رغال قد مات .

وقبر أبو رغال فى المغمّس ، وبعث أبرهة إلى الأسود بن مقصود وكان رجلا من الحبشة وأمره أن يغير على تهامة ليجس نبض المكين ويعرف مقدار استعدادهم .

وأغار الأسود بن مقصود ومن معه من الفرسان على تهامة فأصاب مائتى بعير لعبد المطلب ، وساق أمامه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم . وبلغ

ذلك قريش فاجتمعت كنانة وهذيل ومن كلان بالحزم وعقدوا العزم على قتال من ارتكب إثم الإغارة على الأموال والإبل التي ترعى في حماية البيت المحرم . وصعد الرجال على الجبال ونظروا فإذا بجيش أبرهة يغطى وجه الأرض : خيل وإبل وبعير وفيل عظيم لم يسبق لهم أن رأوا مثله على رأس جيش وجنود لا قبل لهم بها ، فعرفوا أنهم لا طاقة لهم بقتال هؤلاء القوم فأعرضوا عن فكرة القتال وانتظروا ما يسفر عنه الغد .

وجاء حنيفة الحميرى إلى مكة وقال :

— أين سيد أهل هذا البلد وشريفها ؟

— ماذا تريد منه ؟

— أنا رسول الملك أبرهة إليه .

كان عبد المطلب جالسا على فراشه في ظل الكعبة ومن حوله سادات قريش وأبنائهم وندماؤه فأشير إليه ، وقيل لرسول أبرهة :

— إنه هناك .

وذهب حنيفة الحميرى إلى حيث يجلس عبد المطلب . كان وحده على فراشه أبيض حسن الوجه في جبينه عز الملك ، فنظر إليه حنيفة برهة ثم قال :

— إن الملك يقول لك إنى لم آت لحربكم إنما جئت لهدم هذا البيت ، فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لى في دمائكم .

فالتفت عبد المطلب إلى من عنده ثم قال :

— والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة . هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم عليه السلام فإن يمنعنا منه فهو بيته وحرمة ، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه .

فقال حنيفة وهو لا يكاد يصدق أذنيه :

— فانطلق معي إليه فإنه قد أمرني أن آتية بك .

فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه ، وفي الطريق علم به عبد المطلب أن صديقه ذا نفر وقع أسيراً في يد أبرهة وأنه قد حبس عنده ، فلما أتى العسكر سأل عن ذى نفر ودخل عليه وهو في محبسه فقال له :

— يا ذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا ؟

فقال ذو نفر وهو يطرق برأسه :

— وما غناء رجل أسير بيدي ملك ينتظر أن يقتله غدوًا أو عشياً .

وما عندي غناء في شيء مما نزل بك إلا أن أنيسا سائس الفيل صديق لى وسأرسل إليه فأوصيه بك وأعظم عليه حقتك أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما بدا لك ويشفع لك بخير إن قدر على ذلك .

— حسبي .

فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له :

— إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين مكة يطعم الناس بالسهل

والوحوش في رعوس الجبال ، وقد أصاب له الملك مائتي بعير فاستأذن له عليه وانفعه بما استطعت .

— أفعل .

فكلم أنيس أبرهة فقال له :

— أيها الملك هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك ، وهو صاحب عين

مكة ، وهو يطعم الناس في السهل والوحوش في رعوس الجبال ، فأذن له عليك فليكلمك في حاجته .

فاعتدل أبرهة على سرير ملكه وقال :

— فليدخل .

ودخل عبد المطلب مديد القامة فخما ، فقد كان أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم . فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه وأكرمه عن أن يجلس على سرير ملكه ، فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه ثم قال لترجمانه .

— قل له ما حاجتك ؟

فقال له ذلك الترجمان فقال :

— حاجتي أن يردّ على الملك مائتي بعير أصابها لي .

فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه :

— قل له قد كنت أعجبتني حين رأيتك ، ثم زهدت فيك حين كلمتني .

أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لا تكلمني فيه .

— أنا رب الأبل وإن للبيت رباً سيمنعه .

— ما كان ليمنع مني .

— أنت وذاك .

ودخل يعمر بن نفثة بن عدى سيد بني بكر وينتهي نسبه إلى كنانة ، وخويلد بن وائلة الهذليّ سيد هذيل ، وانضموا إلى عبد المطلب وقالوا :

— لك ثلث أموال تهامة على أن ترجع عنا ولا تهدم البيت .

وأبى أبرهة عليهم وأمر أن يرد على عبد المطلب الإبل التي أصاب له ، فعاد عبد المطلب بالإبل ونحرها جميعا قربانا لله ، وأخبر قريش الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في رءوس الجبال والشعاب تخوفا عليهم من معرفة الجيش .

وراح المكيون رجالا ونساء وولدانا وشيئا يرقون في الجبال ، وخرجت
آمنة بنت وهب وهالة بنت وهيب فيمن خرج من النساء . ووقفت آمنة على
جبل قبيس تنظر ولم ترتجف فرقا بل طاف بها آمن وسلام .

ومس أذنيها ذلك الصوت الرقيق الذي هتف بها يوما مذ سبعة أشهر
مضت : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فراحت الأفكار تدور في رأسها :
أتكون للعرب أمة إذا هدم بيتها ؟ قلبها يقول لها إن الله سيحمي بيته وإلا كان
ذلك الهاتف بها وهما من الأوهام .

وذهب عبد المطلب إلى الكعبة وأخذ بحلقة بابها وقام معه نفر من قريش
يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده ، فقال عبد المطلب :

لا هـم	إن المرء يم	نع رحله فامنع رحالك
لا يغلبن	صلبيهم	ومحالمهم أبـدا محالك
إن كنت	تاركهم وكعـ	بتنا فأمرنا ما بدالك
فكـن	فعلت فإنه	أمر يتمُّ به فعالك
اسمع	بأرجس ما أرا	دوه وانتـهكوا حلالك
جروا	جميع بلادهم	والفيل كى يسبوا عيالك
عمدوا	حماك بكيدهم	جهلا وما رقبوا جلالك

ثم أرسل عبد المطلب حلقة الباب وانطلق هو ومن معه من قريش إلى رءوس
الجبال . وذهب عبد المطلب إلى حيث كانت آمنة وهالة ووقفوا ينتظرون ما
فعل أبرهة بمكة إذا دخلها .

وشخصت الأبصار إلى السماء ، نسى الناس في شدتهم هبل واللات
والعزى ومناة والأصنام المكدسة في جوف الكعبة واتجهوا دون وساطة إلى

رب السماء والأرض رب العالمين ، وراحوا ييتهلون إلى الله أن يصونهم وأن يبعد عنهم معرفة جيش أبرهة ، وراحت آمنة تدعو الله ليحمي بيته ويخفر المعتدين .

وأصبح الصباح وتهاياً أبرهة لدخول مكة وهياً فيله وعباً جيشه ولم يبق إلا وثبة واحدة ثم ينهار البيت وينفتح الطريق إلى الشام ويتحقق حلم قيصر .
وجاء نفيل بن حبيب الخثعمي حتى جاء إلى جنب الفيل ثم أخذ بأذنه فقال :

— ارجع راشدا من حيث جئت فإنك في بلد الله الحرام . ارجع راشدا من حيث جئت فإنك في بلد الله الحرام .

ثم أرسل أذنه وخرج يشتد حتى أصدع في الجبل .
وأمر أبرهة بالتقدم وسحب أنيس الفيل ولكن الفيل أوى أن يتقدم .
فضربوا رأسه بالفأس ليتقدم فأوى . فأدخلوا خشية بها اعوجاج في بطنه فأدموه بها فأوى أن يتقدم . فوجهوه راجعا إلى اليمن فراح يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى مكة فوقف في مكانه لا يريم .
وأرسل الله عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، فإذا بها تجدرهم جدرا . وتفشى الجدري في عسكر أبرهة فراح أبرهة يسأل :

— أين نفيل بن حبيب ليدلنا على الطريق ؟

وارتفعت أصوات تنادى نفيل بن حبيب فقال نفيل :

أين المفر والإله الطالب والأشرم المغلوب ليس الغالب .
وخرج الأحباش يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك على كل منهل .
وأصيب أبرهة في جسده وعاد يجر جر أذيال الإخفاق وقد أصبح كل أملة أن يصل إلى صنعاء قبل أن يلفظ أنفاسه في الطريق ، بعد أن كان يقول وهو

منتفخ الأوداج ليس في الأرض ولا في السماء قوة تمنعني من هدم البيت .

ورأى الناس وهم في رعوس الجبال أن الله قد حبس أبرهة وجيشه عن بيته وأنه قد هزم أعداءه وحده ، فارتفعت الابتهالات بالشكر حتى بلغت عنان السماء ، وعادت النسوة آمنات فرحات إلى دورهن فلم تلحقهن معرة جيش أبرهة ، وعادت آمنة إلى دارها وقد أيقنت أن الهاتف الذي هتف بها أنها حملت بسيد هذه الأمة حق ، فقد حمى الله بيته لأمر ذى بال ، وقد أصبحت تحس في وجدانها أن الله قد منع بيته ببركة ذلك الذي في بطنها .

وخرج رجال قريش في إثر فلول جيش أبرهة ينظرون ، فرأوا الأحباش يترنحون ويسقطون كأنهم أعجاز نخل خاوية وقد غطت جثتهم وجه الأرض ، وظلوا منطلقين فرحين حتى بلغوا المغمس ، ورأوا قبر أبنى رغال الذي كان دليل أبرهة إلى البيت فراحوا يرمون القبر بالحجارة ويلعنون الخائن الأثيم .

وتهلل عبد المطلب بالفرح وفاضت عواطفه فقال :

أيها الداعى لقد أسمعتنى	ثم ما بى عن نداكم من صمم
إن للبيت لربا مانعا	من يرده بأثام يصطلم
رامه تبع فيمن جندت	حمير والحى من آل قدم
فانثنى عنه وفي أوداجه	جارح أمسك منه بالكظم
قلت والأشرم تردى خيله	إن ذا الأشرم غر بالحرم

وذاع في قبائل العرب أن الله رد الحبشة عن مكة وأصابهم بما أصاب به من

النقمة فأعظمت العرب قريشا وقالوا :

— أهل الله قاتل الله عنهم وكفاهم مؤنة عدوهم .

« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم في تضليل .

وأرسل عليهم طيرا أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف

مأكول . »

كان كسرى أنوشروان في إيوانه يفكر في مكة فخطرت الحيرة على ذهنه فلم يعد عليها أحد من آل المنذر ، فقد ملك كسرى بن قبيصة الطائي عليها إلى أن يرى رأيهم فمكث مملكا عليها أشهرا ، ولم يجد كسرى أحدا يرضاه فقال : — لأبعثن إلى الحيرة اثني عشر ألفا من الأساورة ، ولأملكن عليهم رجلا من الفرس ، ولأمرتهم أن ينزلوا على العرب في دروهم ويملكوا عليهم أموالهم ونساءهم .

وكان عدى بن زيد واقفا بين يديه فأقبل عليه وقال :

— ويحك يا عدى ! من بقى من آل المنذر ؟ وهل فيهم أحد فيه خير ؟

— نعم أيها الملك السعيد إن في ولد المنذر لبقية ، وفيهم كلهم خير .

— ابعث إليهم فأحضرهم .

فبعث عدى إليهم فأحضرهم وأنزلهم جميعا عنده ، ثم بعث إلى النعمان

وكان قد تزوج هنداً ابنته وقال له :

— لست أملك غيرك فلا يوحشك ما أفضل به إخوتك عليك من

الكرامة ، فإني إنما أغترهم بذلك .

وراح يفضل إخوته جميعا عليه في النزول والإكرام والملازمة ويريهم تنقضا

للنعمان ، وأنه غير طامع في تمام أمر على يده ، وجعل يخلو بهم رجلا رجلا

فيقول :

— إذا أدخلتكم على الملك فالبسوا أفخر ثيابكم وأجملها ، وإذا دعا لكم

بالطعام لتأكلوا فتباطئوا في الأكل وصغروا اللقم ونزروا ما تأكلون ، فإذا قال لكم : أتكفونني العرب ؟ فقولوا : نعم . فإذا قال لكم : فإن شذ أحدكم عن الطاعة وأفسد أتكفونيه ؟ فقولوا : لا . إن بعضنا لا يقدر على بعض ، ليهابكم ولا يطمع في تفرقكم ، ويعلم أن للعرب منعة وبأسا .

فقبلوا منه ، وخلا بالنعمان فقال له :

— البس ثياب السفر وادخل متقلدا سيفك ، وإذا جلست للأكل فعظم اللقم وأسرع المضغ والبلع وزد في الأكل وتجوع قبل ذلك ، فإن كسرى يعجبه كثرة الأكل من العرب خاصة ، ويرى أن لا خير في العربى إذا لم يكن أكولا شرها ولا سيما إذا رأى غير طعامه وما لا عهد له بمثله ، وإذا سألك هل تكفينى العرب ؟ فقل : نعم . فإذا قال لك : فمن لى بإخوتك ؟ فقل له : إن عجزت فإنى عن غيرهم لأعجز .

وجاء بنو مرينا إلى الأسود بن المنذر وكانوا قد أرضعوه فيهم وربوه ، وخلا به عدى بن مرينا فسأله عما أوصاه به عدى فأخبره ، فقال :

— غشك والصليب والممودية وما نصحك . ولئن أطعنتى لتخالفن كل ما أمرك به وتملكن ، ولئن عصيتنى ليملكن النعمان ، ولا يغرنك ما أراكه من الإكرام والتفضيل على النعمان فإن ذلك دهاء فيه ومكر ، وإن هذه المعديّة لا تخلو من مكر وحيلة .

— إن عديا لم يألئى نصحا وهو أعلم بكسرى منك ، وإن خالفته أوحشته وأفسد على ، وهو جاء بنا ووصفنا وإلى قوله يرجع كسرى . وراح الرجل ييذل للأسود النصيحة والأسود معرض عنه ، فلما أيس من قبوله منه قال :

— ستعلم .

ودعا بهم كسرى فلما دخلوا عليه أعجبه جمالهم وكألهم ، ورأى رجالا
قلما رأى مثلهم ، فدعاهم بالطعام ففعلوا ما أمرهم به عدى ، فجعل ينظر إلى
النعمان من بينهم ويتأمل أكله ، فقال لعدى بالفارسية :

— إن يكن في أحدهم خير ففى هذا .

فلما غسلوا أيديهم راح يوعد بهم رجلا رجلا فيقول له :

— أتكفينى العرب ؟

— نعم أكفيكها كلها إلا إخوتى .

ودخل النعمان آخر من دخل عليه وهو فى ثياب السفر متقلدا سيفه ، فراح
كسرى يرنو إليه فى إعجاب وإن كان أحمر أبرش قصيرا ولم يكن فى مثل جمال
إخوته « الأشاهب » ، وإن كانت أمه يهودية من أهل فدىك ، فما كان الفرس
يضطهدون اليهود كما يفعل الروم ، ثم قال له :

— أتكفينى العرب ؟

— نعم .

— فكيف لى بإخوتك .

— إن عجزت عنهم فأنا عن غيرهم أعجز .

فملكه كسرى على الحيرة وخلع عليه وألبسه تاجا قيمته ستون ألف درهم
فيه اللؤلؤ والذهب .

فلما خرج وقد ملأ قال عدى بن مرينا للأسود :

— دونك عقبى خلافتك لى .

وخشى عدى بن زيد مكر عدى بن مرينا ، فصنع عدى بن زيد طعاما
وأرسل إلى ابن مرينا أن اتنى بمن أحببت فإن لى حاجة .

فأتى ابن مرينا فى ناس فتعدوا ، فقال عدى بن زيد لابن مرينا :

— يا عدى إن أحق من عرف الحق ثم لم يلزم عليه من كان مثلك ، وإنى قد
عرفت أن صاحبك الأسود بن المنذر كان أحب إليك أن يُملك من صاحبي
النعمان ، فلا تلمنى على شيء كنت على مثله ، وأنا أحب ألا تحقد على شيئا لو
قدرت عليه ركبته . وأنا أحب أن تعطيني من نفسك ما أعطيك من نفسي
فإن نصيبى فى هذا الأمر ليس بأوفر من نصيبك .

وقام فحلف ألا يهجوهُ أبدا ولا يغيه غائلة ولا يزوى عنه خيرا أبدا ، فلما
فرغ عدى بن زيد قام عدى بن مرينا فحلف بمثل يمينه وإن كان قلبه لم يصفح
أبدا .

وخرج النعمان حتى نزل الحيرة ودخل قصير الخورنق ، فقال عدى بن
مرينا لعدى بن زيد :

ألا بلغ عديا عن عدى
فلا تجزع وإن رثت (ضعفت) قواكا
هياكلنا تبرك غير فقير
لتحمدا أو يتم بها غناكا
فإن تظفر فلم تظفر حميدا
وإن تعطب فلا يبعد سواكا
ندمت ندامة الكسعى^(١) لما
رأت عيناك ما صنعت يداكا
وعاد عدى بن مرينا والأسود إلى الحيرة فقال ابن مرينا للأسود :

(١) الكسعى نسبة إلى كسع حى من قيس عيلان وهو رجل رام رمى بعد ما أظلم
الليل عيرا فأصابه وظن أنه أخطأه فكسر قوسه ، ثم ندم من الغد حين نظر إلى العير مقتولا
وسهمه فيه .

— أما إذا لم تظفر فلا تعجزن أن تطلب بثأرك من هذا المعدى الذى فعل بك ما فعل ، فقد كنت أخبرتك أن معدًا لا ينام كيدها ومكرها وأمرتك أن تعصيه فخالفتنى .

— فما تريد ؟

— أريد ألا تأتيك فائدة من مالك وأرضك إلا عرضتها على .

كان ابن مرينا كثير المال والضيعة وقد عزم أن يستخدم ماله ومال الأسود وبنى المنذر فى القضاء على عدى بن زيد الذى أطار الملك من يد من أرضعوه وربوه ، فلم يكن فى الدهر يوم يأتى إلا على باب النعمان هدية من ابن مرينا ، فصار من أكرم الناس عليه حتى كان لا يقضى فى ملكه شيئًا إلا بأمر ابن مرينا .

وكان عدى بن زيد يترك قصر كسرى ويخرج من المدائن إلى الحيرة للصيد مع النعمان . وفى ذات يوم خرج عدى مع النعمان وخدمه وحشمه فمروا بشجرة فقال له عدى :

— أيها الملك أتدرى ما تقول هذه الشجرة ؟

— لا .

— تقول :

رب ركب قد أناخوا عندنا يشربون الخمر بالماء الزلال
عصف الدهر بهم فانقرضوا وكذاك الدهر حالا بعد حال

ثم جاوزوا الشجرة فمر بمقبرة ، فقال له عدى :

— أيها الملك أتدرى ما تقول هذه المقبرة ؟

— لا .

— تقول :

أيها الـركب المـخبو ن على الأرض المـجدون

فكمـا أنتم كنـا وكما نحن تكـونون

— إن الشجرة والمقبرة لا يتكلمان ، وقد علمت أنك إنما أردت عظتي .

فما السبيل التي تدرك بها النجاة ؟

— تدع عبادة الأوثان وتعبد الله ، وتدين بدين المسيح عيسى بن مريم .

— أو في هذا النجاة ؟

— نعم .

وذهب النعمان إلى المدائن يحمل الخراج لكسرى ، فلما دخل عليه وجد عنده وفود الروم والهند والصين وقد أخذ كل وفد يذكر في فخر ملوكهم وبلادهم ، فالتفت كسرى إلى النعمان وقد أخذته عزة الملك :

— يا نعمان لقد تذكرت في أمر العرب وغيرهم من الأمم ، ونظرت في

حال من يقدم عليّ من وفود الأمم فوجدت الروم لها حظ في اجتماع ألفتها وعظم سلطانها وكثرة مدائنها ووثيق بنيانها ، وأن لها ديناً يبين حلالها وحرامها ويرد سفيتها ويقيم جاهلها ؛ ورأيت الهند نحواً من ذلك في حكمتها وطبعها ، مع كثرة أنهار بلادهم وثمارها وعجيب صناعاتها وطيب أشجارها ودقيق حسابها وكثرة عددها .

وكذلك الصين في اجتماعها وكثرة صناعات أيديها وفروسيتها وهمتها في آلة الحرب وصناعة الحديد ، وأن لها ملكاً يجمعها ؛ والترك والخزر على ما بهم من سوء الحال وقلة الريف والثمار والحصون وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس ، لهم ملوك تضم قواصيمهم وتدير أمرهم . ولم أر للعرب شيئاً من خصال الخير من أمر دين ولا دنيا ولا حزم ولا قوة .

ومع أن ما يدل على مهانتها وذلها وصغر همتها محلتهم التي هم بها مع

الوحوش النافرة والطيور الجائرة ، يقتلون أولادهم من الفاقة ، ويأكل بعضهم بعضا من الحاجة ، قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها وهوها ولذاتها ، فأفضل طعام ظفر به ناعمهم لحوم الإبل التي يعافها كثير من السباع لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها . وإن قرى أحدهم ضيفا عدها مكرومة ، وإن أطمع أكلة عدها غنيمة ، تنطق بذلك أشعارهم وتفتخر بذلك رجالهم ، ما خلا هذه التنوخية التي أسس جدى اجتماعها وشد مملكتها ومنعها من عدوها . ثم لا أراكم تستكثنون على ما بكم من الذلة والقلة والفاقة والبؤس ، حتى تفتخروا وتريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس .

وأحس النعمان مهانة ، ورأى أن يرد على كسرى وأن يلقيه حجرا وليكن ما يكون ، فقال :

— أصلح الله الملك ، حق لأمة الملك منها أن يسمو فضلها ويعظم حظها وتعلو درجتها ، إلا أن عندي جوابا في كل ما نطق به الملك في غير رد عليه ولا تكذيب له ، فإن أمننى من غضبه نطقت به .
— قل فأنت آمن .

— أما أمتك أيها الملك فليست تنازع في الفضل لموضعها الذى هى به من عقولها وأحلامها وبسطة محلها وبجوحة عزها وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك . وأما الأمم التي ذكرت فأى أمة نقرنها بالعرب إلا فضلتها .
بماذا ؟

— بعزها ومنعتها وحسن وجوها وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها وشدة عقولها وأنفتها ووفائها .

وأما عزها ومنعتها فإنها لم تنزل مجاورة لآبائك الذين دوخوا البلاد ووطدوا الملك وقادوا الجند لم يطمع فيهم طامع ولا ينلهم نائل ، حصونهم ظهور خيلهم

ومهادهم الأرض وسقوفهم السماء وجنتهم السيوف وعدتهم الصبر ، إذ غيرها من الأمم إنما عزها الحجارة والطين وجزائر البحور .

وأما حسن وجوهها وألوانها فقد يعرف فضلهم في ذلك على غيرهم ، من الهند المنحرفة والصين المنحفة والترک المشوهة والروم المقشرة .

وأما أنسابها وأحسابها فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأصولها وكثيرا من أولها ، حتى أن أحدهم ليسأل عمن وراء أبيه دنيا فلا ينسبه ولا يعرفه ، وليس أحد من العرب إلا يسمى آباءه أبا فابا أحاطوا بذلك أحسابهم وحفوا به أنسابهم ، فلا يدخل رجل في غير قومه ولا ينتسب إلى غير نسبه ولا يدعى إلى غير أبيه .

وأما سخاؤها فإن أدنانهم رجلا الذي تكون عنده البكرة والتاب عليها بلاغه في حموله وشبعه وربيه ، فيطرقة الطارق الذي يكفى بالفلذة ويجترى بالشربة ، فيعقرها له ويرضى له أن يخرج عن دنياه كلها فيما يكسبه حسن الأحدثة وطيب الذكر .

وأما حكمة ألسنتهم فإن الله أعطاهم في أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه مع معرفتهم بالأشياء وضريرهم للأمثال وإبلاغهم في الصفات ما ليس لشيء من السنة الأجناس . ثم خيلهم أفضل الخيل ، ونساؤهم أعف النساء ، ولباسهم أفضل اللباس ، ومعادنهم الذهب والفضة ، وحجارة جبالهم الجزع ، ومطاياهم التي لا يبلغ على مثلها سفن ولا يقطع بمثلها بلد قفر .

وأما دينها وشريعتها فإنهم متمسكون به حتى يبلغ أحدهم من تمسكه بدينه أن لهم أشهراً حرماً وبلداً محرماً وبيتاً محجوجاً ينسكون فيه مناسكهم ويذبحون فيه ذبائحهم ، فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه وهو قادر على أخذ ثأره وإدراك

رغمه منه فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله بأذى .

وأما وفاؤها فإن أحدهم يلحظ اللحظة ويومئ الإيماء فهسى وكث (عهد) وعقدة لا يخلها إلا خروج نفسه ، وإن أحدهم يرفع عودا من الأرض فيكون رهنا بدينه فلا يعلق ولا تُخفر ذمته ، وإن أحدهم ليلبغ أن رجلا استجار به وعسى أن يكون نائيا عن داره فيصاب فلا يرضى حتى يفنى تلك القبيلة التي أصابته أو تفنى قبيلته لما أخفر (غدر) من جوار ، وإنه ليلجأ إليهم المخرم المحدث من غير معرفة ولا قرابة فتكون أنفسهم دون نفسه وأموالهم دون ماله .

وأما قولك : إن أفضل طعامهم لحوم الإبل على ما وصفت منها ، فما تركوا ما دونها إلا احتقاراله ، فعمدوا إلى أجلها وأفضلها فكانت مراكبهم وطعامهم ، مع أنها أكثر البهائم شحوما وأطيبها لحوما وأرقها ألبانا وأقلها غائلة وأحلاها مضغة ، وإنه لا شيء من اللحمان يعالج ما يعالج به لحمها إلا استبان فضلها عليه .

وأما تجاربهم وأكل بعضهم بعضا وتركهم الأنقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم إذا أنست من نفسها ضعفا وتخوفت نهوض عدوها إليها بالزحف وإنه إنما يكون في المملكة العظيمة أهل بيت واحد يعرف فضلهم على سائر غيرهم فيلقون إليهم أمورهم وينقادون لهم بأزمتهم ، وأما العرب فإن ذلك كثير فيهم حتى حاولوا أن يكونوا ملوكا أجمعين ، مع أنفتهم من أداء الخراج والوظف (الأخذ منهم) بالعسف .
وعجب كسرى لما أجابه النعمان به وقال :

— إنك لأهل لموضعك من الرياسة في أهل إقليمك ولما هو أفضل .

ثم كساه كسوته وسرحه إلى موضعه بالحيرة ، فلما قدم النعمان الحيرة

وفي النفس ما فيها مما سمع من كسرى من تنقص العرب وتهجين أمرهم ، بعث
أكثم بن صيفى وحاجب ابن زرارة التميميين ، وإلى الحارث بن ظالم وقيس بن
مسعود البكريين ، وإلى خالد بن جعفر وعلقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل ،
وإلى عمرو بن الشريد السلمى وعمرو بن معد يكرب الزبيدى ، والحارث بن
ظالم المرى ، فلما قدموا عليه فى الخورنق قال لهم :

— قد عرفتم هذه الأعاجم وقرب جوار العرب منها ، وقد سمعت من
كسرى مقالات تخوفت أن يكون لها غور ويكون إنما أظهرها لأمر أراد أن
يتخذ به العرب خوفا كبعض طماطمته (من فى لسانه عجمة) فى تأديتهم
الخراج إليه كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله .

فاقتصص عليهم مقالات كسرى وما رد عليهم فقالوا :

— أيها الملك وفقك الله ! ما أحسن ما رددت وأبلغ ما حججته به ، فمرنا
بأمرك وادعنا إلى ماشئت .

— إنما أنا رجل منكم وإنما ملكت وعززت بمكانكم وما يتخوف من
ناحيتكم ، وليس شئ أحب إلي مما سدد الله به أمركم وأصلح به شأنكم وأدام
به عزكم ، والرأى أن تسيروا بجماعتكم أيها الرهط وتنطلقوا إلى كسرى فإذا
دخلتم نطق كل رجل منكم بما حضره ليعلم أن العرب على غير ما ظن أو حدثته
نفسه ، ولا ينطق رجل منكم بما يغضبه فإنه ملك عظيم السلطان كثير
الأعوان مترف معجب بنفسه ، ولا تنخذلوا له انخذال الخاضع الذليل ،
وليكن أمر بين ذلك تظهر به وثاقة حلومكم وفضل منزلتكم وعظيم
أخطاركم . وليكن أول من يبدأ منكم بالكلام أكثم بن صيفى لسننى حاله ، ثم
تتابعوا على الأمر من منازلكم التى وضعت بها ، فإنما دعانى إلى التقدم إليكم
علمى بجميل كل رجل منكم على التقدم قبل صاحبه ، فلا يكونن ذلك منكم

فيجد في آدابكم مطعنا فإنه ملك قادر مسلط .

ثم دعا لهم بما في خزائنه من طرائف حلل الملك كل رجل منهم حلة وعمامة وختمه بياقوته ، وأمر لكل رجل منهم بنجبية مهرية وفرس نجبية ، وكتب معهم كتابا : « أما بعد ، فإن الملك ألقى إلى من أمر العرب ما قد علم ، وأجبتة بما قد فهم ، بما أحببت أن يكون منه على علم ولا يتلجلج في نفسه أن أمة من الأمم التي احتجزت دونه بمملكته وحملت ما يليها يفضل قوتها تبلغها في شيء من الأمور التي يتعزز بها ذوو الخزم والقوة والتدبير والمكيدة ، وقد أوفدت أيها الملك رهطا من العرب لهم فضل في أحسابهم وأنسابهم وعقولهم وآدابهم ، فليسمع الملك وليغامض عن جفاء إن ظهر من منطقتهم ، وليكرمهم بإكرامهم وتعجيل سراحهم ، وقد نسبتهم في أسفل كتابي إلى عشائرتهم .

فخرج القوم في أهبتهم حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن ، فدفعوا إليه كتاب النعمان فقرأه وأمر بإنزالهم ، إلى أن يجلس لهم مجلسا يسمع منهم . فلما أن كان بعد ذلك بأيام أمر مرزبته ووجوه أهل مملكته فحضروا وجلسوا على كراسي عن يمينه وشماله ، ثم دعا بهم على الولاء والمراتب التي وصفهم النعمان بها في كتابه ، وأقام الترجمان ليؤدى إليه كلامهم . ثم أذن لهم في الكلام فقام أكنم بن صيفى فقال :

— إن أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكها ، وأفضل الملوك أعمها نفعا ، وخير الأزمنة أخصبها وأفضل الخطباء أصدقها . الصدق منجاة ، والكذب مهواة ، والشر لجاجة ، والخزم مركب صعب ، والعجز مركب وطىء . آفة الرأى الهوى ، والعجز مفتاح الفقر ، وخير الأمور الصبر . حسن الظن ورطة ، وسوء الظن عصمة . إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعى . من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء ، شر البلاد

بلاد لا أمير فيها . شر الملوك من خافه البريء . المرء يعجز لا محالة . أفضل الأولاد البررة .

خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة ، أحق الجنود بالنصر من حسنت سريرته . يكفيك من الزاد ما بلغك المحل . حسبك من شر سماعه . الصمت حكم وقليل فاعله . البلاغة الإيجاز . من شدد نَفْرَ ، ومن تراحم تآلف . فتعجب كسرى من أكنم ، ثم قال :

— ويحك يا أكنم ما أحكمك وأوثق كلامك ، لولا وضعك كلامك في غير موضعه .

قال أكنم :

— الصدق ينيء عنك لا الوعيد .

قال كسرى :

— لو لم يكن للعرب غيرك لكفى .

قال أكنم :

— رب قول أنفذ من صَوْل (الوثبة عند الخصومة) .

ثم قام حاجب بن زرارة التيمي فقال :

— ورى زندك وعلت يدك ، وهيب سلطانك . إن العرب أمة قد غلظت

أكبادها ، واستحصدت مرتها (القوة) ، ومنعت درتها ، وهى لك وامقة ما

تألفتها ، مسترسلة ما لايتها ، سامعة ما ساحتها . وهى العلقم مرارة ، وهى

الصاب غضاضة ، والعسل حلاوة ، والماء الزلال سلاسة .

نحن وفودها إليك ، وألستها لديك . ذمتنا محفوفة ، وأحسابنا ممنوعة ،

وعشائرننا . فينا سامعة مطيعة . إن نؤب لك حامدين خيرا فلك بذلك عموم

محمّدتنا ، وإن تدم لم نخص بالذم دونها .

قال كسرى :

— يا حاجب ما أشبه حجر التلال بألوان صخرها .

قال حاجب :

— بل زئير الأسد بصولتها .

قال كسرى :

— وذلك .

ثم قام الحارث بن عمار البكرى فقال :

— دامت المملكة باستكمال جزيل حظها ، وعلو سنائها . من طال
رشاؤه (حبله) كثر منْحه (استقصاؤه) ، ومن ذهب ماله قل منحه .
تناقل الأفاويل يعرف اللب ، وهذا مقام سيوجف (يضطرب) بما تنطق به
الركب ، وتعرف به كنه حالنا العجم والعرب . ونحن جيرانك الأدنون ،
وأعوانك المعينون ، خيولناجمة ، وجيوشنا فخمة . إن استنجدتنا فغير ريب
(غير مقصرين) ، وإن استطرقتنا فغير جُهض . (غير مانعين) ، وإن
طلبتنا فغير غمض . لا ننشى لذعر ، ولا نتنكر لدهر . رماحنا طوال ،
وأعمارنا قصار .

قال كسرى :

— لو قصر عمرك لم تستول على لسانك نفسك .

قال الحارث :

— أيها الملك إن الفارس إذا حمل نفسه على الكتيبة مغررا بنفسه على
الموت ، فهي منية استقبلها ، وجنان استدبرها . والعرب تعلم أني أبعث
العرب قدما وأحبسها وهي تصرف بها ، حتى إذا جاشت نارها ، وسعرت
لظاهها ، وكشفت عن ساقها ، جعلت مقادها رمحي ، وبرقها سيفي ،

ورعدها زئيرى ، ولم أقصر عن خوفى ضحضاها ، حتى أنغمس فى غمرات
لججها ، وأكون فلكا لفرسانى إلى بجوحة كبشها ، فأستمطرها دما ، وأترك
حماتها جزر السباع وكل نسر قشعم (مسن) .

فالتفت كسرى لمن حضره من العرب وقال :

— أكذلك هو ؟

قالوا :

— فعاله أنطق من لسانه .

قال كسرى :

— ما رأيت كالسيوم ، وفدا أحشد ، ولا شهودا أوفد .

ثم قام عمرو بن الشريد السلمى فقال :

— أيها الملك نعم بالك ، ودام فى السرور حالك ، إن عاقبة الكلام

متدبرة ، وأشكال الأمور معتبرة ، وفى كثير ثقلة ، وفى قليل بُلغة (ما يتبلغ

به) . وفى الملوك سورة العز . وهذا منطلق له ما بعده ، شرف فيه من شرف

وخمل فيه من خمل ، لم نأت لضيمك ، ولم نقد لسخطك ، ولم نتعرض

لرِفدك (لعطائك) . إن فى أموالنا منتقدا ، وعلى عزنا معتمدا ، إن أورينا نارا

أثقتنا ، وإن أرود (أرفق) دهر بنا اعتدنا ، إلا أنامع هذا الجوارك حافظون ،

ولن رامك كافحون ، حتى يحمد الصدر ، ويستطاب الخبر .

قال كسرى :

— ما يقوم قصد منطلقك بإفراطك ، ولا مدحك بدمك .

قال عمرو :

— كفى بقليل قصدى هاديا ، وبأيسر اقراطى مخبرا ، ولم يلم من عزيت

نفسه عما يعلم ، ورضى من القصد بما بلغ .

قال كسرى :

— ما كل ما يعزف المرء ينطق به ، اجلس .

ثم قام خالد بن جعفر الكلابي فقال :

— أحضر الله الملك إسعادا ، وأرشده إرشادا . إن لكل منطق فرصة ، ولكل حاجة غصة ، وعي المنطق أشد من عي السكوت ، وعتار القول أنكأ من عتار الوعث ، وما فرصة المنطق عندنا إلا بما نهوى ، وغصة المنطق بما لا نهوى غير مساعة ، وتركى ما أعلم من نفسى ويعلم من سمعى أننى له مطيق ، أحب إلى من تكافى ما أتخوف ويتخوف منى .

وقد أوفدنا إليك ملكنا النعمان ، وهو لك من خير الأعوان ، ونعم حامل المعروف والإحسان ، أنفسنا بالطاعة لك ياخعة ، ورقابنا بالنصيحة خاضعة ، وأيدينا لك بالوفاء رهينة .

قال له كسرى :

— نطقت بعقل ، وسموت بفضل ، وعلوت ببيل .

ثم قام علقمة بن علاثة العامري فقال :

— نهجت لك سبيل الرشاد ، وخضعت لك رقاب العباد . إن للأقاويل مناهج ، وللآراء مدايح ، وللعويص مخارج . وخير القول أصدق ، وأفضل الطلب أنجح . إنا وإن كانت المحبة أحضرتنا ، والوفادة قربتنا ، فليس من حضرك منا بأفضل ممن عزب عنك ، بل لو قست كل رجل منهم ، وعلمت منهم ما علمنا ، لو جددت له فى آبائه دنيا أندادا وأكفاء كلهم إلى الفضل منسوب ، وبالشرف والسؤدد موصوف ، وبالرأى الفاضل والأدب النافذ معروف ، يحمى حماه ، ويروى نداهما ، ويذود أعداه ، لا تحمد ناره ، ولا يحترز منه .
جاره .

أيها الملك ، من يبل العرب يعرف فضلهم ، فاصطنع العرب فإنهم الجبال
الرواسي عزا ، والبحور الزواجر طميا ، والنجوم الزواهر شرفا ، والحصى
عددا ، فإن تعرف لهم فضلهم يعزوك ، وإن تستصرخهم لا يخذلوك .
قال كسرى وخشى أن يأتي منه كلام يحمله على السخط عليه :
— حسبك ، أبلغت وأحسننت .

ثم قام قيس بن مسعود الشيباني فقال :
— أطاب الله بك المرشد ، وجنبتك المصائب ، ووقاك مكروه النصائب
(الشدائد) . ما أحقنا إذا أتيناك بإسماعك ما لا يحق صدرك ، ولا يزرع
حقدا في قلبك . لم نقدم أيها الملك لمساماة ، ولم ننتسب لمعاداة ، ولكن لتعلم
أنت ورعيتك ومن حضرك من وفود الأمم أنا في المنطق غير محجمين ، وفي
الناس غير مقصرين . إن جورينا فغير مسبوقين ، وإن سومينا فغير مغلوبين .
وتذكر كسرى أن قيس ترك الوفاء بضمانه السواد ، فقال :
— غير أنكم إذا عاهدتم فغير وافين .

قال قيس :
— أيها الملك ما كنت في ذلك إلا كواف غدر به ، أو كخافر أخفر بدمته .
— ما يكون لضعيف ضمان ، ولا للدليل خفارة .
— أيها الملك ما أنا فيما أخفر من ذمتي ، أحق بالزمامي العار منك فيما قتل
من رعيتك ، وانتك من حرمتك .

— ذلك من اتئمن الخانة واستنجد الأئمة ، ناله من الخطأ ما نالني . وليس
كل الناس سواء . كيف رأيت حاجب بن زرارة لم يحكم قواه فيرم ، ويعهد
فيوفي ، ويعد فينجز .

— وما أحقه بذلك وما رأيته إلا لي .

— القول بذل فأفضلها أشدها .

ثم قام عامر بن الطفيل العامري فقال :

— كثر فنون المنطق ، وليس القول أعمى من جندس الظلماء وإنما الفخر في الفعال . والعجز في النجدة ، والسؤدد مطاوعة القدرة ، وما أعلمك بقدرنا ، وأبصرك بفضلنا ، وبالحرى إن أدالت الأيام ، وثابت الأحلام ، أن تحدث لنا أمورا لها أعلام .

قال كسرى :

— وما تلك الأعلام ؟

— مجتمع الأحياء من ربيعة ومضر ، على أمر يذكر .

— وما الأمر الذى يذكر ؟

— ما لى علم بأكثر مما خبرنى به مخبر .

كان عامر بن الطفيل قد سمع من أحبار يهود وكهان النصارى والمنجمين أن نبيا يوشك أن يولد فى العرب ، يجمع ما تنافر من قبائل العرب ، يخرجهم من الظلمات إلى النور ويرفعهم فوق العالمين وقد لمح إلى ما سمع فقال له كسرى :

— متى تكاهنت يا بن الطفيل ؟

— لست بكاهن ، ولكنى بالرحم طاعن .

— فإن أتاك آت من جهة عينك العوراء ما أنت صانع ؟

— ما هييتى فى قفاى بدون هييتى فى وجهى ، وما أذهب عينى فى عبث

ولكن مطاوعة العبث .

ثم قام عمرو بن معد يكرب الزبيدى فقال :

— إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، فبلاغ المنطق الصواب ، وملاك النجدة

الارتياح ، وعفو الرأي خير من استكراه الفكرة ، وتوقيف الخبرة خير من اعتساف الحيرة ، فاجتذب (اجتذب) طاعتنا بلفظك ، واكتظم بادرتنا بجملك ، وأن لنا كنفك (جانبك) ، يسلس لك قيادنا ، يوقس صفاتنا قراع منافير من أراد لنا قضما ، ولكن معنا حمانا من كل رام لنا هضما .

ثم قام الحارث بن ظالم المري فقال :

— إن من آفة المنطق الكذب ، ومن لؤم الأخلاق الملق ، ومن خطل الرأي خفة الملك المسلط ، فإن أعلمناك أن مواجعتنا لك عن ائتلاف ، وإيقادنا لك عن تصاف ، ما أنت بقبول ذلك منا بخليق ، ولا اعتماد عليه بحقيق . ولكن الوفاء بالعهود ، وإحكام وليث العقود ، والأمر بيننا وبينك معتدل ، ما لم يأت من قبلك ميل أو زلل .

قال كسرى :

— من أنت ؟

— الحارث بن ظالم .

— إن في أسماء آبائك لدليلا على قلة وفائك ، وأن تكون أولى بالغدور وأقرب

من الوزر .

— إن في الحق مغضبة ، والسر والتغافل ، ولن يستوجب أحد الحلم إلا مع

القدرة ، فلتشبه أفعالك مجلسك .

قال كسرى :

— هذا فتى القوم .

ثم قال :

— قد فهمت ما نطقت به خطباؤكم وتفنن فيه متكلموكم . ولولا أني أعلم

أن الأدب لم يثقف أودكم (اعوجاجكم) ، ولم يحكم أمركم ، وإنه ليس ملك

يجمعكم فتنطقون عنده منطق الرعية الخاضعة الباخعة ، فنطقتم بما استولى على ألسنتكم ، وغلب على طباعكم ، لم أجز لكم كثيرا مما تكلمتم به ، وإني أكره أن أحبه وفودي أو أضييق صدورهم ، والذي أحب من إصلاح مديركم ، وتآلف شواذكم ، والإعذار إلى الله فيما بيني وبينكم . وقد قبلت فيما كان من منطلقكم من صواب ، وصفحتم عما كان فيه من خلل ، فانصرفوا إلى ملككم فأحسنوا مؤازرته ، والتزموا طاعته ، وادعوا سفهاءكم وأقيموا أودكم ، وأحسنوا أدبكم ، فإن في ذلك صلاح العامة .

كان كسرى يتكلم في ثقة وغرور ، ولو اخترقت أبصاره حجب الغيب لرأى مولد النبي الذي لمح إليه ابن الطفيل في دار من دور مكة ، ولرأى هؤلاء العرب الذين كان يعيرهم بأن ليس لهم ملك يجمعهم ولا أدب يثقف اعوجاجهم ، وقد جمعهم ذلك النبي ودفعهم الدين الذي جاءهم به إلى غزو فارس وانتزاع سرير الملك من أحفاده ، حتى تتحقق نبوءة ساسان ووصية زرادشت ، ولو تفرس في الغيب طويلا لرأى عمرو بن معد يكرب ذلك الشاب الذي قال فأوجز يجد في أثر فلول جيوش الفرس حتى المدائن : « وأورثناها قوما آخرين » .

راح جيش أبرهة يتقهقر وقد حملت فلول الجيش ملكهم الذى هذه المرض، وكانت أنامله تسقط أمثلة أمثلة حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، انصدع صدره عن قلبه وزهقت روحه ليملك على اليمن من بعده ابنه يكسوم.

أبى الله أن ينصر أبرهة حتى لا يجرى السبى على رسوله حملا ووليدا، فلو ظفر أبرهة بمكة لهدم البيت وقتل الرجال وسبى النساء، ولساق آمنة بنت وهب إلى صنعاء فيمن سيسوق من النساء، أو بعث بها إلى سوق من أسواق الرقيق لتباع بضاعة هى وذلك الذى حملته وبشرت به يوم أن حملته بأنها قد حملت بسيد هذه الأمة، ولكن لمحمد بن عبد الله ربا منعه من الرق ليؤدى ما أعد له من رسالة .

وسار يكسوم فى اليمن سيرا سيئا . كان فظا غليظ القلب يهوى سفك الدماء ويرتاح للظلم الذى يوقعه برعيته ، فقد ضاق اليمنيون بحكمه حتى إن موته لم يخفف عنهم ، فقد كرهوا أن يظلوا تحت حكم الأحباش تسلب منهم خيراتهم ويرسل بها إلى الحبشة .

وتولى مسروق بن أبرهة من زوجته العربية الحكم بعد موت أخيه ، وكان يحسب أن اليمنيين سيفرحون بتوليته الملك فأمه منهم وهو يتكلم العربية بلسانهم ، ونسى مسروق أن اليمنيين لم ينسوا أن أباه قد اغتصب أمه من زوجها العربى ، فهو ابن الغضب والمقت وثمره القهر والخسة والدناءة .

وضاق سيف بن ذى يزن بالذل الذى يعيش فيه الحميريون فعزم على أن

يخلص بلاده من حكم الأحباش ، ولكن أين القوة التي يقودها لحرب مسروق وجنوده وإرغامهم على الجلاء عن البلاد ، وفكر ابن ذى يزن ودبر فلم يجد إلا أن يلجأ إلى قيصر الروم يلتمس منه أن يمده بالجنود لطرد الأحباش من أرض حمير .

وراح سيف بن ذى يزن يطوى الأرض قاصدا القسطنطينية وهو يفكر فى إمبراطور الروم . إنه ليس أول عرنى يفزع إلى البلاط الإمبراطورى ، فملوك الغساسنة عرفوا ذلك الطريق ، وإن امرأ القيس قد ذهب إلى يوسطيانوس ونادمه ، وتوطدت الصداقة بينه وبين قيصر حتى إنه كان يدخل معه الحمام ، ولولا الوشاية التى مشى بها الوشاة بين امرئ القيس ويوسطيانوس لكان امرؤ القيس قد عاد إلى عرش آبائه .

ولم يخطر على قلب سيف بن ذى يزن أن حملة أبرهة كانت بتدبير القسطنطينية ، وأنها هى التى وضعت خططها وباركتها ليتصل نصارى الجنوب بنصارى الشمال لتحقيق أغراض القسطنطينية السياسية .

وبلغ ابن ذى يزن البلاط البيزنطى وطلب المشول بين يدى قيصر ليبت فى أمور الدولة وحده .

وراح سيف بن ذى يزن يشكو إلى قيصر ملك الروم ما هم فيه من ذل واضطهاد ، وسأله أن يبعث معه الجيوش ليطرد الأحباش ، ويلى اليمن الإمبراطور العظيم ويبعث إليهم من يشاء من الروم فيكون له ملك اليمن .

ولم يلق قيصر إليه سمعه فقد كان فى ضيق لإخفاق حملة أبرهة ، وكان فى دهشة من أن القدر كان فى خدمة وثنيين يعبدون الحجارة وقد نصرهم على جيش يؤمن بالله ومسيحه ويحمل الصليب !

وكانت صوفيا تصفى إلى الترجمان وهى ضيقة الصدر بالعرب ، فانكسار

أبرهة قد قلب كل خططهم رأساً على عقب وغير تاريخ المنطقة ، فقد كانت صوفيا واثقة من النصر وكانت على يقين من أن علم النصرانية سيخفق على جبال مكة وعلى واحات العرب في طول الجزيرة العربية وعرضها . ولم يستطع قيصر ولا صوفيا أن يكتما ما يعتمل في صدريهما من ضيق ، فقالا لسيف بن ذى يزن إن بلاده بعيدة ولا رغبة لهما في المنطقة !

وخرج سيف بن ذى يزن من البلاط البيزنطى وهو آسف حزين، وراح يفكر ويدبر فهدهاه تفكيره إلى أن يهرع إلى كسرى أنوشروان في المدائن يسأله أن يبعث معه الجيوش ليطرده الأحمق أولياء الروم من أرض حمير، وكان يأمل أن يستجيب كسرى لندائه فالأحمق حلفاء الروم أعداؤه وأعداء دينه، وإن حاول كسرى أن يبدو على الدوام متسامحا .

وخرج سيف بن ذى يزن حتى أتى النعمان بن المنذر في قصر الخورنق . فشكا إليه أمر الحبشة فقال له النعمان :

— إن لى على كسرى وفادة في كل عام ، فأقم حتى يكون ذلك .

وحان أوان انطلاق النعمان إلى المدائن فذهب سيف بن ذى يزن معه فأدخله على كسرى . وكان كسرى يجلس في إيوان مجلسه الذى فيه تاجه ، وكان تاجه مثل المكيال العظيم يُضرب فيه الياقوت واللؤلؤ والزبرجد والذهب والفضة ، معلقا بسلسلة من ذهب في رأس طاقة في مجلسه ذلك ، وكانت عنقه لا تحمل تاجا وإنما يستر بالثياب حتى يجلس في مجلسه ذلك ، ثم يدخل رأسه في تاجه فإذا استوى في مجلسه كشفت عنه الثياب ، فأحس سيف هيبته له . دخل سيف من باب مطأطئ الرأس ، فقال كسرى . :

— إن هذا الأحمق يدخل على من هذا الباب الطويل ثم يطأطئ رأسه .

فقيل ذلك لسيف فقال :

— إنما فعلت ذلك لهمى لأنه يضيق عنه كل شيء .

وسمح كسرى لابن ذى يزن بالكلام ، فقال :

— أيها الملك غلبتنا على بلادنا الأحباش ، فجئتك لتتصرفني و يكون ملك

بلادى لك .

سمع كسرى أنو شروان ولا ريب بتحرك جيوش أبرهة لتستولى على جزيرة العرب وليتصل نصارى الحبشة بنصارى غسان والروم ، وفطن إلى أن تلك الحركة لم يكن مقصودا بها غيره ، وبلغته أنباء إخفاق حملة الفيل فلم يعد يخشى وقوع الحجاز في قبضة الأحباش ، ولم تعد هناك ضرورة للمغامرة
فقال :

— بعدت بلادك مع قلة خيرها فلم أكن لأورط جيشا من فارس بأرض

العرب ، لا حاجة لي بذلك .

ثم أجازة بعشرة آلاف درهم واف وكساه كسوة حسنة ، فلما قبض ذلك منه سيف خرج وجعل ينثر ذلك الورق للناس ، فبلغ ذلك الملك فقال :

— إن لهذا لشأنا .

ثم بعث إليه فقال :

— عمدت إلى جِباء الملك تنثره للناس .

فقال سيف :

— ما جبال أرضى التى جئت منها إلا ذهباً وفضة .

كان كسرى على علم باليمن كما كان الروم على علم بها ، فجواسيس
الفرس والروم يذرعونها طولاً وعرضاً ، وهى ميدان من الميادين
الهامة التى يتصارع فيها النساطرة واليعاقبة أصحاب مذهب وحدة
المسيح وأصحاب مذهب ناسوت المسيح ولاهوتة ، نصارى الشرق

ونصارى الغرب ، النصارى الذين تؤيدهم فارس نكاية في عدوها والنصارى الذين يعتقدون مذهب الإمبراطورية الرومانية ، فلم يتحرك طمع كسرى لما سمع أن جبال اليمن من ذهب وفضة ، بل رأى أن يناوىء الروم في اليمن وأن يقلق مضاجعهم وأن ينزل بهم الهزيمة بطرد حلفائهم من الأرض العربية كما أنزل بهم الهزيمة في كل مكان .

جمع كسرى مرزبته فقال لهم :

— ماذا ترون في أمر هذا الرجل وما جاء له ؟

فقال قائل :

— أيها الملك إن في سجونك رجالا قد حبستهم للقتل ، فلو أنك بعثتهم معه فإن يهلكوا كان ذلك الذى أردت بهم ، وإن ظفروا ملكا ازددته .

فبعث معه كسرى من كان في سجونهم وكانوا ثمانمائة رجل ، واستعمل عليهم رجلا منهم يقال له وهرز وكان ذا سن فيهم وأفضلهم حسبا وبيتا ، فخرجوا في ثمان سفائن قاصدين عدن ، فغرقت سفينتان ووصل إلى عدن ست سفائن ، فراح سيف يجمع من استطاع من قومه ، ثم عاد إلى وهرز بليوت أبوا أن يعيشوا في اليمن في ذل وعزموا على أن يحرروا بلادهم من الأحباش الذين جاءوا باسم نصره إخوانهم في الدين ، ثم أناخوا على البلاد يمتصون دماءها .
وقال سيف لوهرز :

— رجلى مع رجلك حتى نموت جميعا أو نظفر جميعا .

— أنصفت .

وسمع مسروق بن أبرهة بنزول جنود الفرس بعدن ، فجهز جيشا ثم انطلق ليدافع عن عرشه الذى تألب عليه سيف بن ذى يزن واستعان بجيوش فارسية جاءت لنصرته ، لا تأييدا لقضيته بل بسطوا لنفوذ فارس على المنطقة .

ودعا وهرز ابنه نوزاد وأمره أن يخرج لقتال مسروق والذين معه ، ولم يخرج وهرز ولا سيف مع الخارجين فقد أراد الشيخ أن يختبر قتالهم قبل أن يضع خططه للقضاء على مسروق وجنوده .

وانطلق نوزاد ومن انتدبهم أبوه معه لقتال الأحباش على أرض اليمن ، فالتقى مسروق وهو على رأس فيله بطلائع الجيش الغريب الذي جاء يتلمس طريقه ، وبدأت المعركة بالتراشق بالسهام ، ثم مشى الرجال إلى الرجال يهزون الرماح ثم يطلقونها إلى الأهداف البشرية التي كانت تتهاوى كأوراق الشجر في فصل الخريف ، وغطت الجثث الأرض ، ثم راح فيل مسروق يوقع الاضطراب في صفوف العرب والفرس ، ثم صاح صائح :

— إن نوزاد بن وهرز قد قتل .

وبلغ وهرز مقتل ابنه فزاده ذلك حنقا على الأحباش ، فلم تعد المعركة معركة الأحباش مع اليمن توطيدا لسلطان كسرى ومدا لنفوذه بل أمست انتقاما لابنه الذي قتل بسيوف الأحباش على أرض العرب .

وخرج وهرز وسيف بن ذى يزن في جموع الفرس والعرب وانطلقوا حتى تواقف الناس على مصافهم ، وعزم وهرز على أن يقتل ملك اليمن فلن يشفى غليله قتل جيش مسروق كله إذا ما فر مسروق من يده .

وقال وهرز لمن حوله :

— أروني ملكهم .

— أترى رجلا على الفيل عاقدا تاجه على رأسه بين عينيه ياقوتة حمراء ؟

— نعم .

— ذاك ملكهم .

— اتركوه .

فوقفوا طويلا يتراشقون بالسهم ، ثم التفت وهرز إلى من حوله وقال
يسأل عن مسروق :

— علام هو ؟

— قد تحول على الفرس .

— اتركوه .

واستمر تراشق السهم طويلا والسهم تطيش أو تستقر في الأفئدة
والصدور والنحور ، والجثث تهاوى وأنات الجرحى تتردد في جنبات المعركة
وقد صم عنها المقاتلون آذانهم ، فقد كان كل منهم مشغولا بنفسه عن كل ما
حوله ، ذاهلا عن الوجود بالمشاعر الثائرة التي تستولى على وجدانه .

والتفت وهرز إلى من حوله وقال :

— علام هو ؟

— قد تحول على البغلة .

— بنت الحمار ! ذل وذل ملكه ، إني سأرميه ، فإن رأيتم أصحابه لم
يتحركوا . فاثبتوا حتى آذنكم فأني قد أخطأت الرجل . وإن رأيتم القوم قد
استداروا واجتمعوا حوله فقد أصبت الرجل ، فاحملوا عليهم .

ثم وتر قوسه ثم رماه فصك الياقوتة التي بين عينيه ، فتغلغلت النشابة في
رأسه حتى خرجت من قفاه ونكس عن دابته ، واستدارت الحيشة والتفت
حوله ، وارتفعت أصوات التهليل من الجيش العربي الفارسي فقد أصاب وهرز
مسروق إصابة قاتلة .

ودب الذعر في صفوف الحيشة فقد قتل قائدهم وملكهم فدب اليأس في
قلوبهم ، وقبل أن يفيقوا من هول الصدمة حمل العرب والفرس عليهم حملة
رجل واحد ، وأعملوا السيوف في رقابهم ، فسقط من سقط قتيلًا وفر من فر

لا يلوى على شيء ، وكتبت الهزيمة على الأحباش وراحت جيوش الفرس
وسيف بن ذى يزن تتقدم إلى صنعاء مزهوة بنصرها .

وشرد ذهن سيف وهو فى طريقه إلى العاصمة ، لم يفكر فى قصر مسروق
الذى سيصبح مقر ملكه بل عاد به القهقرى إلى ذلك اليوم الذى خرج فيه أبوه ذو
يزن إلى كسرى ووقف ببابه يسأله النصر . وقد أبى كسرى أن يستجيب له حتى
مات ذو يزن ببابه . ليت روح أبيه ترفرف عليه الساعة لترى أن أمله قد تحقق .

وزن فى أذنيه الحديث الذى دار بينه وبين كسرى :

— أيها الملك إن لى عندك ميراثا .

أنا ابن الشيخ اليماني ذى يزن الذى وعدته أن تنصره فمات ببابك ،
وحضرتك فتلك العدة حق لى وميراث يجب عليك الخروج لى منه .

ورأى كسرى يأمر له بمال ، ثم أفاق من شروده ووقعت عيناه على باب
صنعاء فلم ترف على شفتيه بسمة بل سالت الدموع على خديه .

وأقبل وهرز ليدخل صنعاء وقد رفعت راية الجيش تخفق بالنصر ، فلم تمر
الراية من باب صنعاء وهم حامل الراية بأن ينكسها ، ورأى وهرز ذلك
فغضب وتغير لونه وقال :

— لا تدخل رايتى منكسة أبدا . اهدموا الباب .

وعملت المعاول فى باب صنعاء ليدخل وهرز وجنوده وجنود ابن ذى يزن
والراية عالية خافقة مرفوعة .

وانطلق وهرز وسيف وأشرف القوم إلى القصر ، وجاءت الوفود لتنهى
وهرز وسيف بن ذى يزن على النصر المؤزر على الحبشة ، ثم انصرف وهرز إلى
كسر وملك سيفاً على اليمن . وتهلل سيف بالفرح ولم يفكر فى أنه استبدل
الحبشة بالفرس وأنه لم يحرر بلاده من سيطرة الدول الأجنبية ، فقد أصبح غاية

أى ملك عزيى فى الشرق الأوسط أن ىرضى عنه كسرى أو قيصر ، وأن يؤيد ملكه قوة من القوتين العظيمنتى المسيطرتين على العالم المتنازعتين ليخلو لإحدهما وجه الأرض ، وقد انضم بعض ملوك العرب للشرق وانضم بعضها الآخر للغرب ، ووضع كل من الفريقين موارد بلاده فى خدمة سيده الذى يؤيده ، ولم ىدر بخلد حاكم واحد منهم أن فى مقدور رجل من العرب أن يجمع كلمة العرب المتنافرة وأن يؤلف بين قلوبهم ، وأن يحملهم للقضاء على الإمبراطوريتين العاتيتين إمبراطورية الفرس وإمبراطورية الروم ، إمبراطورية الشرق وإمبراطورية الغرب ، فقد كان ذلك يستعصى حتى على الأحلام .
وفى دار من دور بنى هاشم فى مكة ، بل فى دار عبد الله بن عبد المطلب بالذات ، فى دار الذبيح الذى فداه ربه بمائة من الإبل ليتزوج فتاة بنى زهرة لتحمل منه بسيد البشر . كانت آمنة بنت وهب تضع الغلام الذى دعا إبراهيم وإسماعيل ربهما وهما يقيمان القواعد من البيت أن يبعث فى ذريتهما رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكهم ، والذى بشر به موسى وعيسى والنبيون ، الغلام الذى سيرفع العرب ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ليصبحوا معلمين للبشرية بعد أن كانوا فى الجهالة يعمهون ، الغلام الذى سيرسله الله رحمة للعالمين .

كانت يثرب يموج بعضها في بعض فما كان يوم يمر دون أن تقوم مشادة بين الأوس والخزرج أو تنشب مناظرة حامية بين رجل من العرب ورجل من اليهود ، ويا طالما نشبت الحروب بين الحيين من العرب لسبب من الأسباب التافهة ، وما أكثر ما ثارت المنازعات بين العرب واليهود !
وارتفعت الأصوات حتى طافت بالدور ، فخرج حسان بن ثابت وكان ابن سبع سنين وفي أثره أخته فارعة بنت ثابت وكانت طفلة صغيرة ليريا ذلك النضال الناشب بين الناس .

كان العرب واليهود يتشابهون بالأيدى ويتبادلون السباب . فقد بلغ العرب أن اليهود أهانوا امرأة عربية في السوق ، فاتفقت كلمة الأوس والخزرج واجتمعت القلوب المتنافرة ونسيت ما كان بينهما من عداوة ، وهبوا لقتال اليهود غيرة على كرامة امرأة عربية أهينت في الطريق .
وكادت المشادة أن تنقلب إلى حرب مدمرة لولا أن مشى بعض أشرف القوم في إصلاح ما بين المتشابهين بالإيدى ، والذين كان السباب ينطلق من أفواههم بغير حساب ولا تفكير .

وأحس اليهود أنهم باتوا في المدينة أذلة فقالوا للعرب :

— إن نبيا مبعوثا قد أظل زمانه نتبعه ، نقتلكم معه قتل عاد وإرم .

كان اليهود ينتظرون مولد النبي الذي بشرهم به موسى ، فكانوا يرصدون النجوم ويعكفون على أسفارهم يقرءون ما بين السطور ، وكانوا في لهفة على

مولد ذلك النبي ليصدقوه فقد كانوا أذلة في الأرض وكانوا يطمعون في أن يعيد ذلك النبي مجدهم ومجد الدين .

وكان الرهبان في صوامعهم يعلمون أن الله سيبعث « الفارقليط » الذى بشر به المسيح ، وكانوا يفصحون عن ذلك العلم كلما التقوا بسادات العرب وأشرفهم ، فقد نزل أربعة من تميم يريدون الشام عند غدير عند دير ، فأشرف الديرانى وألقى سمعه إلى حديثهم ثم قال :

— إن هذه لغة قوم ما هى أهل هذا البلد .

— نحن قوم من مضر .

— من أى المضائر ؟

— خندف .

— إن الله سيبعث فيكم نبيا وشيكا فسارعوا إليه وخذلوا حظكم

ترشدوا ، فإنه خاتم النبيين .

— ما اسمه ؟

— محمد .

ثم دخل ديره فما أحد منهم إلا زرع قوله في قلبه ، فأضمر كل واحد منهم

إن رزقه الله غلاما سماه محمدا .

نامت الفتنة التى كادت تنشب بين الأوس والخزرج واليهود وعاد الناس

إلى دورهم ، لم يحفلوا بذلك التهديد الذى لا يفتأ اليهود يرددونه كلما شجر

خلاف بينهم وبين العرب ، وعاد ثابت بن المنذر إلى داره فألقى ولديه حسان

وفارعة قد خرجا ينظران وقد وقفا أمام باب الدار ، فحمل فارعة وأخذ

حسان من يده ثم دلف إلى البيت .

كان ثابت بن المنذر الحكم الذى لجأت إليه الأوس والخزرج يوم أن قامت

حرب سُمَيْر ، وكان ثابت لا ينفك يروى أحداث تلك الحروب ويروى الأشعار التي قيلت فيها فقد كان يحفظها عن ظهر قلب ، وكان يجد لذة في إعادة تلك القصة على أهل بيته ، فقبول الأوس والخزرج أن يكون حكما بينهما شرف عظيم ينبغي أن تتيه به الأسرة وتفخر .

وجلس حسان بن ثابت الفتى الذي لم يتجاوز السابعة يصغى إلى أبيه وهو يقول :

— قتل رجل في السوق كان جارا للملك بن العجلان ، فقيل لملك قد قتله سُمَيْر ، فأرسل إلى بني عوف بن عمرو بن مالك بن الأوسى ، إنكم قتلتم منا قتيلا فأرسلوا إلينا بقاتله ، فلما جاءهم رسول مالك تراموا به فقالت بنو زيد : إنما قتلته بنو جحجبي ، وقالت بنو جحجبي . إنما قتلته بنو زيد . ثم أرسلوا إلى مالك :

— إنه كان في السوق التي قتل فيها صاحبكم أناس كثير ولا يُدرى أيهم قتله . وأمر مالك أهل تلك السوق أن يتفرقوا فلم يبق فيها غير سُمَيْر والقتيل ، فأرسل مالك إلى بني عمرو بن عوف بالذى بلغه من ذلك وقال : إنما قتله سُمَيْر فأرسلوا به إلنى أقتله . فأرسلوا إليه ، إنه ليس لك أن تقتل سُمَيْر بغير بيعة . وكثرت الرسل بينهم في ذلك يسألهم مالك أن يعطوه سميرا ويأبون أن يعطوه إياه . ثم إن بني عمرو بن عوف كرهوا أن يُنشبوا بينهم وبين مالك حربا ، فأرسلوا إليه يعرضون عليه الدية فقبلها ، فأرسلوا إليه أن صاحبكم حليف وليس لكم فيه إلا نصف الدية .

فغضب مالك وأبى أن يأخذ فيه إلا الدية كاملة أو يقتل سميرا ، فأبى بنو

عمرو بن عوف أن يعطوه الإدية الحليف . هـ . نصف الدية ، ثم دعه وأن يحكم

فانطلقوا حتى جاءوه في بني الحارث بن الخزرج ، فقضى مالك بن العجلان أنه ليس له في حليفه إلا دية الحليف ، وأبى مالك أن يرضى بذلك وآذن بنى عمرو بن عوف بالحرب واستنصر قبائل الخزرج ، فأبى بنو الحارث بن الخزرج أن تنصره غضبا حين رد قضاء عمرو بن امرئ القيس ، فقال مالك بن العجلان يذكر بخذلان بنى الحارث بن الخزرج له وحذب بنى عمرو بن عوف على سُمَيْرٍ ومجرض بنى النجار على نصرته :

إن سُمَيْرًا أرى عشيرته

قد حذبوا دونه وقد ألفوا

إن يكن الظن صادقاً بينى والنجم

سار لا يطعموا الذى عُلفوا^(١)

لا يسلموننا لمعسكر أبدا

ما دام منا بيطنها شرف

لكن موالئى قد بدا لهم

رأى سوى ما لىدى أو ضعفوا

وأرهب الفتى حسان أذنيه فهو على الرغم من حداثة سنه يحب الشعر

ويسر به ، وراح أبوه ثابت بن المنذر يقول :

بين بنى جحججى وبين بنى

زيد فأئسى لجارى التلّف

يمشون فى البيض والبدروع كما

تمشى جمال مصاعب قطف

(١) أقرؤا بالضم .

كما تمشى الأسود في وهج الـ
موت إليه وكلهم كهف
وقال درهم بن يزيد بن ضبيعة أخو سمير :

يا قوم لا تقتلوا سُميراً فإِ
ن القتل فيه البوار والأسف
إن تقتلوه تَرِنُ نسوتكم^(١)

على كـريم ويفزع السلف
إني لعمرُ الذي يحج له النسا
ئك وممن دون بيته سرف
يمين بـ بـ بالله مجتهد

يخلف إن كان ينفع الحليف
لا ترفع العبد فوق سُنْتِه

ما دام منا بيطنها شرف
إنك لاق غدا غُواة بنى

عمى فانظر ما أنت مزدهف
فأبد سيماك يعرفوك كما

يبدون سماهم فتعترف

وراح ثابت بن المنذر يروى الأشعار التي قالتها الأوس والخزرج في النزاع
الذي نشب بينهما بسبب قتل سمير حليف مالك ، وحسان يصغى وقد أعجب
بالشعر وتمنى لو يصبح شاعرا كهؤلاء الفحول الذي يسعد بشعرهم .

(١) يرفعن أصواتهن بالبكاء .

وقال ثابت لابنه :

— ثم أرسل مالك بن العجلان إلى بنى عمرو بن عوف يؤذنه بالحرب
ويعدهم يوما يلتقون فيه ، وأمر قومه فتهيئوا للحرب ، وتحاشد الحيان وجمع
بعضهم لبعض ، وكانت يهود قد حالفت قبائل الأوس والخزرج إلا بنى قريظة
وبنى النضير فإنهم لم يحالفوا أحدا منهم حتى كان هذا الجمع فأرسلت إليهم
الأوس والخزرج كل يدعوهم لنفسه ، فأجابوا الأوس وحالفوهم والتي
حالفت قريظة والنضير من الأوس أوس الله وهي خطمة وواقف وأمية
ووائل ، فهذه قبائل أوس الله .

ثم زحف مالك بمن معه من الخزرج ، وزحفت الأوس بمن معها من
حلفائها من قريظة والنضير ، فالتقوا بفضاء كان بين بئر سالم وقُباء وكان أول
يوم التقوا فيه فاقتتلوا قتالا شديدا ، ثم انصرفوا وهم منتصفون جميعا ، ثم
التقوا مرة أخرى عند أطم بنى قينقاع فاقتتلوا حتى حجز الليل بينهم ، وكان
الظفر يومئذ للأوس على الخزرج ، فقال أبو قيس بن الأسلت في ذلك :

لقد رأيت بنى عمرو فما وهنوا

عند اللقاء وما هموا بتكذيب

ألا فدى لهم أمى وما ولدت

غداة يمشون إرقال المصاعيب

بكل سلهبة^(١) كالأيم ماضية

وكل أبيض ماضى الحد محسوب

فلبث الأوس والخزرج متحاربين عشرين سنة في أمر سُمير يتعاودون

(١) السلهبة من الخيل : الطويلة على وجه الأرض .

القتال في تلك السنين ، فلما رأَت الأوس طول الشر وأن مالكا لا ينزع قال لهم سويد بن صامت الأوسى وكان يقال له الكامل ، فقد كان شاعرا شجاعا كاتباً ساجحاً رامياً : « يا قوم ارضوا هذا الرجل من حليفه ، ولا تقيموا على حرب إخوتكم فيقتل بعضكم بعضاً ويطمع فيكم غيركم ، وإن حملتم على أنفسكم بعض الحمل .

فأرسلت الأوس إلى مالك بن العجلان يدعونه إلى أن يحكم بينه وبينهم ثابت بن المنذر بن حزام .

وصمت ثابت برهة وتهللت أسارير حسان بالفرح ، ثم قال ثابت :
— فخرجوا حتى أتوني فقالوا : إنا قد حكمناك بيننا ، فقلت : لا حاجة لي في ذلك .

فقال الفتى حسان :

— ولم ؟

فابتسم ثابت وقال :

— قلت لهم : أخاف أن تردوا حكمي كما رددتم حكم عمرو بن امرئ القيس . قالوا : فإننا لا نرد حكمك فاحكم بيننا . قلت لأحكم بينكم حتى تعطوني موثقاً وعهداً الترضون بحكمي وما قضيت به وتسلمن له . فأعطوني على ذلك عهودهم ومواثيقهم .

— وبماذا حكمت يا أبتاه ؟

— حكمت بأن يُؤدى حليف مالك دية الصريح ، ثم تكون السنة فيهم بعده على ما كانت عليه : الصريح على ديته والحليف على ديته ، وأن تعد القتلى الذين أصاب بعضهم من بعض في حربهم ثم يكون بعض ببعض ثم يعطوا الدية

لمن كان له فضل في القتلى من الفريقين . فرضى بذلك مالك وسلّمت الأوس وتفرقوا على أن على بنى النجار نصف دية جار مالك معونة لإخوتهم ، وعلى بنى عمرو بن عوف نصفها ، فرأت بنو عمرو بن عوف أنهم لم يُخرجوا إلا الذى كان عليهم ، ورأى مالك أنه قد أدرك ما كان يطلب وودى جاره دية الصريح .

وانقضى النهار وحسان بن ثابت يردد الأشعار التى سمعها من أبيه ، وجاء الليل وتلألأت نجوم السماء وإذا بصوت جهورى ينادى فيتردد نداؤه فى جنبات يثرب :

— يا معشر يهود .. يا معشر يهود .

وفتحت الدور وخرج اليهود والعرب إلى حيث الصوت ، وخرج ثابت ابن المنذر وفى يده ابنه حسان وراحوا يهرولون مع المهرولين ، فإذا بيهودى يصرخ بأعلى صوته على أطفمة :

— يا معشر يهود !

واجتمعوا إليه وقالوا له :

— ويك ! مالك ؟

— طلع الليلة نجم أحمد الذى ولد به .

ونظر حسان بن ثابت ولم يفقه شيئا ، وما دار بخلده فى تلك اللحظة أنه سيصبح شاعر ذلك الذى طلع الليلة نجمه . وعاد إلى الدار وصوت اليهودى يرن فى وجدانه :

— طلع الليلة نجم أحمد .

دار عبد الله بن عبد المطلب عند الصفا ، الدنيا ليل والقمر يوشك أن يكون بدرا ، واليوم الاثني عشر من ربيع الأول وقد مضى على يوم الفيل خمسون يوما ، فقد صار أهل مكة يؤرخون بعام الفيل بعد أن كانوا يؤرخون بموت كعب بن لؤى حكيم قريش وسيدها .

لم يكن في الدار غير آمنة بنت وهب وجارية عبد الله الحبشية ، فقد شغلت هالة بنت وهيب بولدها حمزة بن عبد المطلب ، وإن ثوية جارية أبي لهب كانت تمضى بعض الليالي في دار عبد الله لتؤنس آمنة ولكنها في هذه الليلة المباركة كانت تنام وفي حضنها حمزة ترضعه وتسهر عليه وتعنى به .

كانت الليلة هادئة خاشعة ، وكان نور القمر ينسكب في غرفة آمنة رائعا لكأنما كان يدا حانية تمس الكون مسارقا فتحرك مشاعر الرقة والحنان ، وملأت روح آمنة روائح أطيب من المسك لم تدر أكانت منبعثة من بخور حرقة جارتها أم أنها آتية من فوق السموات ، وسرت في الغرفة نسيمات من الرحمة كان لها رفيف كأنه تسبيح الملائكة ، وبدا أن السماء توشك أن تتجلى على الأرض .

ورأت الجارية أن آمنة هادئة ساكنة وإن كانت تهم أن تضع ما في بطنها فاستشعرت رهبة . إنها تخاف أن تتلقى وحدها ذلك الذي عما قريب يستقبل الدنيا بصراخه ، فانسلت من الدار وسرعان ما عادت ومعها الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف ليستقبلا معا ذلك اليتيم الذي ستضعه آمنة .

ودنت الشفاء من الشباك ونظرت إلى السماء فخيّل إليها أن القمر في ذلك الليلة كان أكثر إشراقاً ورقة ولكأنما كان يتدلى ليكون معها في الغرفة ، وأن النجوم كانت أكثر تألقاً ولمعاناً ، وألقت بصرها على دور بنى هاشم فألفتها خاشعة لا يدري من فيها أن ابن عبد الله الحبيب قد حان أو ان إقباله على الدنيا . وحانت منها التفاتة إلى الكعبة فخيّل إليها أن القمر قد ألبسها حلة من مخمل أسود وأسلاك من فضة .

وطاف بآمنة نعاس فسمعت هاتفاً يهتف بها أن تسميه محمداً ، وأفافت من نعاسها فأحست كأنما ذلك الاسم قد حفر في فؤادها ، وعجبت من نفسها فما كان اسم محمد من أسماء آباء عبد الله ، إنه اسم لم يعرف من قبل في بنى زهرة ولا في بنى هاشم بن عبد مناف بل ولا في مكة كلها .

وفصل الوليد من آمنة واستقبلته الشفاء على يديها ، وراحت جارية عبد الله الحبشية تعاونها على غسله وإلباسه ثيابه وقد أشرق قلباهما بالنور والرحمة وراحا يرنوان إلى الوليد في حب شديد ، فقد كان هادئاً ساكناً لم يملأ الدنيا عويلاً ، وقد تألق في وجهه الصغير نور تهبو إليه الأفئدة وتفتح له النفس . وحمل الوليد ووضع إلى جوار آمنة فنظرت إليه بقلب خافق يتدفق منه الحنان فخيّل إليها أن الوجود كله قد أشرق بالنور ، وفاضت مشاعر الحب فضمته إليها في رقة ومالت عليه وقبلته قبله فأحست كأنما قد قبلت الدنيا وأنها قد احتوتها بين ذراعها ، وترقرقت في مآقيها الدموع وطاف بذهنها طائف حرك الأسي في وجدانها : إن ابنها الحبيب قد ولد يتيماً . ليت عبد الله كان هنا الساعة ليسعد بابنه الحبيب ، وقبل أن تسترسل في حزنها حانت منها التفاتة إلى محمد فإذا بإشراقه وجهه تبدد كل ما هم بأن يتلبد في جوفها من حزن ، وإذا بها تتذكر ذلك الهاتف الذي هتف بها قائلاً يوم أن حملت به : حملت بسيد

هذه الأمة ، وإذا بالنور يعود ليغمر قلب آمنة ووجه الأرض .
وتنفس الصبح ولم تستطع جارية عبد الله صبرا فانسلت من الدار لتطوف
على دور بنى هاشم تحمل نبأ ولادة آمنة لوليد كأنه القمر ، لم تر مثله في مواليده
بنى عبد مناف وإن اشتهروا بالحسن والجمال .
واتجهت إلى دار عبد المطلب وطرقت الباب ، وبعد لحظة انفرج عن ثوية
جارية أوى لهب كانت هناك لترضع حمزة ، وما إن وقعت عيننا جارية عبد الله
الحبشية عليها حتى قالت :

— ولد لعبد الله ولد . كأنه النور .

وذهبت الجارية إلى حيث كان عبد المطلب ، وراحت ثوية تهرول إلى دار
أوى لهب ، فقد أرادت أن تكون أول من يحمل البشرى السعيدة إلى سيدها
فهي تعلم كم كان أبو لهب يحب عبد الله فتى قريش وذبيحتها .
ودخلت جارية عبد الله على عبد المطلب وقالت في نبرات تنبض بالفرح :
— قد ولد لك غلام فانظر إليه .

وخرج عبد المطلب يسعى إلى دار آمنة ، ودخلت ثوية على أوى لهب
وقالت :

— ولد لعبد الله غلام لم ير في قريش مثله .

وفرح أبو لهب فإن كان أخوه قد ذهب ولن يثوب فقد جاء له ابن سيحفظ
اسمه ويبقى عقبه ، وربما فرح أوى لهب حتى قال لثوية :
— اذهبي فأنت حرة .

وتجلت أول بركة للوليد ولما يمض على مولده غير ساعات . دخلت ثوية
دار أوى لهب وهي جارية وخرجت منه وقد أصبحت حرة لكأنما كان ذلك
إيدانا بيد تحرير الإنسان من استعباد أخيه الإنسان .

ودخل عبد المطلب على آمنة والفرح يبدو في وجهه ، وما أن ألقى عليها تحية الصباح وهنأها بالمولود حتى حملته وقدمته إلى جده ، فلما نظر إليه خفق قلبه في رقة وحنان ، وسرعان ما احتلت صفحة ذهنه صورة عبد الله فراحت كنوز عواطفه تتدفق إلى صدره ، وفي لمح البصر طافت برأسه ذكريات حبيبة لا تنسى ، رأى عبد الله وهو يضرب عليه بالقداح عند هبل ورآه وهو يسير معه إلى دار بنى زهرة ليزوجه من آمنة ، ورآه يوم أن خرج إلى الشام يمتار تمرا ، ورأى الزبير يعود من يثرب لينعى إليه ابنه الحبيب ، وفطن إلى أن الله قد أبقى عبد الله يوم أن هم بأن يذبحه ليأتي بذلك المولود ثم يذهب دون أن يثوب .

إن الميلاد يذكر بالموت فهما طرفا حياة : بداية ونهاية ، فلما عاد عبد المطلب ينظر إلى حفيده تذكر ابنه قتم ، إنه مات في التاسعة من عمره فلماذا لا يطلق اسمه على ابن عبد الله تخليدا لذكراه ؟ واستراح للفكرة فالتفت إلى آمنة وقال :

— نسمة قتما !

فقالت آمنة وقد تألقت عيناها بالفرح :

— إني عندما حملت به سمعت هاتفها يهتف بي : إنك حملت بسيد هذه الأمة . وبينما كنت أضعه سمعت هاتفها يهتف بي : فإذا وقع إلى الأرض فسميه محمدا .

لم تكن آمنة أول من سمعت هاتفها يهتف بها يبشرها بسؤدد ابنها وسلطانها فقد أتى « عتبة بن عفيف » هاتف حين حملت بابنها « حاتم الطائي » فقال لها : « أغلام سمح يقال له حاتم أحب إليك أم عشرة غلمة كالناس ؟ » فأجابت : « بل حاتم » . وإن عبد المطلب قد سمع عن الهواتف التي تأتي

للسوسة وهن في أشهر حملهن يبشرنهن بالمجد المنتظر للأجنة في أرحامهن ،
فقبل ما قالتة آمنة عن رضى ولم يجد شيئا غريبا في أن يسود محمد بن عبد الله
قومه ، فلو لم يخطف الموت عبد الله لساد قومه كما سادهم أبوه عبد المطلب
وجده هاشم من قبل . ترى أيلغ محمد في قومه ما بلغ كعب بن لؤى في
قريش ؟

وتذكر عبد المطلب ما بشره به كاهن اليمن . وما قالتة سودة بنت زهرة
كاهنة قريش لآمنة ، فأحس إحساسا غامضا أن سيكون لحفيده الذى بين
يديه شأن لم يبلغه حتى كعب بن لؤى .

وأخذه أبوه عبد المطلب وانطلق إلى الكعبة فأدخله على هبل ، فقام عبد
المطلب يدعو ويشكر الله ويقول :

الحمد لله الذى أعطانى	هذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد فى المهد على الغلمان	أعيذه بالبیت ذى الأركان
حتى يكون بلغة الفتیان	حتى أراه بالغ البنیان
أعيذه من كل ذى شأن	من حاسد مضطرب العنان

وسمع عبد المطلب مناديا ينادى :

— يا معشر قريش .. يا معشر قريش .

فخرج من جوف الكعبة ينظر فإذا بيوسف اليهودى ينادى :

— يا معشر قريش .. قد ولد نبي هذه الأمة هذه الليلة بجزرتكم

(ناحيتكم) .

وعاد عبد المطلب إلى دار آمنة وهو يضم الوليد إلى صدره كأنما يمنع عنه
أذى الناس ووضعه في حضن أمه ، وسرعان ما ملئت الدار بنساء بنى زهرة

وبنى هاشم للاحتفال بالمولود . وجاء الزبير وأبو طالب وإخوة عبد الله تهليل
أفدتهم بالفرح لمولد ابن أخيهم الراحل الحبيب .

وجلس عبد المطلب على فراشه في ظل الكعبة ، وجاء يوسف اليهودي
يسعى وجعل يطوف في أندية قريش يسأل عن مولود ولد الليلة فلا يجد
خبراً ، حتى انتهى إلى مجلس عبد المطلب فسأل :

— هل ولد فيكم مولود الليلة ؟

— ولد لعبد الله بن عبد المطلب غلام .

— هو نبي والتوراة .

وفي مجلس من مجالس قريش قال يهودي ممن كانوا يتجرون في مكة .

— يا معشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود ؟

— والله ما نعلمه .

— أما إذا أخطأكم فلا بأس فانظروا واحفظوا ما أقول لكم : ولد في هذه

الليلة نبي هذه الأمة الأخيرة ، بين كتفيه علامة فيها شعيرات متواترات كأئمن
عرف فرس ، لا يرضع ليلتين .

فتصدع القوم من مجلسهم وهم يتعجبون من قوله ، فلما صاروا إلى

منازلهم أخبر كل إنسان منهم أهله فقالوا :

— قد والله ولد لعبد الله بن عبد المطلب غلام .

فالتقى القوم فقالوا :

— هل سمعتم حديث اليهودي وهل بلغكم مولد هذا الغلام ؟

فانطلقوا حتى جاءوا اليهودي وقالوا : ولد لعبد الله بن المطلب غلام .

فقال اليهودي :

— فاذهبوا معي حتى أنظر إليه .

فخرجوا به حتى أدخلوه على آمنة فقالوا :

— أخرجني إلينا ابنك .

فأخرجته وكشفوا له ظهره فرأى تلك الشامة فوق اليهودى مغشيا عليه ،

فلما أفاق قالوا له :

— مالك ويحك ؟

— قد ذهبت والله النبوة من بنى إسرائيل فرحتم بها يا معشر قريش ، والله

ليسطون بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق والمغرب .

دعا زرادشت إلى عبادة إله واحد لا شريك له ، إله النور أهورا مزدا ، وقد تمكن الفرس بفضل ذلك الدين أن يسيطروا سلطانهم على الممالك من حولهم ، حتى كان عهد كسرى أنوشروان أعظم ملوك الساسانيين ، فقد بدا في ذلك العصر أن الفرس بلغت مجدها بينما كانت الحقيقة أن عوامل الهدم راحت تعمل عملها في البنيان الشاخ وأن دولة الفرس قد شهرت الخنجر لتطعن به قلبها ، فالدول تنتحر عادة بيدها قبل أن يغتالها قاتل يغزوها : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

وظل الفرس يعبدون الله ، فلما طال عليهم الأمد قست قلوبهم وراحوا ينقبون عن دياناتهم الوثنية القديمة ويمزجونها بما جاءهم به زرادشت ، فوجدوا أنهم كانوا يعبدون مثرا ذلك الإله الذي عرفه البابليون بشمس ، فقالوا كيف نرفض عبادة الشمس التي تضيء بنورها الكون كله ، والتي تنضج بحرارتهما غذاء الناس والحيوان ؟ فجعلوا مثرا ابن الإله أهورا مزدا وراحوا يؤكدون تلك الصورة في نقوشهم فجعلوا ملوكهم يتسلمون ولاية الملك من يد أهورا مزدا ، ويقف مثرا باكليله الذي يشع منه النور خلف الملك .

وأصبح مثرا ابن أهورا مزدا وصار ينقش على أعمدة المعابد ومن حوله التاج النوراني وعربة الشمس يجرها جوادان مجنحان ، وفتح باب الأساطير على مصراعيه فراح رجال الدين والكهان وأصحاب المصالح يدونون في

« الأوستا » كتاب زرادشت المقدس ما يشاءون . فطراً على الأوستا ما طراً على التوراة يوم أن أعاد أحرار اليهود كتابة التوراة في أرض السبي بعد أن حملهم بختنصر إلى بابل و حرق التوراة وقوض الهيكل .

كان زرادشت يخاطب إلهه ويدعوه باسم أهورا مزدا إله النور ، فلما أراد عبّاد أهورا مزدا أن يجسموا إلههم ويجعلوا لله رمزا لم يجدوا غير النار يرمزون بها إليه ، فجعلوا للبيت نارا وللقبيلة نارا وللقرية نارا (آذران) ولكل كور أو إقليم نارا (وهران) ، ورتب لتلك النيران حدّام فكان رب البيت هو خادم نار البيت ، وكان يخدم نار القرية اثنان من الهراّبذة على الأقل ، وكانت نار (وهران) تتطلب هيئة من الهراّبذة أكثر عددا يرأسها موبذ .

وبعد أن كانت النار رمزا لأهورا مزدا أصبحت مقدسة لذاتها ، وكان لا بد من فلسفة فكرة عبادتها وتقسيمها إلى نيران تسرى في كل شيء ، ف قيل إن « هوفريانة » هي النار التي توجد في جسم الإنسان والحيوان ، و « أوروازيسته » هي النار التي توجد في النباتات ، و « زيستا » هي النار الكائنة في السحاب أى الصاعقة ، و « اسنيشته » هي النار التي تشعل أهورا مزدا في الجنة ، وجعل المجد (خورانة) الذي يصاحب الملوك الشرعيين الآريين تجلياً لهذه النار الأخيرة النار السماوية .

وروت الأساطير أن أصل هذه النيران كان نيرانا ثلاثا : نار رجال الدين ونار رجال الحرب ونار الزراع . وقد كانت هذه النيران على ظهر ثور ركبه جماعة من الرجال ليصلوا إلى ستة أقاليم لم يكن في طاقة البشر بلوغها ، وفي ذات ليلة هبت الرياح فأسقطت النيران الثلاث عن ظهر الثور في وسط المحيط ، ولكن النيران نبتت من جديد على ظهر الثور فأضاءت الدنيا .

وقد بنى لهذه النيران ثلاثة معابد : نار فريغ ومعبدها فوق جبل خور همند

في خوارزم ؛ وآزر كشنسب ومعبدها في آزر بيجان وهي النار الملكية ، وكان الملوك الساسانيون يحجون إلى هذا البيت العظيم حين الأزمات ، وكانوا يهبونه هبات سخية من الذهب والأموال والأراضي والعبيد ، وكان الملك إذا ملك زاره ماشيا تعظيما له ؛ وكان معبد آذر برزين مهر معبد نار الزراع قائما في شرقي الدولة في جبال ريوند شمال شرقي نيسابور .

وما دام دين زرادشت قد بذل وفاض بالأساطير فكان لا بد من خلق أسطورة توضح بدء الخليقة ، وكان الأمر ميسورا بعد أن عرفت الفلسفة الهندية طريقها إلى فارس فقيل : إن دورة الدنيا تستمر اثني عشر ألف سنة ، ففي أثناء ثلاثة الآلاف سنة الأولى يبقى العالمان : عالم أهورا مزدا عالم النور ، وعالم أرهيمن عالم الظلمات متجاورين في هدوء ، والعالمان لا متناهيان من جوانب ثلاثة ، ولكن كلا منهما يحد الآخر في الجانب الرابع ، فعالم النور في الجانب الأعلى ، وعالم الظلمات في الجانب الأسفل ، وبينهما فراغ مملوء بالهواء .

وفي مدة ثلاثة آلاف سنة يعيش خلق أهورا مزدا بالقوة ، وبعد ذلك يرى أهرمن النور ويضممر إبادته ، فيبادر أهورا مزدا الذي يعلم الغيب بأن يعرض عليه حقبة من الحرب طولها تسعة آلاف سنة فيقبل أهرمن وهو لا يعرف غير الماضي ، وبعد ذلك ينبئه أهورا مزدا بأن المعركة تنتهي بهزيمة عالم الظلمات ، ويفزع أهرمن هذا فيسقط في الظلمات ويبقى فيها مثلولا مدة ثلاثة آلاف سنة ، فيبدأ أهورا مزدا بخلق الدنيا ، فلما أتمها خلق الثور المعروف بالثور الأول ، ثم خلق الإنسان الأول كيومرد (أى الحياة الفانية) الذي هو أول البشر . وحينئذ ألقى أهرمن بقوته ضد خلق أهورا مزدا فنجس العناصر وخلق طوائف من الزواحف والحشرات ، فأقام أهورا مزدا خندقا أمام

السماء ولكن أهرمن يكرر هجماته وينجح أخيرا في قتل الثور وكيومرد .
و كانت بذور كيومرد مخبأة في الأرض فنتج منها عند انقضاء أربعين سنة
شجرة خرج منها أول زوجين من البشر هما « مشيج » و « مشيانج » ،
وهكذا بدأت فترة اختلاط الخير بالشر ، وأخذ البشر يلعبون دورا في الحرب
بين مملكتي النور والظلمة وذلك بانضمامهم حسب أعمالهم إلى جانب الخير
أو إلى جانب الشر ، فمن اتبع الصراط المستقيم منهم كان يمر سالما بعد الموت
على الصراط المسمى « جينوت » ثم يدخل الجنة ، ولكن حينما يمر على ذلك
الصراط أحد الأشرار ثم يدق حتى يصير كالسيف القاطع فيهبو المجرم إلى
جهنم حيث يلقي من العذاب ما يعادل سيئاته ، أما من تعادلت موازينه
فكانت حسناته مساوية لذنوبه فإنه يقيم في « الهمشتكان » أى المكان
المتوسط حيث لا عقاب ولا ثواب .

وبعد ثلاثة آلاف سنة من خلق العالم يظهر زرادشت فيهدى الناس إلى
الدين الحق . وحينئذ لا يبقى للعالم في الوجود غير ثلاثة آلاف سنة . ففي
نهاية كل ألف يظهر مخلص يولد بطبيعة الحال من بذور زرادشت المخبأة في
إحدى البحيرات ، وفي اللحظة التي يولد فيها آخر المخلصين الثلاثة المخلص
الحقيقي تبدأ المعركة الأخيرة ، فيبعث الأبطال والتنانين الشيطانية التي ذكرها
التاريخ الخرافي لكي يتقاتلوا ، وأخيرا يبعث الموتى جميعا ، ويقع النجم المذنب
على الأرض فتشتعل وتذيب جميع المعادن فتنتشر على الأرض كأنها سيل
متهب .

وعلى الناس جميعا الأحياء والأموات المبعوثين أن يعبروا ذلك السيل الذى
يكون للأتقياء كاللبن الساخن فيطهرهم المرور به ويمضون منه إلى الجنة ،
وبعد المعركة الأخيرة بين الآلهة والشياطين تلك المعركة التي تنتهى بهزيمة

الشياطين وهلاكهم يسقط الشر إلى الأبد في الظلمات ، وتمتد الأرض وتبسط ، وتبقى الدنيا المطهرة إلى الأبد في سكون لا يعكر صفوه .
وكان ذلك يعرف في « الأوستا » بالتصفية والتجديد ، وقد سر أنو شروان في أعماقه بذلك الدين فراح يبحث عن الراحة النفسية في الفلسفة وإن أظهر تدينه لسواد شعبه ، فقد قام طبيبه برزويه بترجمة كتاب « كليلة ودمنة » وهو نص بهلوى لمجموعة من القصص وكان قد أتى بالأصل الهندي أثناء رحلته له إلى بلاد الهند .

وكتب برزويه مقدمة للكتاب بيّن فيها الحياة الإنسانية والأوضاع الاجتماعية في عصره ، وكشف عن روح قلق يبحث عن الحقيقة فلا يجدها لكأنما كان برزويه يعكس قلق أهل عصره ، قال :

وقد وجدت آراء الناس مختلفة وآراءهم متباينة ، وكل على كل عاد وله عدو مغتاب وفيه واقع ، فلما رأيت ذلك لم أجد في متابعة أحد منهم سبيلا ، وعرفت أني إن صدقت أحدا منهم لا علم لي بحاله كنت في ذلك كالمصدق المخدوع ... فلما تحررت من تصديق ما لا يكون ولم آمن إن صدقته أن يوقعني في تهلكة عدت إلى البحث عن الأديان والتماس العدل منها ، فلم أجد عند أحد من كلماته جوابا فيما سألته عنه فيها ، ولم أر فيما كلموني به شيئا يحق لي في عقلي أن أصدق به ولا أن أتبعه ، فقلت لما لم أجد ثقة آخذ منه فالرأى أن ألزم دين آبائي وأجدادي الذي وجدتهم عليه وهمت بذلك .

ثم التمست لنفسى مخرجا فقلت : إن كان ما يفعل هذا معذورا ... فلما ذهبت أتمس لنفسى في لزوم دين الآباء والأجداد ، ولم أجد لها على الثبوت على دين الآباء طاقة ، بل وجدتها تريد أن تتفرغ للبحث عن الأديان والمسألة عنها والنظر فيها ، هجس في قلبي وخطر على بالي قرب الأجل وسرعة انقطاع

الدنيا واغتياب أهلها وتخرم الدهر حياتهم . فلما خفت من التردد رأيت أن لا أتعرض له ولا لما أتخوف منه المكروه واقتصرت على كل شيء تشهد به العقول ويتفق عليه أهل الأديان ويُرى أنه صواب وحق ..

كان النسك ينافي دين زرادشت ولكن العدوى انتقلت إلى برزويه من النصرارى والمائوية والمزدكية ، فالتزم النسك وظل كسرى أنوشروان في قلقه وشكه وبخه عن الحقيقة عن طريق الفلسفة . بينا كان رجال الدين في معبد النار يرتلون الأدعية المقررة للأوقات الخمسة المحددة في النهار ، ويقومون بكل أعمال المذهب .

ووقف الهرايزة في المعبد وقد أخفوا أفواههم بأربطة لكيلا تلوث أنفاسهم النار ، يغذون النار بقطع من الخشب طهرت تطهيرا دينيا ، وهم يرتلون الأدعية الدينية ، ثم أخذ الهرايزة في نثر الهوما التي سبق أن دقوها في أهوان وهم يتلون عليها بعض آى الأوستا ، وارتفعت أصوات المؤمنين بدعاء مجد النار ، وسار الموبدان خادم النار الأكبر في قاعات المعبد المظلمة والنار مشتعلة فوق المذابح والأهوان تتألق والهرايزة يتلون الأوراد التي لا تنقطع بصوت مرتفع ولحن جميل حيناً وبصوت منخفض إلى حد التتممة حيناً آخر ، فأحس الموبدان راحة وتهللت نفسه بالفرح .

وجاء المساء وذهب الموبدان لينام وهو هادئ النفس مستريح الضمير وما مس الكرى عينيه حتى رأى فيما يرى النائم فرسا عربية هجمت على جمل شرس ، وثار النقع ودارت بين الفرس والجمل معركة رهيبه انتهت بأن صرعت الفرس الجمل .

وقام الموبدان من نومه مفزوعا وطلب من يفسر له حلمه ، فجاء رجل ممن يقرءون الطالع ويفسر الأحلام فقص عليه الموبدان حلمه ، فراح الرجل ينظر إلى النار

المقدسة ثم قال :

— إن صدقت رؤياك فإن العرب يغزون فارس .
وساد القاعة وجوم ، ترى أو شكت نبوءة ساسان أن تتحقق ؟ أن ينتزع
العرب الملك من الساسانيين ؟ هل أظّل العالم ذلك النبي العربي الذى
أوصاهم زرادشت بأن يستمسكوا بما جاءهم به حتى يبعث صاحب الجمل
الأحمر ؟ فى تلك الليلة كان يهودى فى يثرب يقف على أطمه ويصيح : « طلع
نجم أحمد » ، وكان يوسف اليهودى ينادى فى مكة : يا معشر قريش . قد ولد
نبي هذه الأمة هذه الليلة فى بھرتكم .

نشبت الغيرة بين روما عاصمة الدولة الرومانية القديمة ، والقسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ، فروما في أيام الرسل كانت أفضل الأماكن لتكون العاصمة الدينية للدولة ، فبطرس أمير الرسل ختم حياته أسقفا لروما ، فلما فقدت روما مركزها السياسى ولم تعد عاصمة العالم بعد أن بنى قسطنطين القسطنطينية واتخذها قسبة إمبراطوريته الجديدة ، تشبثت روما بمركزها الدينى وعضت كنيستها بالنواجذ على انتسابها إلى بطرس الرسول وتمسكت بمقامها السامى .

وكانت كنيسة روما تبغض كنيسة القسطنطينية كل البغض ، وكان التنافس بينها وبين غريمها أشبه بالتنافس بين الرومان والفرس ، لكأما أصبحت الخدمة الدينية تنافسا على مغام دنوية حتى إن كنيسة روما كرهت كل الكراهية أن تصبح كنيسة القسطنطينية فى المقام الثانى بعدها !.

كانت القسطنطينية تقول إنها روما الجديدة ومن حق كنيستها أن تكون الكنيسة التالية لكنيسة روما ، ولكن كنيسة روما قالت إن كنيسة الإسكندرية هى الكنيسة الثانية بعدها لأن مؤسسها مرقص الرسول ، وروما لا تعترف إلا بالكنائس التى أسسها الرسل .

وزاد مرارة الموقف وانقسام العالم المسيحى الخلاف الذى شجر بين الإسكندرية والقسطنطينية حول طبيعة المسيح والتجاء كل منهما إلى روما لاثماس التأيد ، وأحست روما خطرهما فظلت مستمسكة بأن رأياها ووجهة نظرها ينبغى أن يسود دون مناقشة ، على حين أن القسطنطينية كانت تقبل ما تديعه روما إن أقره مجلس

مسكونى ، بينما كانت الإسكندرية تؤثر أن تنفصل عن كنيسة روما وأن تعارض بعض ما يتقرر فى المجالس المسكونية عن أن تتخلى عن لاهوتها .
لم يعيش الإسلام الذى جاء به السيد المسيح على الأرض طويلا فقد كان من سوء حظ الدين الجديد أن احتل بولس مقعد السيد المسيح فغمر الدين بالفلسفة الرواقية وأساطير الوثنيين ، وكان من سوء حظه أن اعتنق قسطنطين الوثنى دين بولس فابتدع بدعة المجالس المسكونية التى كان لها حق التشريع الدينى ، وقد كانت تلك المجالس تخضع لهوى الأباطرة فكانت تحرم فى بعضها بعض ما كانت قد أحلته من قبل وتحلل ما كانت قد حرمته . وكانت المجالس المسكونية السبعة تعد هى والكتب المقدسة التى سلمت من يد قسطنطين أساسا للعقيدة الأرثوذكسية .

اجتمع كل مجلس من تلك المجالس للبت فى نقطة خاصة من نقاط اللاهوت وإصدار حكمه ضد زندقة معينة ، وقد انتصرت النصرانية على الوثنية وهى تخوض إحدى حروبها الأهلية يوم كان أتباع آريوس يحاولون بإنكارهم الألوهية التامة للمسيح أن يؤسسوا فكرة عن الربوبية تنطوى على قدر أكبر من التوحيد .

وأصدر أول مجمع مسكونى وهو مجمع نيقية قرارا باستئزال اللعنة عليهم ، ولكن الذى حدث هو أن مذهب آريوس ظل طول القرن الرابع بأكمله يستمتع بمحبة الدوائر الراقية بالقسطنطينية ، ولم يقض على ذلك المذهب ببلاد الشرق إلا بعد انعقاد المجمع المسكونى الثانى فى سنة ٣٨١ ، أما فى الغرب فإن هذا المذهب عاش قرونا عقيدة يؤمن به القوط .

وظلت الإسكندرية طوال القرن الخامس وهى تحاول أن تتابع نصرها بإرغام المسيحية على الأخذ باللون الخاص الذى اتخذته للاهوتها ، وقد سنحت

فرصتها المواتية عندما ذهب نسطوريوس بطريرك القسطنطينية إلى تقسيم طبيعة المسيح إلى شقين : لاهوتى وناسوتى .

وكره الناس هذه الحركة لأنها تهاجم مكانة مريم البتول نصيرة القسطنطينية وراعتها المحبوبة التى كانت مهددة بسبب ذلك إلى حرمانها من لقبها : أم الرب ، فاتحدت روما والإسكندرية لمناهضة هذا المذهب الجديد . واجتمع المجلس المسكونى الثالث فى أفيسوس وأصدر قراره ضد ذلك المذهب بفضل قوة شخصية بطريرك الإسكندرية كيرلس ، وعقب ذلك المجمع انسحبت بعض كنائس شمال سورية وأسست هيئات مستقلة تحت حماية الفرس .

وقضت الإسكندرية على نفسها بفراط مبالغتها ، فقد راح بطريقتها ديوسقوروس يغوص وراء نظرية (بوتيخوس) عن المسيح ، وهى النظرية الداعية إلى وحدة طبيعة المسيح ، ولم توافق روما على الفكرة وآثر البلاط الإمبراطورى أن يتمشى مع مزاج روما . ونعى المجلس المسكونى بخليونية على ديوسقوروس آراءه ، وعندئذ أصبح أصحاب مذهب وحدة طبيعة المسيح هراطقة وصاروا موضع اضطهاد الأباطرة ورجال الدين فى روما والقسطنطينية .

وكانت المسائل اللاهوتية المختلف عليها فى الخصومات المتعلقة بوحدة طبيعة المسيح صغيرة نسبيا ، فقد كانت تدور حول الفرق بين طبيعة واحدة وطبعتين لا يمكن الفصل بينهما . ولكن النتائج السياسية كانت هائلة ذلك أن مذهب وحدة طبيعة المسيح ظل مشكلة متسلطة على تاريخ الإمبراطورية زهاء قرنين من الزمان . وفى المجمع المسكونى الخامس المنعقد فى القسطنطينية فى سنة ٥٥٣ اعترف يوسطيانوس بإخفاقه فى نشر ميثاق يوفى بين الطرفين

المتنازعين .

وكان نبدأ أى قانون يصدر عن المجالس العامة للكنيسة يعتبر زندقة ومروقا من الدين ، ذلك أن القوم كانوا يرون أن أى مجلس مسكونى هو الهيئة الملهمه التى تعد قراراتها ملزمة لعالم المسيحية . وقد كان كل مذهب يعرض على المجالس المسكونية يجد له مؤيدين وأنصارا ، وقد كان هؤلاء يظنون على مذهبهم حتى بعد رفض المجالس لذلك المذهب ، وكانت النتيجة الطبيعية انشقاق العالم المسيحى إلى فرق متنافرة يكفر بعضها بعضا .

فتح بولس أبواب الخلاف على مصاريعها منذ أن ادعى أنه رسول السيد المسيح إلى أتباعه المؤمنين . ولم تعرف المسيحية الاستقرار لحظة واحدة بعد أن تطورت من دين سمح بسيط ، دين سماوى يدعو إلى الإسلام وعبادة الله وحده ككل الديانات السماوية من قبله إلى دين مزج بالفلسفة وأحيا الوثنيات وأصبح ميدانا لأهواء البشر يقررون في مجامعهم ما يشاء الأباطرة وأصحاب النفوذ ، ويضاهئون قول الذين من قبلهم فصارت تعاليم السماء تنسخ وتحرف وتبدل ، وأصبح الإله الواحد القهار هو المسيح ابن مريم مرة « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم » وأصبح الأب والمسيح الابن مرة أخرى « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا إدا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً . أن دعوا للرحمن ولدا . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا . إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً . » وأصبح مرة ثالثة ثالث ثلاثة « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم . أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه ، والله غفور رحيم . ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ، انظر

كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون .

وكان المسيحيون يرقبون ظهور الفراقليط الذى بشر به المسيح ، وقد زعم بعضهم أنهم ذلك النبى الذى بشر به عيسى ابن مريم ، ولم يجد هؤلاء أذنا واعية فلم يكونوا من أبناء أعمام موسى كما بشرت التوراة ، وزعم ماني فى فارس أنه « الفراقليط » ولكن الزرادشتيين المؤمنين كذبوه وقالوا إن زرادشت قد بشر بنبى يأتى من بلاد العرب .

وراح بعض الرهبان يعتزلون العالم فى صوامعهم انتظارا لحيى « الفراقليط » ، وكانوا إذا ما خرجوا من صوامعهم يحدثون الناس عن النبى المنتظر الذى بشر به موسى وعيسى والأنبياء جميعا .

إنه لا يتكلم من نفسه بل يتكلم بما يسمع « لا ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى . علمه شديد القوى . » وسيمكث مع الناس إلى الأبد . « يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير . قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . »

كان الأساقفة والقديسون يقومون بالشعائر الدينية ، وفى نفس الوقت يراعون النجوم ويفسرون الأحلام ويعقدون الجلسات التى يتخذون فيها من الراهبات وسيطات ، وكانت النيازك والكسوف تدلهم على الكوارث والملمات ، وكان رجال منهم يقومون بالتنجيم وقراءة المستقبل .

وكانت قاعة العرش فى القصر القيصرى بالقسطنطينية تستقبل المنجمين وقراء المستقبل والناظرين فى النجوم . وفى ذات يوم جاء العرافون وقد أطفأوا برءوسهم ولاح فى وجوههم الهم الشديد ، فقال لهم الإمبراطور :

— ما وراءكم ؟

فلزموا الصمت فقال القيصر :

— قولوا .

— ولنا الأمان ؟

— ولكم الأمان .

فقال قائل منهم :

— إن الإمبراطورية سيدمرها شعب مختون^(١) .

وساد القاعة وجوم ، ولم يدر بخلد أحد أن نهاية الإمبراطورية الرومانية ستكون على يد العرب ، فقد كان العرب في ذلك اليوم الذى ولد فيه الهدى أهون من أن يفكر الأباطرة فيهم . فذهبت الأفكار إلى اليهود فراح قياصرة الروم يضطهدونهم ويسومونهم من العذاب ألوانا . بينا كان محمد بن عبد الله « الفراقليط » الذى بشر به عيسى بين أحضان آمنة بنت وهب في دور بنى هاشم التى تطل من فوق الصفا على الكعبة ..

(١) انظر فريد جاريوس فى M.P.L. مج ٧١ ص ٦٤٦ .

وحزنت آمنة على عبد الله حزنا كاد يودى بها إلى البوار ، فقد أحبت فتى
بنى هاشم وراحت تحلم بمستقبل بسام يجمع بينها وبينه ، وما كادت تستهل
حياة الزوجية السعيدة ، حتى اختطفه الموت وهلك في أرض غريبة دون أن
تراه .

إنها استسلمت للأسى والدموع ولولا ذلك الذى كان يتحرك في بطنها
لرفضت الحياة ، فقد كانت ترى رحلة الحياة طويلة مملة ممضة دون رجلها
الذى شغفت به حبا .

كانت لياليها فراغا ونهارها آلاما ، ولولا الرؤى العذاب التى كانت تطوف
بها تخفف من لوعتها ولولا الهواتف التى كانت تهتف بها تبشرها بمستقبل عظيم
لابن عبد الله لانفطرت كبدها وتصدع فؤادها وفتك بها حزنها وطويت أيامها
القصيرة فى الأرض .

لم تحس آمنة مشقة طوال شهور الحمل ، ولم تحس مشقة حين وضعته .
ترى أكانت ذاهلة بآلام النفس التى كانت تفوق آلام الجسد ؟ إنها لم تغب عن
وعينا لحظة واحدة . كان أنفها يشم روائح أطيب من الطيب ، وكانت عينها
تريان نورا الكأنة كان آتيا من فوق السموات ، ولما وضعته رأت نورا يخرج منها
قد فاض حتى خيل إليها أنه غمر كل الأرض .

لم تكن تحلم بل كانت مرهفة الحس صاحبة الحواس وإن كان واقعها أقرب
إلى الرؤى والتخيلات ، حتى إنها كادت تعتقد أن ما هى فيه إن هو إلا سبحة

من سبحات الخيال ، وكانت الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف وبركة جارية عبد الله الحبشية تحدثانها في دهشة عما تريان وعما تحسان ، إنهما تريان نفس ما ترى ، وتحسان نفس ما تحس .

ونظرت آمنة إلى وليدها في حب شديد وهي تحاول أن تلقمه ثديها ، ولكن الوليد أقفل فمه فانتابها خوف على حبيها ، ودار بخلدها أنه لم يرضع لجفاف لبنها فقد أثر حزنها على عبد الله على كل كيائها . وبعثت بركة تستدعى ثوية موضعة حمزة بن عبد المطلب ، فلما جاءت ثوية التمسست منها أن ترضع محمدا فأخذته لترضعه ، ولكنه لم يلتقم ثديها فاشد جزع آمنة وربما خوفها .

ومضى أول يوم من مولده دون أن يرضع ، وانقضت ليلته الأولى وهو شاخص يبصره إلى القمر كأنه يناجيه دون أن يدخل جوفه شيء ، وباتت آمنة إلى جواره وهي تبذل كل ما وسعها الجهد لترضعه دون جدوى . وغفت آمنة عفوة وبركة إلى جواره وترنو إلى وجهه الجميل فتستشعر كأن كنوزا من الحب تفجرت في وجدانها .

وذاع في دور بنى هاشم أن ابن عبد الله مرض وأنه لم يرضع مذ وقع على الأرض ، فجاء بعض نسوة بنى هاشم إلى آمنة وراحت كل منهم تصف دواء ، وانقضى اليوم الثاني كما انقضى اليوم الأول : إعراض من محمد عن الرضاعة وشخوص يبصره إلى السماء ، وقلق وخوف وهلع يستولى على الأم التي كانت تشفق على ابنها اليتيم فباتت تخاف عليه أن يلحقه البوار .

وتصرمت الليلة الثانية وآمنة ساهرة إلى جوار ابنها لم تغمض لها عين . إنه ينظر إلى القمر كأنه يناجيه . كان مفتوح العينين لم يبد في وجهه الذبول بل تترقق الحياة في محياه وإن لم يعرف الغذاء طريقه إلى جوفه ، لكأنما كان منذ مولده يفضل غذاء الروح على غذاء الجسد ويقدم ضرورة النفس على ضرورة

البدن .

وترقرقت الدموع شفقة في عيني آمنة . أيعيش ابنها يومين دون أن يطعم ؟
دون أن يدخل جوفه شيء ؟ وحاولت أن تلقمه ثديها إلا أنه زم شفثيه . وفي
الصباح جاءت ثوية وما إن أعطته ثديها حتى أخذه وراح يرضع ، فتهللت
أسارير آمنة بالسرور وانشرح صدرها وطفرت إلى مآقيها العبرات .
وذاع في دور بنى هاشم أن ابن عبد الله قد برأ مما ألم به . فجاءت هالة بنت
وهيب وهي تحمل ابنها حمزة ، وجاء بعض نسوة بنى هاشم لزيارة آمنة ، وما
كاد يستقر بهن المقام حتى أقبل عبد المطلب وفي يده ابنه العباس وكان ابن ثلاثة
أعوام ليرى حفيده .

وحملت بركة محمدا وجاءت به إلى العباس لينظر إليه فجعل النسوة يقلن
للعباس :

— قبل أخاك .. قبل أخاك .

فمال العباس على ابن أخيه وقبله ، وعبد المطلب ينظر وقد انبعثت فيه
عواطف رقيقة حانية . وأعادت بركة محمدا إلى فراشه ، وبعد قليل أنامت هالة
ابنها حمزة بن عبد المطلب إلى جواره ، وانسل العباس لينظر إلى أخيه وابن أخيه
وما خطر على قلب أحد من الذين أخذوا بأطراف الحديث أن في فراش الوليد
وعلى جواشيه اجتمع مجد الأرض ومجد السماء .

وجاء اليوم السابع من مولده فذبح عبد المطلب عنه وأقام وليمة دعا إليها
قريشا ودبت الحياة في شعب بنى هاشم ، كان الحارث والزبير وأبو طالب
وأبناء المطلب فرحين مستبشرين . وكان العباس يغدو ويروح بين إخوته ثم
استقر في حجر أبيه ، وانتهى الناس من الطعام والشراب والتفت أحدهم إلى
عبد المطلب وقال :

— يا عبد المطلب أرأيت ابنك هذا الذى أكرمتنا على وجهه ما سميته ؟
— سميته محمدا .

— فما رغبت به عن أسماء أهل بيته ؟

— أردت أن يحمد الله فى السماء وخلقه فى الأرض .

ولم تمطر السماء فى هوازن فكانت سنة جدب وشدة ، ففكرت بعض أسرات من بنى سعد أن تخرج إلى مكة التماسا للرضعاء فقد كان أشرف مكة يدفعون بأبنائهم إلى البادية ليعدوهم عن قيظ بلادهم وليلتقطوا الفصاحة من أهل الصحراء . وكانت الأسرات البدوية تتنافس على أبناء الأثرياء دفعا لغائلة الجوع التى تهددهم فى السنين الشهباء .

قدمت مكة فى اليوم الثامن لمولد محمد عشر نسوة من بنى سعد بن بكر يلتمس بها الرضعاء ، وكانت فيهن حليمة بنت أبى ذؤيب ، وهو عبد الله بن الحارث بن شجينة بن جابر بن رزام بن ناصرة بن سعد بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس عيلان بن مضر .

كانت حليمة على أتان عجفاء كانت من شدة ضعفها تعطل سير الركب ، وكان معها صبى وناقة ما تبض بقطرة لبن ، وكان يسير إلى جوارها زوجها الحارث بن عبد العزى . وقد تقضت ليلة وهم فى الطريق لم يذوقوا فيها طعم النوم من صبيهما من بكائه من الجوع لا تجد فى ثديها ما يغذيه ولا فى ناقته ما يغذيه ، ولكنها كانت ترجو الغيث والفرج .

وبلغ ركب بنى سعد البيت المقدس فكان أول ما فعلوه أن طافوا بالحرم ثم جلسوا ينتظرون موليد أشرف مكة وسادتها ، وذاع فى الدور أن نسوة من بنى سعد قد من يلتمسن الرضعاء فخرج الجوارى والعبيد يحملون الأعزة على سواعدهم ، وجاء عبد المطلب ومن خلفه بركة وعلى يديها محمد بن عبد الله

ولم يمض على مولده غير ثمانية أيام .

وعرض عبد المطلب حفيده على إحداهن فالتفتت إليه وقالت :

— أنت أبوه ؟

— لا . أبوه قد مات .

— يتيم ؟

فأوماً عبد المطلب برأسه فى أسى .

فقالت المرأة :

— ماذا عسى أن تصنع إلينا أمه ؟

كان عبد المطلب سيد قومه وكان يطعم حتى الطيور والجوارح والوحوش فى رعوس الجبال ، وعلى الرغم من صيته وغناه أعرضت المرأة عن حفيده ، فبعد المطلب يوم فى مكة ويوم فى اليمن ويوم فى الشام ، ومن يدرى فقد ينصرم أجله ويصبح عبثاً على من يأخذه .

وذهب عبد المطلب بمحمد إلى امرأة أخرى ، وأبت المرأة أن تأخذه لما

علمت أنه يتيم وقالت :

— إنما نرجو المعروف من أى الولد ، فأما أمه فماذا عسى أن تصنع إلينا ؟

ووقفت آمنة على البعد تنظر وعبد المطلب يدور بابنها الحبيب على المراضع

والنسوة يجفلن منه لأنه يتيم ، كأن اليتيم عندهن بلاء يستوجب الإعراض

والفرار .

وذهب عبد المطلب إلى حليلة وقد كانت ذابلة عجفاء وقد وصل إليها نبأ

حفيد عبد المطلب اليتيم ، وتقدمت آمنة خطوات وأرهفت سمعها لتلتقط ما

تقول السعدية ، وإذا بصوت المرأة يقرع أذنها ويحرك أشجانها فتمتلئ بالعبرات

مآقيا ، قالت حليلة :

— يتيم؟ ماذا عسى أن تصنع لنا أمه؟ إنما نرجو المعروف من أبيه .
عرض عبد المطلب حفيده على النسوة العشر فأبين جميعا أن يأخذنه ،
فأطرقت آمنة وسارت في خطى وئيدة حزينة والأسى يهصرها هصرًا . ولو
أصغت إلى الوجود لالتقطت أذناها صوت السيد المسيح وهو يقول :
« الحجر الذى رفضه البناءون صار حجر الزاوية » ، ولتهللت نفسها بالفرح
ولانقضت تلك الدموع التى بللت روحها .

ودارت بركة جارية عبد الله الحبشية على عقبها وهى تنظر إلى ابن عبد الله
فى إشفاق وقد حرك عواطفها أن النسوة جميعا تركنه لموت أبيه ، وزاد فى
أساها أن أصوات النساء راحت ترن فى أعماقها : يتيم؟ يتيم؟ يتيم؟ فتمزق
نياط قلبها .

وراحت حليلة السعدية تلتفت فرأت أنه لم يبق من صواحبها امرأة إلا
أخذت رضيعا غيرها ، فمن ذا الذى يدفع بابنه إلى امرأة لا تجد فى ثديها ما
يسكت بكاء ابنها ؟

وأجمع النسوة على الانطلاق ، فذهبت حليلة إلى زوجها وقالت :
— والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ليس معى رضيع . لأنطلقن
إلى ذلك اليتيم فلاأخذنه .

— لا عليك أن تفعلى ، فعسى أن يجعل الله لنا فيه بركة .
لم تتحرك شفقة حليلة السعدية لذلك اليتيم بل كرهت أن تعود دون
رضيع ، فذهبت وأخذته وما أخذته إلا أنها لم تجد غيره .
وعادت حليلة بمحمد إلى رحلها وألقمته ثديها فإذا به يجود باللبن ،
والتفتت حليلة إلى زوجها الحارث وفى عينها دهشة وفرح . وشرب محمد

حتى روى وأعطت ثديها ابنها فشرب حتى روى .

وجاء الليل ونام الصبي وعرف الوسن إلى عيني حليلة وعيني الحارث
فباتوا بغير ليلة ، فلما أصبح الصباح قام الحارث منشرح الصدر وألقى نظرة
على محمد فألفاه يهادئا ساكنا ، وأحس أن قلبه قد تفتح لذلك الصبي فالتفت
إلى حليلة وقال :

— والله إنى لأراك قد أخذت نسمة مباركة .

جاء زيد بن عمرو بن نفيل إلى الكعبة وهو راكب جملة ، وألقى نظرة على الأصنام التي وضعت في داخل أول بيت وضع للناس وحوله فأحس أعماق الأسي ، وسرح به الخيال فرأى نفسه في نفر من قريش : ورقة بن نوفل وعثمان ابن الحويرث وعبد الله بن جحش بن أميمة بنت عبد المطلب ، وقد حضروا عند وثن لهم كانوا يذبحون عنده لعيد من أعيادهم وقد خلا بعضهم إلى بعض وقالوا :

— تصادقوا وليكنتم بعضكم على بعض .

فقال قائل منهم :

— تعلمن والله ما قومكم على شيء ، لقد أخطئوا دين إبراهيم وخالفوه .
وثن يعبد لا يضر ولا ينفع ؟ فابتغوا لأنفسكم .

ورأى زيد نفسه وقد عزم على الخروج من مكة ليطلب الدين القيم ، ورأى زوجه صفية بنت الحضرمي وهي تنسل إلى أخيه الخطاب بن نفيل وتوسوس له برغبة زيد ، فيقبل الخطاب يرغى ويزبد ويتوعد ويذل كل ما في جهده ليحول بين أخيه والخروج لالتماس دين غير دين آبائه .

وفي غفلة من الخطاب وضيغه انفلت إلى الشام وراح يطلب في أهل الكتاب الأول دين إبراهيم ، ثم انطلق إلى الموصل وجاب الجزيرة كلها ، ثم أقبل حتى أتى الشام فجعل فيها حتى أتى راهبا بيعة من أرض البلقاء فسأله عن

الحنيفية دين إبراهيم ، فقال له الراهب :

— إنك لتسأل عن دين ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم ، لقد درس من علمه وذهب من كل يعرفه .

— على أى دين كان ؟

— كان حنيفا لم يكن يهوديا ولا نصرانيا . كان يصلى ويسجد إلى هذا البيت الذى ببلاكك ، فالحق ببلاك فإن الله يبعث من قومك فى بلدك من يأتى بدين إبراهيم الحنيفية .

ورأى ورقة بن نوفل وقد تنصر ، وعثمان بن الحويرث وقد اعتنق المسيحية ومال إلى الروم وقد راحت تراوده فكرة الانطلاق إلى القسطنطينية ، ثم رأى نفسه وقد كره الدخول فى المسيحية أو اعتناق اليهودية وآثر أن يحاول أن يعبد الله على ملة إبراهيم .

وظل زيد على ظهر جملة ينظر إلى الكعبة وهو شارد ، فرأى نفسه وقد عاد إلى مكة ليدعو قومه إلى دين أبيهم إبراهيم ، فإذا بأخيه الخطاب يغلظ له فى القول ويحرض الناس عليه وآذاه أذى كثيرا حتى خرج منه إلى أعلى مكة . ولم يقنع الخطاب بذلك بل وكل به شبابا من قریش وسفهاء من سفاههم وقال لهم : « لا تتركوه يدخل » . ورأى زيد نفسه وهو يدخل مكة سرا يتلفت خشية بطش أخيه به .

وسرح خياله فإذا به يتذكر ذلك اليوم الذى جاء فيه إلى مكة والناس يذبجون الذبائح لآلهتهم ويذكرون عليها أسماء تلك الآلهة ، فقال لهم :

— الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء وأنبت لها من الأرض ، ولم

تذبحوها على غير اسم الله ؟

كان يوما قاسيا شديدا فقد قام إليه الرجال وأوسعوه ضربا حتى كادت تزهق روحه ، إنه لا ينسى ذلك اليوم وإنه ليعجب لقومه يضطهدونه لأنه يدعوهم إلى دين أبيهم إبراهيم ، بينما يسير ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبد الله بن جحش آمنين وقد خرجوا عن دين القوم واعتنقوا النصرانية .

ورفع زيد يديه إلى السماء وقال :

— اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم . اللهم إني لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك ولكني لا أعلم .

ثم سجد على راحلته وانصرف راضيا وكل خلجة من خلجات نفسه

تقول :

— إلهي إله إبراهيم ، وديني دين إبراهيم .

وجاء أوان الحج فأقبل العرب من كل فج عميق يطوفون بالبيت العتيق ويذبحون عند إساف ويتمسحون بالأصنام ، وأقبل زيد بن نفييل ودخل الكعبة ثم قال :

— لبيك حقا حقا ! تعبدا ورقا ! عذت بما عاذ به إبراهيم وهو قائم ، إذ قال

إلهي أنفي لك عان راغم ، مهما تجشمني فأني جاسم ، البر أبغى لا أنحال ، ليس مهجر (في شدة الحر) كمن قال .

ووقع بصره على هبل وقد خف الناس إلى كاهنه ليستقسموا بالأزلام

عنده ، فقال :

— هذه قبلة إبراهيم وإسماعيل . لا أعبد حجرا ولا أصلى له ولا آكل ما ذبح

له ولا أستقسم الأزلام ، وإنما أصلى لهذا البيت حتى أموت .

ووقف الحمس يقدمون ثياب الطواف للناس إعاراة أو كراء فقد أذاعوا بين

الحجيج أنه لا يجوز الطواف في ثياب اقترفت فيها الخطايا ، وراح الفقراء يطوفون عرايا ، أما الذين طافوا في ثيابهم فقد خلعوا ثيابهم بعد الطواف وطرحوها لقمي لتبلى من وطأة الأقدام ولفح الشمس وهبوب الرياح .
وراح الحجيج يسعى بين الصفا والمروة إحياء لذكرى هرولة هاجر لما كانت تبحث عن ماء لابنها إسماعيل الذي كان يموت عطشا . وأقبل الناس على ماء زمزم الذي وضعه عبد المطلب في أحواض من آدم وبث فيه التمر والزبيب .

وراح الناس يمارسون شعائر الحج التي بقيت من أيام أبيهم إبراهيم الخليل وقد اعتورها ما اعتور الدين القيم من تبديل ، فقد وضعت الأصنام في الأماكن المقدسة على الصفا والمروة وعلى جبل ثبير ، بل تكدست الأصنام في جوف منارة التوحيد تكديسا .

كان إبراهيم يليى في الحج : « لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك ! » . فلما عرف العرب عبادة الأوثان تبدلت التلبية لتتفق مع معتقدتهم الجديد ، فأضافوا إلى تلبية التوحيد تلبية الشرك فتجاوبت في عرفات نداءات المشركين كانوا يحسبون أنهم يحيون شعائر إبراهيم الخليل :
— لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك لبيك ! إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك .

وضاق زيد بذلك الشرك وهو واقف معهم على عرفات وقد التصق كتفه بأكتاف سادات قريش وأشرف العرب ، ولكنه ما كان قادرا على أن يفعل شيئا . أيستطيع أن يكلم هذه الأفواه التي تضج بتلبية إبراهيم الخليل وقد دنس توحيدها الرائع شرك ميين ؟ إنه أعجز من أن يقف في وجه ذلك الطوفان من

البشر الذى اختلط في وجدانه الكفر بالإيمان . وتذكر قريشا وهى تطوف بالكعبة وتقول : « واللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، فإنهن الغرائق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى » . فامتلاً فؤاده أسى وحسرة على قومه الذين يتشفعون إلى الله بأصنام لا تنفع ولا تضر .

وراحت تلبية الشرك ترن في أذنيه وتؤلّم روحه ، وأراد أن يصم أذنيه عن تلك التلبيات التى ظاهرها وباطنها عذاب فارتفع صوته يردد :

— لبيك لا شريك لك ولا ند لك ! .. لبيك لا شريك لك ولا ند لك !
ولكن صوته ضاع بين الأصوات المشتركة التى كانت تتصاعد مدوية تريد أن تبلغ السماء .

كان على عرفات عرب من الحيرة والشام ويثرب وحمود وتيماء ومن كل قبائل الحجاز واليمن قد جاءوا كلهم ليؤدوا فريضة أبيهم إبراهيم الخليل . وكان منهم حنفاء يؤمنون بالله وحده وإن كانوا لا يعرفون على أى وجه يعبدونه . وصابئة يعبدون الله وصابئة يعبدون الملائكة وصابئة يعبدون الكواكب والنجوم . وكان فيهم من يعبد الأصنام وهو يعتقد أنها رمز لقوى فوق قوى البشر ، ويؤمن بأنها تدير وتدبر سير الطبيعة وسير حياة الإنسان ، ومن يعبدها وهو يعرف أنها رمز للشمس والقمر فقد كانت عبادة الشمس والقمر في العرب قبل أن يهديهم إبراهيم الخليل إلى الله ، وقد ارتدوا إليها لما طال عليهم العهد وطمرت أساطير الأولين جوهر دين الإسلام . ملة أبيهم إبراهيم .

كان العرب الذين جاءوا من كل فج عميق ليقفوا جنبا إلى جنب في عرفات يؤمنون جميعا برب البيت . وما تحملوا متاعب السفر إلى الحرم إلا لاستماتته واسترضائه لعله يرضى عنهم ولكنهم ضلوا الطريق إليه ، تقربوا إليه بالملائكة

والكواكب والنجوم ، وبالأصنام والأوثان ، وجعلوا له أندادا وشركاء
وبنات يشفعون لهم ويقربون إليه زلفى .

وعلى عرفات نسى عرب الحيرة أنهم عرب الفرس ، ونسى عرب
الغساسنة أنهم عرب الروم ، ونسى عرب القبائل ما بينهم من عداوات وإحن ،
وتوجهوا جميعا بقلوبهم إلى السماء وإن كانت ألسنتهم تلبى تلبيات تضلهم عن
سبيل الله .

وراح عبد المطلب وبنوه يسهرون على راحة حجيج بيت الله يقدمون
الطعام لمن يحتاج إلى طعام ، ويسقون الناس وهم يلبون تلبية قريش وإن
اختلفت فكرة كل منهم عن إلهة ، كان عبد المطلب يؤمن ببعض ما سمعه من
يهود يثرب أيام كان صبيا ، وكان يعتقد مثلهم أن ليس بعد هذه الحياة حياة ،
وأن المرء يجزى بأعماله في هذه الدنيا ؛ ولكن تجارب الأيام علمته أن بعد هذه
الحياة حياة أخرى يحاسب فيها المرء على أعماله إن خيرا فخير وإن شرا فشر .
وكان بعض قومه يؤمنون بالآخرة فكانوا يربطون ناقة الميت عندما يموت إلى
قبره حتى تموت معه لكي يمتطيها يوم الحساب ويسير بها إلى الصراط .

وكان أبو طالب وأبو لهب والحارث والزبير يعتقدون أن ليس بعد هذه
الحياة حياة ، كانوا من شباب قريش الذين أنكروا البعث . وقد كان كثير من
شباب مكة مثلهم يعكفون على شرب الخمر وعلى اللهو ولا يتصورون أن تلك
الأصنام التي يعبدونها قادرة على أن تحييهم مرة أخرى بعد أن يكونوا عظاما
ورفاتا ، وكانوا يتقربون إلى آلهتهم بالقرابين والدعوات لتجزيهم على أعمالهم
في الحياة الدنيا .

وكان العباس في كنف أمه ينتظر أوبة أبيه عبد المطلب من الحج ، وكان

حمزة بن عبد المطلب بين ذراعى هالة بنت وهيب لا يدرى ما الحج وما البيت وما الآلهة ، وكان محمد بن عبد الله فى بنى سعد ترضعه حليلة ويتطلع إلى وجه إخوته من الرضاعة عبد الله بن الحارث وأنيسة بنت الحارث والشيماء ، وكانت تحضنه مع أمها وقد تعلق قلبها بحب الوليد الذى جاءهم من حرم الله .

وراحت قبائل العرب تضج بالتلبية والشمس تميل للغروب وقد أطالوا النظر إلى أصنام آلهتهم التى جلبوها معهم . ولو أصاخوا سمعهم إلى دعاء أبيهم إبراهيم الخليل يوم أن جاء إلى الوادى المقدس : « وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام . رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم . » لحطموا آلهتهم ، ولكن طال عليهم الأمد وقست قلوبهم فجعلوا لله أندادا .

وراحت الشمس تغيب فى الأفق البعيد فانطلقت من الخناجر ابتهالات وخفقت القلوب بين الصدور وانهمرت الدموع من العيون وترقب الناس أن تتجلى عليهم السماء . وما إن غاصت الشمس فى رمال الصحراء وغابت عن العيون حتى نفر الحجاج إلى منى وهم يلبون تلبية الشرك ، وانطلق زيد بن نفييل من عرفة ماشيا وهو يقول :

— لبيك متعبدا مرقوقا . لبيك متعبدا مرقوقا .

وضاعت تلييته بين تلبيات الشرك والضلالة .

كانا يطوفان حول الكعبة وفي قلبيهما أسى على الأصنام التى تكدست فى جوفها ومن حولها ، وعلى قومهما الذين تركوا دين أبيهم إبراهيم وجلبوا الأصنام من كل بقاع الأرض لتقريبهم إلى الله زلفى ، كانا ورقة بن نوفل وعثمان ابن حويرث .

رأى ورقة وعثمان وزيد بن نفييل أن آلهتهم إن هى إلا أحجار لا تضر ولا تنفع . فخرجوا إلى يثرب وإلى الشام وإلى الحيرة وألقوا السمع إلى أحبار اليهود ورهبان النصارى ، فتنصر ورقة وعثمان ، وأبى زيد أن يدخل فى النصرانية بعد أن فسدت وجعلت الله ثالث ثلاثة ، فراح يبحث عن دين إبراهيم ، الحنيفية الحققة ، فقبل له إن ما تبحث عنه يوشك أن يظهر فى قومك ، فعاد إلى مكة وقد أعلن أنه على دين إبراهيم ، وإن كان لا يدرى على أى وجه يعبد ربه ، وراح يرقب الأيام ينتظر ذلك الذى سيعتبه الله ليعيد ملة أبيهم بىضاء ناصعة .

دخل ورقة وعثمان وغيرهما من سادات قريش فى دين النصرانية ولكنهم لم يؤمنوا بوحدة طبيعة المسيح ولم يؤمنوا بلاهوت المسيح وناسوته ، لم يكونوا نساطرة ولا يعاقبة ، بل آمنوا بأن المسيح رسول من عند الله كان يأتيه الخبر من السماء ، وأنه عبد من عباده وأمه صديقة .

وقد حاول ورقة وعثمان ومن اتبع النصرانية من قريش ، وزيد بن نفييل الذى أراد أن يعود إلى دين إبراهيم إلى الوحدانية الخالصة ، أن يهدوا قومهم إلى

الدين القيم ، ولكن قومهم آذوهم أذى شديدا ، ووضعوا أصابعهم في آذانهم وأعرضوا عنهم ، فسكت الذين تنصروا والذين كفروا بعبادة الأوثان عن هداية قومهم ، فقد عجزوا عن احتمال الاضطهاد والعذاب فلم يكونوا من أولى العزم ولم يكونوا من أصحاب الرسالات .

وكان ورقة وعثمان ومن اتبع دين السيد المسيح من العرب يطوفون بالبيت ويقفون المواقف في الحج ، فقد كانوا يؤمنون بأن البيت العتيق هو أول بيت وضع للناس وأن إبراهيم خليل الرحمن وإسماعيل قد أقاما قواعده ، وأن الحج شريعة الخليل وأنه ركن من أركان الإسلام الذي جاء به أبو الأنبياء ، وإن كان العرب قد دسوا عليه ألوانا من الشرك بعد أن زاغت عقائدهم لما طال عليهم الأمد .

وعكف ورقة بن نوفل على دراسة التوراة والإنجيل ، وراح يتردد على بيع الرهبان وأحبار اليهود يناقشهم في أمر الدين ويتلقى منهم ما عندهم من علم . وقد لفت انتباهه أن موسى بشر بنبي يوحا إليه ليس من بنى إسرائيل بل من أبناء أعمامهم من نسل إسماعيل أبي العرب ، وراح ورقة يدرس في إمعان نبوءات السيد المسيح « بالفراقليط » خاتم المرسلين الذي سيمكث مع الناس إلى الأبد ، وقد سمع ورقة ولا شك لما ذهب إلى الحيرة بذلك الذي بشر به زرادشت « صاحب الجمل الأحمر » الذي سيبعث في العرب .

واستولت فكرة أن يبعث الله نبيا أميا — من الأمم لا من بنى إسرائيل — على كل تفكيره ، فراح ينقب في كتب الأولين عن ذلك النبي وراح يطوف على الأحبار وصوامع الرهبان وعلى رعاة النجوم ، فأكد له أحبار اليهود ورهبان النصارى والناظرون في النجوم أن نجم ذلك النبي قد طلع وقد أظلم العالم

زمانه ، فبات ورقة ينتظر مبعث ذلك النبي ليكون أول من يؤمن به وينصره نصرا مؤزرا .

وانتهى طواف ورقة وعثمان فانطلقا إلى حيث كان عبد المطلب جالسا على فراشه في ظل الكعبة ومن حوله بنوه ، وخويلد بن أسد وأمية بن حرب وعتيق ابن عابد زوج خديجة بنت خويلد ، فألقيا على الجميع التحية . ثم ذهب ورقة ليجلس إلى جوار خويلد ابن عمه وذهب عثمان ليجلس إلى جوار أمية .

كان كل الحاضرين ينتهي نسبهم إلى قصى مجمع قريش ، وكانوا سادات قومهم وأشرفهم ، وكان الحديث يدور بينهم عن الوفد الذي سينطلق إلى اليمن لتهنئة سيف بن ذى يزن على انتصاره على الأحباش وعودة ملك حمير إلى العرب . وتشعب الحديث فراح قائل يقول : إن الأحباش قد هزموا قبل أن يأتي سيف بجنود فارس ومراكب كسرى أنوشروان ، هزموا هنا يوم أرادوا أن يهدموا بيت الله فباعوا بالخرزى والعار . وقال قائل إن أبرهة قد هزم منذ ذلك اليوم الذى اغتصب فيه زوجة ذى جدن وقبل أن يرزق منها مسروقا ، فلا يبنى ملك على الغضب والظلم والقهر والاستبداد . وقال قائل إن هزيمة أبرهة كانت ببركة دعاء عبد المطلب ، ولم يقل أحد منهم إنها كانت ببركة ذلك الذى كان لا يزال فى بطن أمية بنت وهب . حتى ورقة بن نوفل الذى كان يتعجل ظهور نبي بنى إسماعيل لم يدر بخلده أن محمد بن عبد الله الطفل الرضيع الذى ذهب إلى مضارب خيام بنى سعد على يدي حليمة السعدية ، هو نبي هذه الأمة ، وأن الله قد قيض له فرصة خروجه منذ مولده إلى البيداء لتكون الأسباب بينه وبين السماء ولتشتد أواصرها على مر الأيام .

واستمر الحديث بينهم وعثمان بن الحويرث فى شروده لا يسمع شيئا مما

يدور حوله ، فقد كان يفكر في الذهاب إلى القسطنطينية إلى مقر قيصر ، ليقابل يوسطينوس الثاني ويعرض عليه أن يكون ملكا من قبله على مكة يؤيده بقوته على أن يحمل إليه خراج بلاده . ولم يجد فيما يدور في خاطره معرفة ولا خيانة فسيف بن ذى يزن يحكم اليوم اليمن بسطان كسرى ، والنعمان بن المنذر يحكم الحيرة بسطان أنوشروان ، وملوك الغساسنة يحكمون الشام بسطان القياصرة ، حتى مشايخ القبائل كانوا مؤيدين بكسرى أو قيصر .

وراح عثمان يستعيد كل ما سمعه عن استقبال القصر القيصري للحارث بن جبلة ملك الغساسنة لما انطلق إلى القسطنطينية ، ويجرى خياله خلف كل ما وعته ذاكرته عن ذهاب امرئ القيس إلى القيصر يوسطينانوس يستعين به على استعادة عرشه ، وما كان من صداقة بينهما ومنادمة حتى إنهما كانا يدخلان الحمام معا . ترى كيف يكون استقبال الإمبراطور يوسطينوس له إذا ما شد الرحال إلى القسطنطينية وماذا سيقول لقيصر وماذا سيقول قيصر له ، واستمر عثمان يخلق وراء أحلامه المنححة ولم يفق من شروده إلا على صوت عبد المطلب وهو يسأله :

— وأنت يا عثمان هل ستذهب في وفدنا المسافر إلى اليمن لتهنئة ابن ذى

يزن ؟

وقال عثمان في اقتضاب :

— لا .

وكان منطقيا مع نفسه فكيف يذهب إلى تهنة حليف فارس إذا كان يفكر في الانطلاق إلى قيصر يعرض عليه أن يوليه أمر الحجاز ، وأن يكون له مثل سيف بن ذى يزن لكسرى ؟ . وعاد عثمان يسرح وراء خياله فراح يؤكد

لنفسه أن قيصر سيرحب بما سيرضه عليه ، فأباطرة الروم يتمنون أن تكون كعبة العرب حليفة لهم ، فلو أنهم اطمأنوا إلى أنها قد صارت في معسكرهم فذلك يزيد من مكانة الروم في أعين العرب .

ونهض خويلد بن أسد وزوج ابنته عتيق بن عابد ، وقبل أن ينصرفا قال

خويلد لورقة :

— ألا تأتي معنا ؟

— أين ؟

— إلى دار عتيق .

— إنى لم أر الطاهرة بعد أن وضعت طفلتها .

كانت خديجة تعرف بالطاهرة ولما تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها ، ولم تكن تشارك فتيات مكة في مجونهن ، وكانت على الرغم من حداثة سنها تنأى عن مجالس اللهو وتهتم بقوافل قريش وبتجارة أبيها . وكانت تستريح إلى مجلس ورقة فقد كان يحدثها حديثا طليا عن الأديان وعن الرسل الذين يعثهم الله لهداية البشر .

وانطلق خويلد وعتيق وورقة إلى دار خديجة ، ولحمت جاريتها من الشباك

إقبال سيدها وصحبه فخفت إلى سيدتها تقول :

— سيدى الصغير وسيدى الكبير وسيدى ورقة .

وأسرعت الجارية تفتح الباب ، وقامت خديجة لتستقبل القادمين . وإن هى إلا لحظات حتى كان الجميع جالسين فى غرفة أثنت برياش فاخر جلب من الشام ومن الحيرة ومن اليمن ، ولا غرو فقد كانت خديجة بنت سيد من سادات قريش وتاجر من أكبر تجارها .

وجاءت هالة بنت خويلد أخت خديجة ، وما كادت تستقر حتى قالت
خديجة لأختها :

— هاتي هند فابن العم ورقة لم يرها بعد .

وقامت هالة وما لبثت أن عادت وهي تحمل ابنة أختها هند بين يديها وقد
أشرق وجهها بابتسامة عذبة . ولاح في وجه عتيق السرور وهو يرنو إلى
ابنته ، وأخذ خويلد الطفلة وقبلها ثم قدمها إلى ورقة ، وما كادت الطفلة
تستقر بين يديه حتى قالت هالة :

— إني غاضبة .

فقال ورقة مداعبا :

— لأنها أجمل منك !

— بل لأن خديجة لم تسمها باسمي .

فقالت خديجة وقد رفت على شفيتها بسمة رقيقة :

— لا تغضبي فسأسمى وليدي الثاني هالة ، سواء أكان ذكرا أم أنثى .

وقال خويلد مداعبا :

— وأنا ؟

فقالت هالة في مرح :

— ألا يكفيك يا أبتاه أننا نحمل اسمك ؟

وأراد خويلد إغاضتها فقال :

— ومتى خلدت البنت اسم أبيها ؟

فقال ورقة في هدوء :

— إذا ما تزوجت عظيما أو أنجبت سيذا من سادات قومه .

وقالت هالة :

— أو سادات قومها .

ضحك الجميع حتى هالة ضحكت من قولها ، وما لبث ورقة أن كف عن

الضحك وقال :

— وفيم ضحكنا ؟ إن ملكة سبأ سادت قومها .

وقال خويلد :

— والزباء ملكة تدمر .

وراحت الروايات تروى عن ملكة سبأ وعن الزباء التي وقفت في وجه الرومان حتى وقعت أسيرة في أيديهم وحملت إلى روما ، فقد كان سادات قريش وعقائلمهم وبناتهم على علم بالأحداث الجارية في العالم من حولهم . وذهبت هالة بهند بنت خديجة وشغلت بمداعتها عن كل ما حوفا ، وقام خويلد وعتيق بن عابد إلى الشراب ، واعتذر ورقة بن نوفل لأن الخمر حرام فقد كانت تشرب في الكنائس وفي كل مكان من العالم المسيحي على زعم أن المسيح كان شريب خمر ، بل لأنه كان يحدث خديجة حديث الأنبياء وهو حديث حبيب إلى قلبه وروحه .

كان ورقة يحدث أخته رقيقة عن النبي العربي الذي يجده مكتوبا في التوراة والإنجيل حتى جعلها تتمنى أن تكون أم ذلك النذير ، فراحت تنفرس في وجوه شباب قريش فرأت في وجه عبد الله شيئا مثيرا جذبها إليه وجعلها تعرض نفسها عليه لتتحقق لها الآمال ، ولكن عبد الله دخل على آمنة بنت وهب وذهب عنه ذلك السحر الذي هفت إليه ، فعافته نفسها وأعرضت عنه لما جاء إليها بعد أن بنى بآمنة يسأها ، لم لا تعرض عليه اليوم ما كانت تعرضه

بالأمس .

كان حديث ورقة عن النبي الأمي ، الذي سيعث في الأمم لا في بني إسرائيل مثيرا ، وكان يستولى على أفئدة سامعيه ، وكان يزيد ذلك الحديث روعة الغموض الذي يكتنفه ، فقد كان ورقة يضع نصب عينيه مآثر موسى والسيد المسيح وهو يبشر باقتراب ظهور « الفراقليط » .

وراحت خديجة تصغي إلى ورقة وهي مأخوذة بعذب حديثه ، إنه يحدثها عن أصنام قومها ويسخر من أنها كلها إناث : اللات والعزى ومناة . « إن يدعون من دونه إلا إناثا » ويخبرها أن قومها قد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ، ويقص عليها قصة رحلته في الأرض ليأخذ علمه عن أهل العلم ، وما كان بينه وبين زيد بن عمرو بن نفيل لما قال لهم العلماء ، إن أحب الدين إلى الله دين هذا المبشر به ، فقد قال لزيد ، أنا أستمر على نصرانيتي إلى أن يأتي هذا النبي . أما زيد فقد أبى أن يتنصر واجتهد في أن يتبع ملة إبراهيم ، وعاد إلى مكة ينتظر ظهور ذلك المبشر به .

كانت خديجة لم تتجاوز الخامسة عشرة ، وكانت مقبلة على دنيا مشرقة كلها بهجة وهو ومرح ، إلا أنها كانت تجد نفسها تفتتح للأحاديث الجادة ، أحاديث التجارة وأحاديث الدين ، وقد ألقت إلى ورقة سمعها فتشوقت إلى ذلك العصر الذي يتحدث عنه ورقة حديث الوثائق ، وتمنت أن يمتد بها العمر لترى ذلك الذي بشرت به الأنبياء ، وما دار بخلدها في تلك اللحظة أن الله يدخرها لتكون نعم السند لذلك النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل .

انطلق سادات قريش وشعراؤها إلى اليمن لتهنئة سيف بن ذى يزن ومدحه وذكر ما كان من بلائه وطلبه بثأر قومه ، وبلغ وفد العرب صنعاء وسار إلى قصر غيدان واستأذن عبد المطلب رئيس الوفد في الدخول على الملك ، فأذن له ، فراحوا يسعون في طرقات القصر مشدوهين فقد كان القصر آية في الروعة والجمال .

كان عبد المطلب عن يمين رئيس تشريفات الملك ، وكان من خلفهم أمية ابن عبد شمس وعبد الله بن جدعان وأسد بن خويلة بن عبد العزى وأشراف قريش وشعراؤها وقد ارتدوا أبهى حللهم . وقد كان عبد المطلب فخما كأنه القمر تحف به النجوم .

وفتح باب قاعة العرش فإذا الملك مضمخ بالعنبر يرى لمعان الطيب من مفرقه ، عليه بردان مؤنزر بأحدهما مرتد بالآخر ، سيفه بين يديه وعن يمينه ويساره الملوك وأبناء الملوك والرؤساء ، فانطلق عبد المطلب حتى دنا من سيف بن ذى يزن وقال :

— أيأذن لي مولاي في الكلام ؟

فقال سيف :

— إن كنت ممن يتكلم بين يدي الملوك فتكلم فقد أذن لك .

فقال عبد المطلب :

— إن الله أحلك أيها الملك محلا رفيعا ، صعبا منيعا . شامخا باذخا . وأنبتك
منبتا طابت أرومته ، وعزت جرثومته ، وثبت أصله ، وبسق فرعه ، في أكرم
موطن ، وأطيب معدن . وأنت أبيت اللعن ملك العرب وربيعها الذى
يخصب ، وأنت أيها الملك رأس العرب الذى إليه تنقاد ، وعمودها الذى عليه
العماد ، ومقلها الذى تلجأ عليه العباد . سلفك خير سلف ، وأنت لنا منهم
خير خلف ، فلن يحمل ذكر من أنت سلفه ، ولن يهلك من أنت خلفه . ونحن
أيها الملك أهل حرم الله وسدنة بيته ، أشخصنا إليك الذى أبهجنا لكشف
الكرب الذى فدحنا ، فنحن وفد التهئة لا وفد المرزئة .

فقال ابن ذى يزن :

— فأيهم أنت المتكلم ؟

— أنا عبد المطلب بن هاشم .

وتذكر سيف بن ذى يزن أن هاشما تزوج سلمى الخزرجية وأن الخزرج من

اليمن ، فقال :

— ابن أختنا ؟

— نعم . ابن أختكم .

— ادن .

فأدناه على القوم وعليه فقال :

— مرحبا وأهلا ، وناقاة ورحلا ، ومستناخا سهلا . قد سمع الملك

مقاتلكم ، وعرف قرابتكم ، وقبل وسيلتكم ، فأنتم أهل الليل وأهل النهار ،
لكم الكرامة ما أقمتم ، والحياء إذا ظعنتم .

وانطلق وفد قريش إلى دار الضيافة والوفود فأقاموا شهرا لا يصلون إلى

الملك ولا يأذن لهم بالانصراف ، ثم انتبه انتباهه فأرسل إلى عبد المطلب فأخلاه وأدنى مجلسه وقال :

— يا عبد المطلب إني مفض إليك من سر علمي ما لو كان غيرك لم أبح له ، ولكن رأيتك معدنه وأطلعتك عليه ، فليكن عندك مطويا حتى يأذن الله فيه ، فإن الله بالغ فيه أمره .

إني أجد في الكتاب المكنون ، والعلم المخزون ، الذى اخترناه لأنفسنا واحتجناه دون غيرنا ، خبرا عظيما ، وخطرا جسيما ، فيه شرف الحياة ، وفضيلة الوفاة ، للناس عامة ، ولرهطك كافة .

— أيها الملك فمثلك من سرّ وبر ، فما هو ؟

— إذا ولد بتهامة ، غلام بين كتفيه شامة ، كانت له الإمامة ، ولكم به الزعامة .

وشرد عبد المطلب يفكر ويجمع خيوط ما سمع من نبوءات بعضها إلى بعض ، إنه هنا فى اليمن قال له الكاهن : إن فى إحدى يديه ملكا وفى الأخرى نبوة . وقالت كاهنة قريش لآمنة : إنها النذيرة وستلد نذيرا . وهتف بآمنة هاتف يوم أن حملت بابن عبد الله إنها حملت بسيد هذه الأمة . وقد أمرت آمنة عندما ولدته أن تسميه محمدا . إنه محمد ولا ريب ذلك الذى بشر به الكهان والرهبان وأحلام اليقظة ورؤى المنام ، إنه محمد ولا ريب سيد هذه الأمة . وهتف روح عبد المطلب إلى حفيده الذى حملته مرضعة بنى سعد لتفتح عيناه أول ما تفتح على الحرية الطليقة والطبيعة الآسرة ، والكون العريض بما ينبض من سحر وأسرار .

وأذن الملك لوفد قريش بالرحيل بعد أن أمر لكل من القوم بعشرة أعبد

وعشر إماء سود ، وحلتين من حلل البرود ، وخمسة أرطال ذهب وعشرة
أرطال فضة وكرشا مملوءا عنبرا ، ولعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك .
وعاد الوفد إلى مكة ، وذاع بين الناس عطاء الملك فحسد الناس عبد
المطلب ، فقام في الناس وقال :

— يا معشر قريش لا يغبطني رجل منكم بجزيل عطاء الملك وإن كان كثيرا
فإنه إلى نفاق . ولكن ليغبطني بما لي ولعقبى ذكره وفخره وشرفه .
وقال قائل :

— وما ذاك ؟

فقال عبد المطلب في هدوء :

— ستعلمون ما أقول لكم ولو بعد حين .

وسمع عثمان بن الحويرث بما كان بين قريش والملك سيف بن ذى يزن ،
فعادت فكرة انطلاقه إلى القسطنطينية تستولى على كل تفكيره . فسيف أصبح
ملكا على اليمن من قبل كسرى أنو شروان إمبراطور فارس ، وما كان سيف
على دين المجوس ، فما الذى يحول بين عثمان وبين الذهاب إلى يوستينيوس
الثانى إمبراطور الروم ليعرض عليه أن يكون ملكا على الحجاز من قبله ،
وكلاهما على دين المسيح ؟

وتجهز عثمان للرحلة وقال إنه عازم على زيارة القسطنطينية ولم يفض إلى
أحد بما يدور فى رأسه . ولم يثر رحيله عجب القوم فقد كان سادات قريش
فى رحلة دائمة بين الشام والإسكندرية والقسطنطينية والحيرة وفارس واليمن ،
وقد قبر رجال منهم فى كل أرجاء دنيا ذلك العصر .

وراح عثمان بن الحويرث يسعى إلى القسطنطينية يعبر القفار وينزل

الواحات ويرحل إلى مدن الشام حتى انتهى به السعى إلى مشارف القسطنطينية ، فإذا بقباب القصر الكبير وممراته المسقوفة والمجلمة بالقراميد الملونة تضرب في السماء ، ومن ورائه كنيسة أياصوفيا شامخة في الفضاء . إنها درة في فن العمارة فاقت هيكل سليمان .

وراح ذهن عثمان يعمل ؛ إنه ليدكر أن يوسطنيانوس قيصر الروم بنى أياصوفيا كنيسة الحكمة المقدسة لتنافس كنائس الإسكندرية وروما وكل معابد الأرض ، وقد بذل كل سعى لتكون القسطنطينية المدينة المسيحية الأولى في العالم المسيحي . وقد تحقق له ما أراد فالإسكندرية كانت مكنم الكراهية للإمبراطورية ، وكانت كنيستها توجب نوازع البغضاء للحكومة الرومانية ، فراححت تناصر الفتن والأمانى الوطنية التي كانت تبذل كل جهد لتتخلص من استعباد الرومان .

كانت كنيسة الإسكندرية مسيحية وكانت كنيسة القسطنطينية مسيحية ، ولكن شتان بين مسيحية ومسيحية ، فراح أباطرة الروم يبذلون كل جهد لإضعاف نفوذ كنيسة الإسكندرية ، وقد قلل ذلك من قيمة الإسكندرية العالمية وإن كانت الإسكندرية قد بدأت تزلزل الأرض تحت أقدام أباطرة الرومان .

وتقدم عثمان من إحدى بوابات المدينة وكانت لها اثنتا عشرة بوابة فلمح تلال القسطنطينية السبعة تنهض قائمة كالجدار على البوسفور والقرن الذهبي ، بينا كان انحدارها من ناحية بحر مرمرة أطف وأسهل والامتداد فيها أرحب وأوسع .

ودخل عثمان من البوابة المواجهة لقصر الإمبراطورية ونظر ففغر فاه من

الدهشة . كانت الحدائق تمتد من القصر حتى البسفور ، وفي الجنوب ميدان فسيح للسباق يطل على مرفأ القصر المزخرف بنقوش وتهاويل تبده العقل ، وكنيسة فخمة للقديس سرجيوس وأخرى للقديس باكوس قامتا في حي منخفض مليء بقصور أقل فخامة من قصر الإمبراطور . ولكنها تنطق بالغنى والبذخ .

والتفت عثمان يسارا فرأى السور البحرى بما يعلوه بين حين وآخر من أبراج ، وقد شقت فيه فتحات تسمح بوجود مرفأ صناعية ترسو فيها السفن التى لا ترغب أن تدور حتى تدخل الموانى .

وسار عثمان فى الشارع الأوسط ، وهو شارع يبدأ من مدخل القصر وحلبة السباق ويمتد ميلين تحف به من جانبيه العقود ويمر من خلال سوق قسطنطين وسوق أخرى ، وكانت السوقان مزدانتيں بتماثيل الأباطرة والقديسين . وعلى جانبى الشارع أهم حوانيت المدينة مرتبة فى مجاميع حسب ما تتبع من سلع ، فراح عثمان يرقب صياغة الذهب ثم الفضة والبرنز ، ويشاهد ما يعرض تجار الأثاث والملابس والجلود .

كانت أغنى تلك الدكاكين قرب القصر عند حمامات زيوكسيبتوس ، فقد كانت سوقا ضخمة للحرير ، وقد عرفت تلك السوق باسم دار الأنوار ، لأن نوافذ غرفها كانت تضاء ليلا ، وكان ذلك جديدا على عثمان بن الحويرث ، فراح يطوف بالقسطنطينية قبل أن يتوجه إلى القصر الإمبراطورى ليعمل على تحقيق حلمه الذى صار يسرى فى كيانه مسرى الدم .

كانت المناظرات تقوم فى ضميره بينه وبين قيصر الروم وكانت جميعها تنتهى بموافقة يوسطينوس الثانى على أن يكون عثمان ابن الحويرث ملكا على

مكة من قبل الإمبراطور العظيم ، وقد هدأت نفسه حيناً من الدهر وهو يطوف بأحاء عاصمة الدولة الرومانية الشرقية وهو مشدوه ، فقد كانت الشوارع والأسواق وحلبات السباق متاحف تعرض فيها أبدع ما صورته بد الأقدمين من التماثيل .

وانتهى عثمان من طوافه فيمم صوب القصر وهو يرجو أن ترتبط بينه وبين قيصر الأسباب ، وأن يتخذة يوسطينوس نديماً كما اتخذ يوسطينيانوس امراً القيس الشاعر العربي نديماً له من قبل ، وطلب المثول بين يدي الإمبراطور لتقديم ما جاء به من هدايا من بلاد الشرق .

وتحدد موعد المقابلة فجاء عثمان في زيه العربي الخلاب وسار في ردهات القصر وهو مذهول لا يصدق عينيه ، فما دار في خلده أن هناك على وجه الأرض مثل ذلك الترف وتلك الروعة .

وما كان دخول القصور شيئاً جديداً على عثمان فقد زار الخورنق من قبل ورأى قصور الشام ، إلا أن ما كانت تقع عليه عيناه يفوق كل وصف .

وفتح باب قاعة العرش وفي لمحة خاطفة رأى عثمان الإمبراطور يوسطينوس الثاني إلى جواره الإمبراطورة صوفيا وقد ارتديا أفخر الثياب ، وكانت الإمبراطورة تتألق في الجواهر التي تتزين بها وقد أكثرت من وضع الأصباغ على وجهها .

وخر عثمان ساجداً ولم يرفع رأسه إلا لما سمع أن الإمبراطور قد سمح له بأن ينهض . وقام عثمان ووقف خاشعاً برهة ، ثم قدم إلى الإمبراطور والإمبراطورة طرفاً من فارس واليمن فهللت أسارير الإمبراطورة . وسمح الإمبراطور لعثمان بالجلوس فراحت النسوة تعربد بين جنبيه ، وراح عثمان يذكر للإمبراطور

والإمبراطورة مكانة مكة بين العرب وكيف أن البيت هو قبلة العرب جميعا في الحيرة والشام وفي الحجاز وفي اليمن . وكيف أن من يملك مكة تدين له بالولاء كل قبائل العرب ، وظل يوسطينوس يصغى إلى عثمان وهو على علم بمكانة البلدة المقدسة عند كل العرب ، فقد كانت أعز أمنية للروم أن يتصل نصارى الحبشة واليمن بنصارى الشام والقسطنطينية ، وقد قام أبرهة بحملة لتحقيق ذلك الحلم ولكن الحملة تكسرت أمام بيت العرب المقدس ، وإن إمبراطور الروم وساستها يعجبون من أمر تلك النكسة التي أصابت أصحاب الفيل . وقال عثمان فيما قال :

— تكون زيادة في ملكك كما أن اليمن قد أصبحت زيادة في ملك كسرى
أنوشروان .

كانت أمنية أباطرة الروم وساستها أن تكون الأرض التي بين الحبشة والقسطنطينية أرضا في حوزة الروم أو حليفة للروم يرفرف عليها النسر الرومانى ، ويا حبذا لو وضع إلى جوار الراية الرومانية صليب المسيح . أما وقد أخفقت حملة أبرهة فلا أقل من أن تكون مكة زيادة في ملك يوسطينوس ويحمل عثمان بن الحويرث إليه خراج تلك البلاد . ولم يظهر الإمبراطور لهفة على الاستجابة إلى رجاء عثمان بل حدثه حديثا لينا ووعده أن ينظر في الأمر . ودعا الإمبراطور والإمبراطورة عثمان بن الحويرث لمشاهدة السباق معهما ، وقد اغتبط عثمان بهذه اللقطة الكريمة وعدها مكرومة وانشرح لها صدره ، فقد كانت دليلا على أن ما عرضه على الإمبراطور قد لقي قبولا في نفسه .

وانطلق الإمبراطور والإمبراطورة وضيئهما العربى الذى يطمع فى أن

يكون ملكا على مكة من القصر إلى المقصورة الإمبراطورية مباشرة ، فلما رأى الشعب قيصر ضج المكان بالهتافات ، وراح عثمان يقلب نظره في ميدان السباق وهو في ذهول ، فقد كان يرى مدرجات ضخمة تتسع لما يقرب من أربعين ألف مشاهد .

وراحت العربات الرومانية تتطلق في سباق رهيب وعثمان يرقب ما يجري وهو مشدوه ، وانتهى السباق وقد بلغ حماس النظارة غايته ، والأنفاس مكروبة في الصدور وقد اتسعت العيون وأرهفت الحواس .

ونزل المصارعون إلى أرض الملعب وضج المكان بالهتافات ، وفتحت أقفاص الوحوش الكاسرة وبدأ الصراع بين البشر والوحوش الضارية ، وتأججت حماسة الناس لما سالت الدماء . وانتهت المعركة الرهيبة والهتافات ترتفع إلى السماء ، ولم يخفق قلب واحد إخفاقة شفقة أو رحمة فقد أماتت الحضارة الزائفة الشعور الطيب في الناس .

ونزل إلى أرض الملعب حزبا السرك وهما الزرق والخضر فاشتعلت حماسة الناس وبدأ الصراع . وراح الناس يرقبون ما يجري بين الفريقين وقد انفعلت المشاعر انفعالا كادت تفلت بسببه سيطرة الناس على عواطفهم وتحدث اضطرابات . وكثيرا ما وقعت الفتن السياسية أثناء ذلك الصراع فقد كان كل حزب سياسى يؤيد فريقا من الفريقين ، وكان لكل فريق لونه السياسى والدينى .

وهبط إلى أرض الملعب العبيد للصراع حتى الموت فتجاوبت أرجاء الملعب بالتهليل والهتاف ، وفتحت العيون ولاحت القسوة في الوجوه . وأذن لمصارعين من العبيد ببدء القتال فاستل كل منهما خنجره وراح يدور حول

غريمه في حرص شديد يلتمس منه غفلة ليطعنه طعنة قاتلة ، دون ذنب جناه ، إرضاء لشهوة الأسياد في سفك الدماء ، وهجم أحدهما على الآخر وطعنه طعنة أفلت منها ، وفي مثل ملح البصر رد على الطعنة الطائشة بطعنة لم تصب القلب بل جاءت في الصدر . وما إن سالت الدماء حتى انبعث من الجماهير هتاف وزئير لكانه منبعث من وحوش كاسرة في الغاب .

وتهللت أسارى الإمبراطور وانفرجت شفتا الإمبراطورة عن بسمه تنم عن الفرحة المنتشرة في وجدانها ، وراح عثمان يظهر السرور والغبطة إرضاء ليوسطينوس العظيم وصوفيا المبجلة ، واستمر صراع الوحوش البشرية حتى جللت الأرض بالدماء وغطتها جثث الضحايا .

وعاد الإمبراطور ممثل أعظم حضارة في الأرض إلى القصر شامخاً بأنفه مزهوا بما بلغته إمبراطوريته من رقى ، وعن يمينه وشماله صوفيا الجميلة وضيغه العربي الكريم الذى جاء ليمد ظل الحضارة الرومانية على مكة .

واجتمع قيصر وزوجه بعثمان بن الحويرث وأخبره أنهما قبلما جاء يعرضه عليهما ، وقد تفضل الإمبراطور يوسطينوس بأن كتب له كتابا يوليه من قبله على مكة وختم في أسفله بالذهب ، وخلع على عثمان خلعة وحمله الهدايا ، حتى بغلة عثمان أهدى إليها سرج موشاة بالذهب .

وتأهب عثمان ليعود إلى مكة وهو يكاد يطير من الفرح ، فقد صار حاكم مكة من قبل قيصر ، إنه ممثل أعظم حضارة عرفتها الدنيا ، وما يحسب أن الأرض ستشهد مثل تلك الحضارة التى شاهدها بعينيه في القسطنطينية .

وطافت بذهنه فارس وراح يقارن بينها وبين حضارة الرومان ، فإذا بهواه يؤكد له أن الرومان أكثر حضارة من الفرس ، فإن كانت الفرس قد ظهرت

في الحروب على الروم فإن ذلك إلى حين وستغلب الروم الفرس وتصبح أعظم
قوة في الأرض وتترف حضارتها إلى الأبد على العالمين .
وسخرت السماء بأحلام عثمان بن الحويرث فقد كانت العناية الإلهية
ترعى صبيا من نسل قصى مثل عثمان ، ستؤتيه حكمة وتوحى إليه بكتاب
منير ، تقوم على شرائعه حضارة تنهر كل الحضارات .

كانت الشمس ترتفع من خلف الجبال كأنها قرص من الفضة يتوهج ، وقد
 شعت منه أشعة واهنة ضربت حولها دائرة من شفق أحمر مزجت به أضواء من
 لجين . وراح قرص الفضة يرتفع ويتألق وتنداح أشعته حتى احتلت ما بين
 الجبلين وغمرت وادى هوازن بنور خافت ما لبث أن اشتد وازداد تألقا .
 وجلست حليلة السعدية أمام دارها ترضع محمدا وهي ترنو إليه في حب
 شديد ، وشرد خيالها وإذا بها تسترجع ذلك اليوم المبارك الذي جاءت فيه إلى
 مكة مع نسوة من قبيلتها يلتمسن أطفال سادات قریش . إنها ترى عبد المطلب
 سيد قریش يقبل نحوها ويرن في جوفها ذلك الحوار الذي دار بينهما في ذلك
 اليوم :

— من أنت ؟

— أنا امرأة من بنى سعد .

— ما اسمك ؟

— حليلة .

— بخ بخ سعد وحلم خصلتان فيهما خير الدهر وعز الأبد . يا حليلة إن
 عندي غلاما يتيما وقد عرضته على نساء بنى سعد فأبين أن يقبلنه وقلن : ما
 عند اليتيم من الخير ، إنما نلتمس الكرامة من الآباء . فهل لك أن ترضعيه فعسى
 أن تسعدى به ؟

— ألا تذرني حتى أثار صاحبى ؟

وعادت حليلة تنظر إلى محمد ، مشرقة الوجه متفتحة النفس فتستشعر
غنى في عواطفها التي تفيض بالرضا والحب كلما رنت إلى وجه الطفل الجميل
الآسر الذي سعدت به .

ورأت نفسها وهي تذهب إلى آمنة لتأخذ منها الطفل فإذا هو مدرج في
ثوب صوف أبيض وقد راح في سبات ، فراحت تتناوله في رفق شفقة منها أن
توقظه من نومه ، ولكنه فتح عينيه فراعها حسنه فمالت عليه وقبلته بين عينيه
فاستشعرت مشاعر غامضة مثيرة لم تحس مثلها من قبل ، فيا طالما قبلت ابنها
الرضيع ولكنها لم تفتح له ذاتها مثل ذلك التفتح الذي طرأ على وجدانها .
وظلت حليلة في دهشة من أمرها فما خطر لها على بال أن الله ألقى في قلبها
محبتة .

ووضعت حليلة محمدا وجاءت بابنها عبد الله لترضعه فإذا بمحمد يحبو هنا
وهناك ويحجى إلى كل جانب .. وشغلت حليلة عن ابنها بمراقبته فهو يشب
شبابا لا يشبه الغلمان ، فإذا كان ابنها عبد الله أسن منه فهو لم يجب بعد .
وجاء الحارث بن عبد العزى زوج حليلة ، فلما رأى محمد انطلق إليه
وحمله وراح يقبله ويضمه إلى صدره وحليلة تنظر إليهما وقد رقت على شفيتها
بسمه سعيدة ، فقد راح الحب يخفق بجناحيه على الوادى كله يوم عادت من
مكة بذلك الطفل المبارك .

وأقبلت أنيسة والشيماء وهرعت كل منهما إلى أيها تريد أن تأخذ منه
محمدا ، ومدت الشيماء يديها لتناول الطفل فقد كانت أكبر من أنيسة ، فلم
تجد أنيسة مفر من أن تصيح لعلها تصل بصوتها إلى ما عجزت يدها أن تبلغه .

فابتسم الحارث لهما وراح يحاول أن يقنع أنيسة أنها أصغر من أن تحمله ، فرأت أن تبطل حجته فجلست على الأرض وطلبت من أبيها أن يضعه في حجرها ، فأشرق الحارس بالرضا ومال بمحمد حتى وضعه في حجر الصغيرة .

وظهر في وجه الشيماء الاستياء ، وفطنت حليلة إلى ذلك فدعتها لتحمل أباها عبد الله ، ولكن الشيماء أعرضت عنها وذهبت إلى حيث ترعى غنم أبيها .

ودخلت واحدة من غنيمات حليلة إلى حيث كان محمد ، فلما رآها راح يحبو إليها ويمد إليها يده ، فإذا بها تمد رأسها إليه وتلمسه في حنان ، فبدأ تعاطف مثير بينهما ، وسرت في المكان براءة ناصعة وطهارة خافقة ورحمة دافقة ، وأفعم بحب ما بعده حب ؛ حب خالص مبرأ عن الهوى ، أنقى من الصفاء وأرق من كل ما في الوجود من رقة ، وأسمى من كل ما في الدنيا من سمورفة . وجاء الليل ونام عبد الله وبكى محمد ، فحملته حليلة وخرجت به من دارها إلى الخلاء . كانت السماء صافية والنجوم تتلألأ في قبتها الزرقاء . وما أن رأى محمد جلال ما حوله حتى كف عن البكاء ، وراح يرنو إلى مصابيح السماء وقد ران على وجهه هدوء عجيب ، وسرعان ما غمرته سعادة لكأما كانت روحه تمتص رحيق كنه الوجود ، ولكأما قد ارتبطت الأسباب بينه وبين السماء .

عرفت حليلة فيه حبه لتقليب وجهه في الكون فكانت تتركه الساعات في النهار يعمن النظر في شروق الشمس من خلف جبال هوازن ، وفي واديهما الجديب ، وفي أرضها إذا ما أحيتها الأمطار بعد موات ومستها بعصاها

السحرية فكستها حلة سندسية زينت باليواقيت والمرجان والزبرجد وكل ألوان الثمار . وكانت تخرج به في الليل إلى الفضاء ليرقب القمر ويرنو إلى الكواكب والنجوم ، ويصيخ السمع إلى زفرات نسيم الصبا وزئير هبوب الرياح ، فقد كان على الرغم من صغر سنه يتعاطف مع الكون ويتناسق مع ما حوله ويتهلل بالفرح كلما مد عينيه إلى الأرض الجرداء والأرض الخضراء ، وإلى السماء الصافية والسماء الملبدة بالغيوم ، وإلى ظلام الليل ، وإلى النجوم الزاهرة والكواكب الثابتة والكواكب السيارة ، وكان احتفاله بالليل عجيبا لكأنما قد خلق يرعى السماء ؛ غذاء لروحه لتقوى وتشتد وتسمو حتى تقدر على أن تتصل بما وراء الطبيعة ، بروح الوجود ، بذات الذوات .

وبلغ محمد من العمر سنتين فإذا به يغدو ويروح في قبيلة هوازن وقد تفتحت له القلوب وبشت له الوجوه وألقى إليه الناس أسماءهم وهم في عجب من أمره ، فقد كان يتحدث حديثا فصيحاً يأخذ بمجامع الأبواب ، ويشب شبابا لا يشبه الغلمان .

وذاذ ليلة ران على دار حليلة حزن ثقیل فقد فصلت حليلة محمد وفي الغد ستنتقل به مع زوجها إلى مكة لتعيده إلى أمه آمنة بنت وهب ، وساد الجميع وجوم فقد نزل محمد في سويداء قلوبهم ، صار بضعة منهم وقد أحبوه حبا جما ملك عليهم كل حواسهم . وقطع السكون قول الشيماء لأماها :

— لماذا لا يمكث محمد فينا يا أمه ؟

ولزمت حليلة الصمت وقال الحارث :

— فصل محمد ولم يعد في حاجة إلى من ترضعه .

كانت أنيسة قد سعدت بسؤال أختها وكانت ترجو أن يمكث محمد فيهم ،

فلما سمعت قول أبيها أحست أن هذه آخر ليلة تجمع بينهم وبين الطفل الحبيب ، فقامت إلى حيث كان محمد وقبلته وفي الحلق غصة وفي العينين دموع .

وآن أوان الرحيل فركبت حليلة أتانها وحملته عليها معا ، فإذا بالشيماء تأتي وتعاود تقبيله وعبراتها تجرى على خديها ، وإذا بأنيسة تقف حزينة تستشعر إحساس من فقد عزيزا وأن الوجود صار قفرا فقد سلبت منه روحه التي كانت تخفق بين جنبيه .

وسارت حليلة على أتانها ومحمد معها وانطلق الحارث إلى جوارهما وهو مطرق يتمنى لو يعود بالطفل الذى أحبه وتعلق به كل أهل بيته . وراح يسأل نفسه ، ترى أتقبل أمه أن تدعه فينا سنتين آخرين ؟

وبلغ الركب مكة ، فذهبت حليلة ومحمد في يدها والحارث إلى جوارهما لتطوف بالبيت العتيق وتمسح بجدران الكعبة ، وراح محمد يطوف بالحرم وهو مشدوه يتفرس في الأصنام الكثيرة التى أقيمت حول الكعبة ، فقد كانت أول مرة يرى فيها آلهة قومه وما يجرى عندها من مراسم وعبادات .

ودخل الحارث وحليمة ومحمد إلى جوف الكعبة ، حيث كان تمثال هبل ، ورأى الناس وهم يستقسمون بالأزلام ويضربون بالقداح ولم يفقه مما يدور حوله شيئا ، ولكنه ضاق بالزحام فجذب يد حليلة وخرج والحارث فى أثرهما .

وسار الركب الصغير إلى الصفا حيث دور بنى هاشم ، ووقف الجميع أمام دار عبد الله بن عبد المطلب ، ونزلت حليلة عن أتانها ثم حملت محمدا وتقدم الحارث يطرق باب الدار ، ومالبت أن انفرج عن بركة الحبشية جارية

عبد الله ، فلما رأته محمدا أشرق وجهها بالفرح وخطفته من حلیمة في لطفة وراحت تمطره بقبلاتها وهي تستشعر كأنما ضمت الوجود كله إلى صدرها . وراحت بركة تهرول إلى حيث كانت سيدتها وهي تحمل ابن عبد الله الغالي وتهتف في فرح وانفعال :

— محمد جاء .. محمد جاء .

ومس صوت بركة أذني آمنة فانتفضت من الرأس إلى القدم ، وسرت البشرى فيها تملؤها بالنشوة والفرح . ولم تستطع أن تكبح عواطفها فراحت تستبِق إلى حيث كانت بركة ومحمد الحبيب قادمين .

ورأته بقلبها قبل أن تراه بعينها ، وراح فؤادها يقفز بين جنبها يهوى إليه . وما إن مدت بصرها إليه حتى أحست أنها قد ملكت زينة الدنيا وبهجتها وأن أهazيج النشوة قد ملأت كل الكون .

وأخذته من بركة في رفق وضمته إلى صدرها في حنان وراحت تقبله في كل مكان وقد تهللت بالفرح ، واستشعرت كأن عبد الله الحبيب قد بعث من جديد وآب إليها بعد طول غياب .

ولف محمد ذراعه حول عنق أمه وهو سعيد ، واستراح للعواطف الفياضة التي غمرته بها آمنة . لقد كانت حلیمة تحبه ويا طالما ضمته إلى صدرها وقبلته وفاضت عليه بحنانها، ولكن ما يحسه في تلك اللحظة أحر من كل حب فاض عليه في أرض هوازن ، فقد كانت مشاعر آمنة تندفق من قلب عامر بالحب على ابنا الوحيد الذي اختطف المنون أباه قبل أن تكتحل برؤيته عيناه .

كانت آمنة سعيدة غاية السعادة راضية كل الرضا بأن محمدا قد عاد من البيداء ليؤنس وحدتها ويملأ الدار الموحشة بهجة وأملا . وقد ربت سعادتها لما

خطر على بالها أن عمه حمزة بن عبد المطلب قد آب من الصحراء ، واستقر في حجر أمه هالة ، وأن محمدا سيجد رفيقا في مثل سنه يشاركه لعبه ولن يصبح ابنها الحبيب وحيدا .

وجاء العباس بن عبد المطلب وكان ابن خمس سنين يزور دار آمنة ، فقد كان العباس يدور على دور بنى هاشم يلعب مع صبيان الحى ويملاً فراغ يومه ، فلما وقعت عيناه على محمد بش له وإن كان يرنو إليه في إنكار ، فابتسمت آمنة فرحا وقالت له :

— قبل أخاك .

لقد قالت له نسوة بنى هاشم يوم أن وضعت آمنة محمدا مثل ذلك القول ولكنه نسى مقالتهن ، وراح يدنو من الطفل الجميل وهو في حيرة من أمره ، حتى قالت له آمنة أن محمدا هو ابن أخيه عبد الله وكان يسترضع في بنى سعد وقد عاد ليحكث فيهم ولن يغيب عنهم بعد اليوم .

وذهبت آمنة إلى حيث كانت حليلة وزوجها الحارث وراحت تحدثهما حديثا لينا يفيض رقة ، وشكرت لهما عنايتهما بابنها الحبيب ، وقدمت إلى حليلة ثمن الرعاية فاغرورقت عينها بالدموع لأنها كانت أحرص شيء على أن يعود محمد معها إلى دارها ، فقد ملأ فؤادها واستولى على مشاعرها . ورأت حليلة أن تحتال لتعود بمحمد فقالت :

— لو تركت بُنى عندى حتى يغلظ .

واتسعت عينا آمنة دهشا وسرى فيها خوف فقد فاجأتها حليلة بذلك القول الذى لم يخطر لها على بال ، أتريد أن تعود به حليلة ولم يحكث معها إلا يوما أو بعض يوم ؟ وفيم كانت أوبته إذا كانت حليلة تريد أن تعود به إلى

هوازن ؟ إنها سترفض ذلك العرض في رفق وكفى ما فات ، فهو سيشب هنا في مكة ، بين أهله وعشيرته ليأخذ مكان أبيه الذي ذهب في عمر الورود ، وقبل أن تفتح آمنة فاها لتعتذر قالت حليلة :

— فإني أخشى عليه وباء مكة .

وباء مكة ؟ أجل وباء مكة . وخافت آمنة على ابنها الحبيب من ذلك الوباء . الخير لها أن تحمل فراقه سنتين أخريين من أن يصاب محمد بالمرض وأن يهلك كما هلك أبوه من قبل ، واندكت كل مقاومة في نفس آمنة وسر بلها خوف على ابنها الوحيد فقالت في صوت خافت مستسلم :

— خذيه .

ولم يكن أمرا سهلا أن ينتزع محمد من أحضان أمه . إنه التصق بها لا يريد أن يفصل بينه وبينها أحد ولو كانت أمه حليلة أو كان أبوه الحارث . فلم تزل حليلة تحدّثه عن أخيه عبد الله وعن أخته أنيسة وأخته الشيماء وعن الغنات التي يجبها وجبال هوازن وسمائها حتى قبل أن يعود معها ، ليتعلم الصبر على فراق الأحبة .

وسار الحارث ومحمد وحليمة حتى خرجوا من دار آمنة وآمنة ترنو إليهم خافقة القلب دامعة العين ، فقد جاء محمد ليهيج الذكريات ويحرك العواطف ثم يذهب مخلقا في الدار التي بدأت تنبض بالحب والحياة فراغا وجفافا ووحشة .

وكان ذلك الفراق أول حزن أحسه الطفل الصغير ، وما أكثر الأحزان التي سيتحملها صابرا صاحب القلب الكبير .

تأهب عثمان بن الحويرث ليعود إلى مكة ليضع التاج على رأسه ويصبح ملكا على تهامة بعد أن ولاه يوسطينوس الثاني إمبراطور الروم حاكما من قبله ، ورأى أن يصلى فى كنيسة أيا صوفيا قبل مغادرة القسطنطينية تملقا لقيصر وليبارك الله له فى خطواته المقبلة .

ودخل عثمان وهو يرتدى ثيابه العربية الكنيسة الفخمة وقد أطرق برأسه تواضعا لله وإن كان الزهو يملا قلبه ، فقد بدأ يحس خطر نفسه بعد أن صار أول ملك فى قومه ، فما عرفت تهامة الملكية يوما ، وقد كان من يلى البيت منذ مضاض بن عمرو الجرهمى يحكم الأرض المقدسة بحكم منصبه الدينى . كانت كنيسة أيا صوفيا آية من آيات الفن البيزنطى الذى امتزج فيه الفن الأغريقى الرومانى والفن الآرامى والإيرانى امتزاجا كاملا فخلق شيئا فريدا فى بابه ، أصيلا فى نوعه ، يمجّد الدولة ويمجد فى ثنايا ذلك إله المسيحية .

كانت تماثيل المسيح كما تصور الفنان البيزنطى منتشرة فى أرجاء الكنيسة ، تماثيل تستثير حدة الانفعال ، تختلف عن تماثيل اليونان التى تجلب راحة النفس وانسراح الصدر للجمال ، تعكس قسوة العذاب الذى تحمله الإله تارة ، وتم عن الخير الإلهى تارة أخرى . وقد انتشرت فى ساحة الكنيسة القباب التى أقيمت فوق مربعات وزينت الجدران بالفسيفساء ، واستعمل الذهب فى المخطوطات المحلاة بالصور ، ونحت التماثيل من الرخام والبرونز الملون أو الموه بالذهب ، ولا غرو فقد كانت الكنيسة تجارى الأباطرة فى الفخامة

والعظمة . فإن كان للأباطرة أنصاف الآلهة قصور وعروش وقاعات للثياب وجناح للحريم ، فلا أقل من أن يكون بيت الإله في مثل روعة قصور أنصاف الآلهة وفخامتها .

وشغل عثمان عن إلهه بتأمل التماثيل والزخارف والتهاويل وثياب رجال الدين ، ولم يحس ربه في ضميره بل كان بعيدا عنه بعد الصحراء التي جاء منها وبساطتها عن ذلك التعقيد في العقود والقباب والتماثيل ، وراح يصلى ويتلو دعاءه وهو شارد لا يفقه ما تتمم به شفتاه ، فقد كان قلبه مشغولا بالحياة الدنيا التي أقبلت عليه ، والمجد العظيم الذي ينتظره .

وغادر عثمان كنيسة أيا صوفيا وركب بغلته وسار في الشارع الأوسط وعن يمينه وشماله الحوانيت وقد غصت بالناس ، فلم يجذب انتباهه ما يجري في أعظم شوارع بيزنطة ، ولم يحفل بالتماثيل الرائعة القائمة في كل مكان . فقد كان يغذ السير ليصل إلى بوابة المدينة التي تقوده إلى طريق الشرق ، إلى مكة عاصمة ملكه المرتقب .

وراح عثمان يقطع الفياقي والقفار ، وكان في كل خطوة يخطوها عربيا تغذى بمعتقدات العرب وإن اعتنق الدين المسيحي ، كان إذا مر بمكان موحد يعتقد أنه مأهول بالجن والأرواح فكان يحبى سكانه بقوله : « عمو اظلاما » خوفا ورهبة من الجن واستجلابا لعطفها عليه حتى لا تمس جلالته بسوء . وإذا هبت عاصفة أو زجرت زوبعة كان يفسر ذلك بقتال طوائف الجن ، وكان إذا رأى حية يعتقد أنه رأى بنت الجان ، فقد كان عربيا جاهليا حتى النخاع وما كان الدين الذي اعتنقه قد سرى في وجدانه مسرى معتقدات الآباء والأجداد .

ومرت الليالي والأيام وعثمان يطوى الأرض في طرق قوافل التجارة ويمر

بمدن الشام والحجاز ، وهو حريص على كتاب يوسطينوس إلى أهل مكة ، حتى إذا ما لاحت لعينيه جبال الوادى خفق قلبه رهبة ، وقفز إلى رأسه سؤال : ترى كيف يقابل أهل الحرم أمر توليته ملكا عليهم ؟ وانتابه قلق وسرعان ما راح يقتل ذلك الاضطراب الذى لفه بأن يؤكد لنفسه أن ليس هناك بين المكيين من يجرؤ على رفض قرار أصدره إمبراطور الروم المبجل العظيم .

كانت مكة تمارس نشاطها التجارى ، يغدو ويروح فيها تجار من الشام والروم والفرس واليمن ومن كل مكان ، شاركوا المكيين فى سكناهم وتحالفوا مع أثريائهم ، وكان تجار الشام خاصة يجلبون القمح والزيت والخمور الجيدة إلى تجار مكة . وكان عبد الله بن جدعان والوليد بن المغيرة المخزومى وأثرياء مكة يقرضون الناس بالربا الفاحش ويمولون قوافل التجارة ويجنون الأرباح الطائلة .

وكانت مكة تمارس نشاطها الدينى يطوف أهلها بالبيت العتيق ويتمسحون بالأصنام ، وكان بعضها منحوتا من الحجارة وبعضها معمولا من النحاس وبعضها قوارير ، وكان صنم خزاعة من قوارير صفر ، ولم يتقرب المكيون إلى تلك الاصنام على أنها حجارة لا تضر ولا تنفع بل كانوا يعتقدون بحلول أرواح بتلك الأصنام ذات قوة فعالة خفية ، تطرد الخبائث عن عبادها وتجلب لهم الخير والبركات .

وكانت مكة تمارس حرياتها حتى أفلت الزمام وانقلبت الحرية إلى فوضى مدمرة تهدد الكيان المكى وتشئت الجماعات وتضعف الروابط بين الناس ، تلك الروابط التى تمكن من قيام مجتمع مدنى قادر على أن ينهض بأهله ليكون لهم حضارة بين الحضارات .

وتقدم عثمان بن الحويرث وقد لبس الحلة التي خلعتها عليه إمبراطور الروم وركب بغلته وقد وضع عليها السرج المموه بالذهب وفي يده رسالة قيصر إلى أهل مكة وقد ختمها بالذهب . وما إن وقعت عيناه على الكعبة حتى تقاصرت نفسه وطافت به موجة من الرهبة وزاغت نظراته واستشعر جفافاً في حلقة واضطراباً يسرى فيه من الرأس إلى القدم .

ونزل عثمان عن بغلته وراح وهو المسيحي يطوف بالبيت العتيق مع المشركين والصابئين والحنفاء ، فقد كان الجميع يؤمنون أن البيت أول بيت وضع للناس ، وأن إبراهيم وإسماعيل قد أقاما القواعد من البيت كما أمرهما بذلك رب الناس أجمعين .

وانتهى عثمان من طوافه ولم يستطع أن يصبر على ما جاء به ، فقام في الحرم وقال :

— يا قوم . يا قوم .

فذهب الناس إليه وأعاروه سمعهم فقال :

— يا قوم ، إن قيصر من قد علمتم أموالكم بيلاده وما تصيبون من التجارة في كنفه ، وقد ملكني عليكم . وإنما أنا ابن عمكم وأحدكم ، وإنما أخذ منكم الجراب من القرط والعكة من السمن والأوهاب ، فأجمع ذلك ثم أبعث به إليه ، وأنا أخاف إن أبيت ذلك أن يمنع منكم الشام فلا تتجروا به ويقطع مرفقكم منه .

وساد القوم وجوم ، وقدم عثمان كتاب قيصر وقد ختم بالذهب ، وما إن قرئ الكتاب على الناس حتى نزل بقلوبهم هم ثقيل ، فقد كتب عليهم أن يؤدوا الجزية إلى قيصر عن يد وهم صاغرون .

واجتمع سادات قريش في دار الندوة ، عقد أشرف القوم اجتماعات في

الكعبة وفي الدور ، ودارت المناقشات حول ما جاءهم به عثمان بن الحويرث فخاف أهل مكة قيصر وأخذ بقلوبهم ما ذكر عثمان من متجرهم ، فاجتمعوا على أن يعقدوا على رأس عثمان بن الحويرث التاج .

وبينا كانت قريش على أحفل ما تكون من الطواف ، جاء أبو زمعة الأسود ابن المطلب بن أسد ابن عم عثمان وقام في الكعبة وقال :

— يا قوم .. يا قوم .

وهرع الناس إلى أبي زمعة فإذا الغضب في وجهه قد زوى ما بين حاجبيه وقد لاح عليه قوة وعزم ، وألقوا إليه أسماعهم فقال في إنكار :

— عباد الله ، ملك بتهامة !؟

وفهمها الناس فما كان في تهامة ملك من قبل ، وما جاء به عثمان إن هو إلا بدعة ابتدئها يريد أن يذلهم بها ليصبح ملكا عليهم ، فأنحاش الناس أنحياش حمر الوحش ، وماج بعضهم في بعض وثاروا لكرامتهم وحريرتهم وقالوا في غضب :

— صدقت . واللوات والعزى ما كان بتهامة ملك قط .

فصاح أبو زمعة صيحة تجاوبت في أرجاء مكة :

— إن قريشا لقاح لا تملك .

ونقض الناس ما كانوا عاهدوا الحويرث عليه ، فسار ابن الحويرث إلى داره مطاطئ الرأس وقد ملأ الخنق جوانبه ، يرن في أعماقه صوت ابن عمه أبي زمعة الأسود :

— إن قريشا لقاح لا تملك .

رجعت حليلة بمحمد إلى أرض هوازن وقلبا يرقص طربا بين جنبها فقد كانت حريصة على أن تعود به بعد أن أحبته بكل جوارحها ، وكان الحارث سعيدا بأوبته لما كان يرى من بركته فقد صار التوفيق حليفهم مذ ذهبوا إلى مكة يلتمسون الرضعاء وعادوا بمحمد .

ورأت الشيماء رجوع أبويها في رفقتها أخوها الحبيب فصاحت صيحة فرح تجاوبت لها جبال هوازن ، وهرعت إليهم فخطفت محمدا من أمها وراحت تضمه إلى صدرها الذي كان يخفق بالنشوة والحب والحنان .

عاد محمد إلى البيداء إلى معبد الله الواسع العريض ، يرقب نجوم السماء ويرصد اختلاف الليل والنهار ويشاهد كل صباح ومساء شروق الشمس وغروبها وسريان النسيم وهبوب الرياح ليتعاطف مع الكون ويتناسق مع الوجود ، وليومض في قلبه فيض روحى يمكنه من الاتحاد مع الطاقة الروحية التى تسرى فى الوجود .

وراح محمد يغدو ويروح فى بنى سعد يرحب به الناس ، فقد ألقىت محبته فى قلوبهم . وكان الصبيان يفرحون به إذا ما شاركهم رمى السهام فهو يتجنبهم فى لعبهم ويؤثر أن يقلب وجهه فى السماء ، وما كان يسارع إليهم إلا إذا ما شدوا الأقواس ليرموا السهام فقد كانت الرماية لعبته المفضلة .

وذات يوم خرج ينقب عن إخوته فلم يجد منهم أحدا . فعاد إلى حليلة

وقال :

— يا أماه مالى لا أرى إخوتى بالنهار ؟

فابتسمت حليلة وقالت له فى حب :

— فدتك نفسى ، إنهم يرعون غنما لنا فيروحون من ليل إلى ليل .
فقال فى رجاء :

— ابعثنى معهم .

كان منذ نعومة أظفاره بضيق بالفراغ ، فما ولى الليل ووافى خروج أبناء الحارث لرعى الغنم حتى خرج معهم مسرورا يحنو على الخراف ويمر يده فى حنان على الماعز فتتحرك مشاعر الحب فى قلبه ، ويمد بصره إلى المراعى الخضراء ، ويصيح سمعه إلى همسات الليل ويقلب وجهه فى السماء ، ويهرع فى فرح إلى عيون الماء والآبار ، فيثرى فؤاده بكنوزه من المحبة ، وتتفتق براعم نفسه عن بعض أسرار الكون ، وتقوى روحه وتشتد أجنحتها لتسمو إلى ما وراء الطبيعة وإلى ما فوق السموات .

وظل محمد يرعى الغنم ، يخرج مسرورا ويعود مسرورا ، ينسكب فى ضميره الحب والرحمة والحنان ويتعلم الوفاق بينه وبين الوجود على مر الأيام ، فقد هياً له ربه فرصة رعاية الغنم ليتدرب على رعاية الناس ؛ فراعى الغنم سيصبح عما قريب راعى الشعوب ورحمة البشر .

وخرج محمد وعبد الله يوماً وانطلقا إلى الجبل ، ووقف الصبيان ينظران إلى ارتفاعه فى دهش ، ولم يخطر على بال عبد الله أن يرقى فيه بينما عقد محمد العزم على أن يصعد فيه حتى يقعد على ذروته ، وما لبث أن تقدم وراح يمشى على سفحه بخطى ثابتة وعبد الله يصيح به فى هلع يلتمس منه أن يعود .

واستمر محمد فى صعوده وقد تهلل بالفرح ، حتى إذا ما بلغ منتهاه قعد على ذروة الجبل وراح يتلفت ، فإذا بالوهاد والوديان منبسطة تحت أقدامه ، وإذا

بكل شيء خاشع كأنما قد سجد في محراب الله ، وإذا بأصوات رياح تتجاوب في المكان كأنما يد ماهرة تعزف على قيثارة الإيمان ، وملأ جلال الكون نفس الصبي فشخص ببصره إلى السماء ، فاستشعر كأن فيضا من النور يغمر فؤاده .

ورأى عبد الله محمدا وقد استقر على ذروة الجبل فسرى الخوف فيه ، ثم راح يعدو إلى حيث كان أبواه وهو يقول في فزع :

— أخى القرشى .. أخى القرشى .

وذهب الحارث وحليمة إلى ابنهما وقالاه :

— ماذا به ؟

— هناك على ذروة الجبل .

وراح الحارث وحليمة يعدوان حتى إذا ما بلغا الجبل راحا يصعدان فيه وقد اشتد وجيب قلبيهما ، كانا يخشيان أن يهوى محمد من فوقه قبل أن يبلغاه ، واستمررا يرقيان في حذر شديد حتى إذا ما وصلا إلى حيث كان وجداه هادئا ساكنا شاخصا ببصره إلى السماء وقد لفه هدوء عجيب ولاح في وجهه أمن وسلام .

والتفت الحارث إلى حليمة في دهش فقد توجت شفتى الصبي بسمة رقيقة عذبة وما عرف الخوف طريقه إلى قلبه ، ومالت حليمة وأخذت محمدا من يده وراحت تهبط في الجبل والحارث من خلفهما يمد يده ليسند حليمة كلما تأرجحت على سفح الجبل .

وخلا الحارث بحليمة وقال لها :

— رديه على جده واخرجني من أمانته .

كان الحارث يخشى أن يصيب محمدا مكروه بعد أن عرف كيف يشتد في

الجبل ولما يبلغ الخامسة من عمره ، وكان يرى أن خير ما تفعله حليلة أن تعيده إلى أمه قبل أن تدك عنقه ، وكانت حليلة تميل إلى أن يبقى ابنها معها ولكنها خشيت هلاكه فوافقت الحارث على رأيه .

وخرج الحارث وحليمة ومحمد يريدون مكة وقد أشرف موسم الحج وامتألت السبل بالحجاج ، واستمروا في سيرهم حتى بلغوا سوق ذى المجاز فنزلوا يجوسون خلال السوق ، وإذا بعرف يوثق إليه بالصبيان ينظر إليه فقدمت حليلة إليه محمدا ، فلما نظر إليه صاح :

— يا معشر العرب ، اقتلوا هذا الصبي ، فليقتلن أهل دينكم وليكسرن أصنامكم وليظهرن أمره عليكم .

فزاعت به حليلة عن الطريق في الوقت الذى اجتمع فيه الناس إلى العراف يسألونه :

— ماذا بك ؟

— اقتلوا هذا الصبي ؟

— أى صبي ؟ .

— هذا الصبي .

فراح الناس يتلفتون فلا يرون شيئا وصوت العراف يرن في آذانهم :
— رأيت غلاما والآلهة ليقتلن أهل دينكم وليكسرن آهتكم وليظهرن أمره عليكم .

وتفرق الناس في السوق يطلبونه ولكنهم لم يجدوه ، فقد كان ينطلق إلى مكة في رفقة حليلة والحارث في رعاية الله ، حتى إذا ما بلغوا أعلى مكة تلفتت حليلة فلم تجده فتملكها فزع شديد وراحت تجرى هنا وهناك وتناديه ، والحارث يبحث عنه بين الناس الذين جاءوا من كل فج عميق ليؤدوا مناسك

الحج . وانبهرت أنفاس حليلة وتفصد العرق من الحارث والتقى الزوجان بعد أن يمسا من العثور عليه ، فاتفقا على أن ينطلقا إلى جده عبد المطلب ليبعث من يبحث عنه .

كان عبد المطلب جالسا على فراشه في ظل الكعبة وقد جلس عنده ورقة بن نوفل وأبو جهل وزيد بن عمرو بن نفيل وبعض سادات قريش . وقد وقعت عيناه على حليلة والحارث وهما يتقدمان إليه في خطى مضطربة دون أن يكون معهما حفيده الحبيب ، وقرأ في وجهها القلق والحيرة فمضى الخوف إلى صدره وقال لحليمة :

— ما وراءك ؟

فقالت حليلة وقد نكست رأسها وغلفت صوتها رنة أسي :

— إني قدمت بمحمد هذه الليلة ، فلما كنت بأعلى مكة أضلني فوالله ما

أدرى أين هو .

أضلته في أعلى مكة ؟ أضلته في ذلك الوقت الذي يأتي فيه الحجاج على كل ضامر من كل فجع عميق ؟ وارتسم الهلع على وجه عبد المطلب فإن ضاع محمد ماتت آمنة كمدًا وتجددت أحزان بني هاشم على عبد الله فتى قريش الذبيح ، تلك الأحزان التي دثرها بغلالة من الفرح مولد ابن عبد الله الضال . وهب الرجال على رواحهم لينطلقوا إلى أعلى مكة وقد ضجوا لضياح محمد ، وقد سرى في صدورهم خوف وقلق على الصبي وشفقة على عبد المطلب الذي تعلق بأستار الكعبة وراح يتهل إلى ربه أن يرد ولده وقد بللت الدموع عينيه .

خاف القوم على الصبي الذي جعل الله كيد أصحاب الفيل في تضليل ،

وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف
مأكول ، ليحفظه من معرة جيش أبرهة . وخافوا على قريش ونزل بهم هم
ثقيل خشية أن تتجدد أحزان بني هاشم ، وما دار بخلد أحدهم عظم النكسة
التي كانت تصيب البشرية لو أن محمد بن عبد الله قد ضاع في تلك الليلة .

التذييل

كانت العرب في الجاهلية على صلة بالفرس والروم واليمن ومصر وكل دول الأرض في ذلك الزمن ، ولم يكن العرب مستقرين في جزيرتهم لا صلة بينهم وبين العالم الخارجى كما كان يظن الإخباريون والمؤرخون الإسلاميون الذين دونوا تاريخ العرب في الجاهلية ، وقبل مبعث الرسول عليه الصلاة والسلام . وقد كانوا أهل حضارة وقد عرفوا اليهودية والنصرانية والصابئة والمجوسية والحنيفية وكل ديانات الشعوب . وقد هجر بعضهم دين الآباء واعتنقوا اليهودية أو النصرانية ، وراح بعضهم يبحث عن الحنيفية الحققة دين إبراهيم ، وظل أغلبهم على عبادة ما كان آباؤه يعبدون .

ويطلق لفظ الجاهلية على حال العرب التى كانوا عليها قبل الإسلام لما كانوا عليه من مزيد الجهل فى كثير من الأعمال والأحكام ، يقتلون أولادهم سفها بغير علم ، ويحرمون ما رزقهم الله افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين .

وقيل إن الجاهلية هى أيام الفترة وهى الزمن بين الرسولين ، وقد تطلق على زمن الكفر مطلقا ، وعلى ما قبل الفتح ، وعلى ما كان بين مولد النبى والمبعث . وعن ابن خالوية : إن هذا اللفظ اسم حدث فى الإسلام للزمن الذى كان قبل البعثة .

ولفظ الجاهلية قد يكون اسما للحال وهو الغالب فى الكتاب والسنة . كقول النبى ﷺ لأبى ذر : إنك أمرؤ فىك جاهلية . وقول عمر رضى الله

تعالى عنه : إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة . وقول عائشة رضى الله عنها : كان النكاح في الجاهلية على أربعة أنحاء . وقولهم : يارسول الله كنا في جاهلية وشر . فإن الجاهلية وإن كانت في الأصل صفة ولكن غلب على لفظها الاستعمال حتى صار اسما ومعناه قريب من معنى المصدر .

وقد يكون لفظ الجاهلية اسما لذى الحال ، فتقول : طائفة جاهلية وشاعر جاهلي ، وذلك نسبة إلى الجهل الذى هو عدم العلم أو عدم اتباع العلم ، كقوله تعالى « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلما » . وكقول صلى الله عليه وسلم (إذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل) .

كل من عمل سوءا فهو جاهل وإن علم أنه مخالف للحق ، فالعلم الحقيقى الراسخ فى القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل ، فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه . وكل ما يخالف ما جاء به المرسلون فهو جاهلية ، وتلك كانت الجاهلية العامة ، فأما بعد مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم فالجاهلية المطلقة قد تكون فى مصر دون مصر ، وقد تكون فى شخص دون شخص . كالرجل قبل أن يسلم فإنه فى جاهلية ، فأما فى زمان مطلقا فلا جاهلية بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه لا تزال من أمته طائفة ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة .

وقد تقوم الجاهلية المقيدة فى بعض ديار المسلمين وفى كثير من الأشخاص المسلمين ، كما قال صلى الله عليه وسلم : أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر بالأحساب ، والطعن فى الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة .

وقد اختلف المفسرون فى المراد من أهل الجاهلية الأولى فى قوله تعالى « وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » . فقيل : كانت فى الزمن الذى ولد فيه إبراهيم عليه السلام ، فقد كانت المرأة تلبس الدرع من

اللؤلؤ فتمشى في وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال . وقيل : كانت بين آدم ونوح وحكيته لهم سيرة ذميمة . وقيل ما بين نوح وإدريس وقيل ما بين نوح وإبراهيم ، قيل إن المرأة كانت تلبس الدرع من اللؤلؤ غير مخيط الجانبين وتلبس الثياب الرقاق ولا توارى بدنها . وقالت فرقة : ما بين موسى وعيسى ومحمد ﷺ . وقال أبو العالية هي زمان داود وسليمان عليهما السلام ، كان للمرأة قميص من الدر غير مخيط الجانبين ، وكان النساء يظهرن ما يقبح إظهاره حتى كانت المرأة تجلس مع زوجها وخلها فينفرد خلها بما فوق الإزار وينفرد زوجها بما دون الإزار إلى أسفل ، وربما سأل أحدهما صاحبه البدل . وقال مجاهد : كان النساء يمشين بين الرجال فذلك التبرج . قال ابن عطية : والذي يظهر عندى أنه تعالى أشار للجاهلية التي أدركتها فأمرن بالنقلة عن سيرتهن فيها ، وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكفار لأنهم كانوا لا غيره عندهم فكان أمر النساء دون حجه ، وجعلها أولى بالنسبة إلى ما كن عليه ، وليس المعنى أن ثم جاهلية أخرى ، وقد أوقع لفظ الجاهلية على تلك المدة التي قبل الإسلام .

وكان التضارب في الروايات هو سمة الإخباريين المسلمين الذين دونوا تاريخ مولد الرسول ، كما كانت الصفة الغالبة لرواياتهم على الدوام . فعن ابن إسحاق لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب أن توفي وأم رسول ﷺ حامل به ، وقيل إن موت والده كان بعد أن تم لها من حملها شهران ، وقيل قبل ولادته بشهرين ، وقيل كان في المهد حين توفي أبوه ابن شهرين ، وقيل كان ابن تسعة أشهر ، وقيل ابن ثمانية عشر شهرا ، وقيل ابن ثمانية وعشرين شهرا . ولما كانت عادة العرب أن يدفعوا مواليدهم إلى المراضع في اليوم الثامن من مولدهم ، ولما كانت المراضع قد أبتة ليطمه ، فقد اعتمدت الرأى القائل بأن

أباه مات قبل ولادته بشهرين .

وقد تضاربت أقوالهم في السنة التي هاجم فيها أصحاب الفيل مكة ، فقيل في السنة التي ولد فيها الرسول ﷺ ، وقيل قبل مولده بخمس وعشرين سنة ، وقيل بخمس عشرة سنة ، وقبل بعد مولده بخمس عشرة سنة ، ولما كان الرسول ﷺ قد ولد في سنة ٥٧٠ من مولد المسيح ، ولما كان أبرهة قد عاد إلى اليمن بعد أن أصيب جيشه بالجدري أثناء حصار مكة في نفس السنة ، فقد أخذت بالرأى القائل أن رسول ﷺ قد ولد في عام الفيل .

وقد كتب الإخباريون الإسلاميون تاريخ مولد الرسول بعد أن انتشر الإسلام وآمنوا بالدين الذي جاءهم به محمد ﷺ ، فكتبوا تاريخ هذه الحقبة بأقلام مفتونة بعظمة ذلك الوليد الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور ، فأكثروا من ذكر البشارات والإرهاصات بمولده ، وبالغوا في بعضها حتى بدا كأن الغيب قد أصبح في تلك الفترة من الزمن كتابا مفتوحا ، فقد قيل في رواية عن أمه أنها قالت : لما خرج من بطنى نظرت إليه فإذا هو ساجد قد رفع أصبعيه كالمتضرع المبتهل ، وروى أنه قبض قبضة من تراب وأهوى ساجدا ، فبلغ ذلك رجلا من بنى لهب فقال لصاحبه : لئن صدق هذا الفأل ليغلبن هذا المولود أهل الأرض . وروى ابن سعد في طبقاته الكبرى أن رسول الله ﷺ قال : رأيت أمي حين وضعتني سطع منها نور أضاءت له قصور بصرى . وروى السهيلي عن الواقدي . أنه ﷺ لما ولد تكلم فقال : جلال ربي الرفيع . وعن كعب الأخبار وكان على دين اليهودية قبل الإسلام : إني أجد في التوراة « عبدى أحمد المختار مولده بمكة » .

وقيل : كان بمر الظهران راهب من أهل الشام يدعى عيص وقد كان آتاه الله علما كثيرا ، وكان يلزم صومعة له ويدخل مكة فيلقى الناس ويقول :

يوشك أن يولد فيكم مولود يا أهل مكة تدين له العرب وتخضع ويملك العجم هذا زمانه ، فمن أدركه واتبعه أصاب حاجته ، ومن أدركه وخالفه أخطأ حاجته . فكان لا يولد بمكة مولود إلا ويسأل عنه ويقول : ما جاء بعد . فلما كان صبيحة اليوم الذي ولد فيه رسول صلى الله عليه وسلم خرج عبد المطلب حتى أتى عيصا فوقف على أصل صومعته ، فنادى فقال : من هذا ؟ فقال : أنا عبد المطلب . ما ترى عليه ؟ فقال : كن أباه ، فقد ولد ذلك المولود الذي كنت أحدثكم عنه وأن نجمه طلع البارحة ، وعلامة ذلك أنه الآن وجع فيشتكى ثلاثا ثم يعافى . فاحتفظ لسانك فإنه لم يحسد حسده أحد . ولم يبيع على أحد كما يبغي عليه . قال : فما عمره ؟ قال : إن طال عمره لم يبلغ السبعين ، يموت في وتر دونها في إحدى وستين أو ثلاث وستين .

وقال الجلال السيوطي في خصائصه الصغرى : إن من خصائصه صلى الله عليه وسلم تنكيس الأصنام لمولده . وعن عبد المطلب قال : كنت في الكعبة فرأيت الأصنام سقطت من أماكنها وخرت سجدا ، وسمعت صوتا من جدار الكعبة يقول : ولد المصطفى المختار ، الذي تهلك بيده الكفار ، ويطهر من عبادة الأصنام ، ويأمر بعبادة الملك العلام .

وقال الإمام الماوردي في « أعلام النبوة » بعد أن ذكر وفود عبد المطلب على سيف بن ذي يزن . قال سيف : يا عبد المطلب إني مفض إليك عن سر علمي ما لو كان غيرك لم أبح له . ولكن رأيتك معدينه وأطلعتك عليه فليكن عندك مطويا حتى يأذن الله فيه . فإن الله بالغ فيه أمره . إني أجد في الكتاب المكنون ، والعلم المخزون ، الذي اخترناه لأنفسنا واحتجناه دون غيرنا خيرا عظيما وخطرا جسيما ، فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاء للناس عامة ، ولرهطك كافة ، ولك خاصة . قال عبد المطلب : أيها الملك فمثلك من سر

وبر ، فما هو فداك أهل الوبر ، زمرا بعد زمرا ؟ . قال : إذا ولد بتهامة ، غلام بين كتفيه شامة ، كانت له الإمامة ، ولكم به زعامة ، إلى يوم القيامة . فقال له عبد المطلب : أبيت اللعن لقد أتيت بخبر ما أتى بمثله وافد ، فلولا هيبة الملك وإجلاله وإعظامه لسألته من بشارته إياي ما أزداد به سرورا . قال ابن ذى يزن : هذا حينه الذى يولد فيه أو قد يولد ، اسمه أحمد ، يموت أبوه وأمه ، ويكفله جده وعمه ، وقد ولدناه مرارا ، والله باعثه جهارا ، وجاعل مناله أنصارا . يعز بهم أولياؤه ويذل بهم أعداؤه . يضرب بهم الناس عن عرض ، ويستفتح بهم كرائم الأرض . تكسر الأوثان ، وتخمد النيران ، ويعبد الرحمن . ويدحر الشيطان . قوله فصل ، وحكمه عدل . يأمر بالمعروف ويفعله ، وينهى عن المنكر . قال عبد المطلب : أيها الملك عز جدك ، وعلا عقبك ، وطاب ملكك . وطال عمرك . فهل الملك سارئى بإفصاح ، فقد أوضح بعض الإيضاح ؟ فقال ابن ذى يزن : والبسيت ذى الحجب ، والعاملات على النصب ، إنك يا عبد المطلب ، لجده غير الكذب . فخر عبد المطلب ساجدا ، فقال ابن ذى يزن : ارفع رأسك ، ثلج صدرك ، وعلا أمرك ، فهل أحسست شيئا مما ذكرت لك ؟ فقال : نعم أيها الملك كان لى ابن وكنت به معجبا رفيقا ، فزوجته كريمة من كرائم قومية آمنة بنت وهب بن عبد مناف ، فأتت بغلام سميته محمدا ، مات أبوه وأمه ، وكفلته أنا وعمه ، بين كتفيه شامة ، وفيه كما ذكرت من علامة . قال ابن ذى يزن : إن الذى قلت لك لكما قلت لك فاحتفظ بابنك ، واحذر عليه اليهود فإنهم له أعداء ، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا فاطو ما ذكرته دون هؤلاء الرهط الذين معك ، فإنى لست آمن أن يداخلهم النفاسة ، من أن تكون لك الرياسة ، فييغون له الغوائل ، وينصبون له الحبائل . وهم فاعلون وأبناؤهم ، ولولا أنى أعلم أن (مولد الرسول)

الموت يحتاجنى قبل مبعثه لسرت بخيلى ورجلى حتى أصير بيثرب دار ملكه ،
فإنى أجد فى الكتاب الناطق ، والعلم السابق . أن يثرب استحكام أمره ،
وأهل نصرته ، وموضع قبره ولولا أنى أقيه الآيات ، وأحذر عليه العاهات ،
لأعلنت على حداثة سنه ذكره ، وأوطيت أسنان العرب عقبه ، ولكنى
صارف ذلك إليك ، بغير تقصير من معك .

وقيل إن ليلة ولادته صلوات الله عليه تزلزلت الكعبة ولم تسكن ثلاثة أيام بلياليهن ،
وكان ذلك أول علامة رأيت قريش من مولد النبي صلوات الله عليه ، وارتجس أيوان
كسرى وسمع لشقة صوت هائل ، وسقط من ذلك الإيوان أربع عشرة
شرفة . وأنه صار تلك الليلة كل واحد من بيوت نار فارس التى كانوا يعبدونها
خامدة نيراته ، وغور ماء عيون الفرس فى الأرض حتى لم يبق منها قطرة .
ورأى كسرى ما هاله وأفرعه . فلما أصبح تصبر ، ثم رأى أنه لا يدخر ذلك
عن مرازبته فجمعهم وليس تاجه وجلس على سريره ، ثم بعث إليهم فلما
اجتمعوا عنده قال . أتدرون فيما بعثت إليكم ؟ قالوا لا إلا أن يخبرنا الملك .
فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب بخمود النيران ، وكتاب من صاحب إيليا
يخبره أن بحيرة ساوة غاضت تلك الليلة ، وورد عليه كتاب صاحب طبرية
يخبره أن وادى السماوة انقطع تلك الليلة ، وورد عليه كتاب صاحب طبرية
يخبره بأن الماء لم يجر فى بحيرة طبرية . فازداد غما إلى غم ، ثم أخبرهم بما رأى
وما هاله ، فقال الموبدان : فأنا أصلح الله الملك قد رأيت فى هذه الليلة رؤيا ،
رأيت إبلا صعبا ، تقود خيلا عرابا ، قد قطعت دجلة وانتشرت فى بلادها .
فقال كسرى : أى شىء يكون هذا يا موبدان ؟ قال : حدث يكون فى ناحية
العرب ، فابعث إلى عاملك بالبحيرة يوجه إليك رجلا من علمائهم فإنهم
أصحاب علم بالحدثان .

فكتب كسرى عند ذلك : من كسرى ملك الملوك إلى النعمان بن المنذر . أما بعد فوجه إليّ برجل عالم بما أريد أن أسأله عنه . فوجه إليه بعبد المسيح الغساني وهو معدود من المعمرين عاش مائة وخمسين سنة. فلما ورد عليه قال : لك علم بما أريد أن أسألك عنه ؟ قال : ليسألني الملك عما أحب ، فإن كان عندي علم منه وإلا أخبرته بمن يعلمه .

فأخبره بالذي وجه إليه فيه ، قال : علم ذلك عند خالي يسكن مشارف الشام يقال له سطيح . قال : فأتته فأسأله عما سألتك عنه ثم اتنى بتفسيره . فخرج عبد المسيح حتى انتهى إلى سطيح ، وقد أشفى على الضريح ، وعمره إذا ذاك ثلاثمائة سنة ، وكان جسدا ملقى لا جوارح فيه ، وكان لا يقدر على الجلوس إلا إذا غضب فإنه ينتفخ فيجلس ، وكان وجهه في صدره ولم يكن له رأس ولا عنق ، ولم يتحرك منه إلا اللسان ، فقال سطيح : جاء عبد المسيح ، على جمل مشيح (سريع) ، إلى سطيح ، وقد وافى على الضريح (الموت) . بعثك ملك ساسان ، لارتجاس الإيوان . وخمود النيران . ورؤيا الموبدان . رأى إبلا صعبا ، تقود خيلا عرابا ، قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها . يا عبد المسيح ، إذا كثرت التلاوة ، وظهر صاحب الهراوة ، وغاضت بحيرة ساوة ، وخمدت نار فارس ، فليست بابل للفرس مقاما ، ولا الشام لسطيح شاما ، يملك منهم ملوك وملكات ، على عدد الشرفات ، وكل ما هو آت آت . ثم قضى سطيح مكانه .

رأى الكتاب المحدثون ما في هذه الأخبار والأحاديث من وضع ظاهر لا يحتاج إلى تمحيص لتبيان زيفه ، فرفضوا كل ما يتعلق بالبشارات والإرهاصات بمولد النبي ﷺ ، وأنكروا كل المعجزات ، حتى أحلام الآباء والأمهات رفضوها ، ولعل ذلك الرفض مرده خشيتهم من فرويد الذي يأتي أن يعترف

بالرؤيا الصادقة ، ويرد كل الأحلام إلى الغريزة الجنسية ، كأنما قد استحالت نظرية فرويد التي تؤكد أن الحياة كلها جنس ومنبثقة من خلال الجنس ، إلى دين يطرد من حظيرة الإيمان كل من يمس قدسيته .

وعندى أن الفريقين قد جانبهما التوفيق ، الفريق الذى دفعه حبه لنيبه إلى وضع أخبار وأحاديث تروى الخوارق والمعجزات التى وقعت عند مولد محمد صلوات الله عليه قد أساء إلى سيرة النبى العظيم ، فليس من المعقول ولا من المقبول أن الأمر كان يمثل ذلك الوضوح ، فالاختراع ظاهر يدمغ أغلب الروايات بالكذب والتلفيق ، وما كانت تلك الخوارق والمعجزات لتزيد الإنسان الكامل شرفا على شرف . والفريق الذى دفعه خوفه من دعاة العلم الحديث إلى إنكار البشارات والأحلام قد أساء إلى نفسه ، فالقرآن الكريم يؤكد أن أهل الكتاب من يهود ونصارى كانوا على علم بمبعث النبى الأسمى الذى سببته الله فى الأميين لا فى بنى إسرائيل : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون . الحق من ربك فلا تكونن من الممترين » . « الذين يتبعون الرسول النبى الأسمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطبيات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون » .

كان أهل الكتاب من يهود ونصارى يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وقد ادعى بعض الذين جاءوا بعد المسيح من الأنبياء الكذبة أنهم « الفراقليط » الذى بشر به المسيح . وقد بذلت كل جهد فى الأجزاء السابقة أن أوضح البشارات التى جاءت فى التوراة والإنجيل ونبوءات زرادشت وساسان ، وقد

أوردت في هذا الجزء من السيرة بعض نبوءات الكهان والرهبان والأخبار ، وإني لا أستطيع أن أجزم بصحتها ولا أملك أن أكذبها ، ولكنى سردها تؤكد لإيماني بما أشار به القرآن الكريم من أن أهل الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وأنكر بعض الكتاب المحدثين رؤيا عبد المطلب ورؤيا آمنه التي بشرت فيها بأنها قد حملت بسيد هذه الأمة ، وكل الرؤى المنتبئة لأن فرويد قد لقنهم الرؤى الصادقة ، فكيف يرى الإنسان رؤيا صادقة إذا كانت الغريزة الجنسية هي مصدر كل الأحلام ؟

كان هم فرويد تلويث الدين والأخلاق : إن التسامى نوع من الشذوذ (١) ، وإن الأخلاق تتسم بطابع القسوة حتى في درجتها الطبيعية العادية ، وإن الأساطير المسيحية تصور في حقيقتها رغبة الابن (المسيح) في قتل والده (الرب الإله) وإن كان قد كبت هذه الرغبة فقتل نفسه بدلا من أبيه ، ولكن أصبح إلها مكان أبيه ! وإن الحضارة تتعارض مع النمو الحر للطاقة الجنسية ! وإن الدين والأخلاق والحضارة تنشأ من الكبت الجنسي ، والكبت الجنسي خطر على الكيان النفسى والعصبى لأنه يصيب النفس بالعقد والاضطرابات .

كان فرويد في خدمة صهيون ، وقد جاء في كتاب برتوكولات حكماء صهيون : « يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان فنسهل سيطرتنا .. إن فرويد منا . وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لا يبقى في نظر الشباب شىء مقدس ، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار أخلاقه » .

هذا هو فرويد الذى يرتجف منه ككتابنا المحدثون ويخشون أن يقرأوا بإمكان وقوع الرؤيا الصادقة بين البشر ، ما دام فرويد قد لقنهم أن حياة الإنسان حياة حيوانية بحتة ، فغرائزه هى التى تحكمه وهى التى تسيطر على كل نشاطه ، والجانب المسمى « الروح » لا وجود له على الإطلاق .

إن القرآن الكريم يؤكد وقوع الرؤيا الصادقة ، وسورة يوسف كلها تأكيد للرؤيا وتأويل الأحاديث ، وواقع الناس جميعا يؤكد هذه الحقيقة على الرغم من محاولة فرويد فى كل نظريته إنكار ذلك الجانب فى البشر ، وقد أوردت الرؤى التى رآها الملوك والكهان وعبد المطلب وآمنة ، وأوردت تأويل تلك الرؤى ، فمن حق آمنة أن تحلم وأن نرى ابنها سييدا لقومه فذلك حق كل أنثى ، وما أحسب أن أما على وجه الأرض لم تحلم بمستقبل مشرق لابنها الحبيب .

كان من شيم العرب وأخلاقهم إذا ولد لهم ولد يلتمسون له مرضعة من غير قبيلتهم ليكون أنجب للولد وأفصح له ، وقد أخذت حليلة محمدا ﷺ ، ويروى رواية السيرة حديث حليلة قالت : فلما أخذته رجعت به إلى رحلى ، فلما وضعته فى حجرى أقبل ثدياى بما شاء الله من لبن فشرب حتى روى ، وعرضت عليه الأيسر فأباه وكانت تلك حالته بعد ، وشرب معه أخوه حتى روى ثم نام ، وما كنا ننام معه قبل ذلك ، فقام زوجى إلى شارفنا فإذا هى لحافل (أى ممتلئة الضرع من اللبن) فحلب منها ما شرب وشربت حتى انتهينا ريا وشبعا فبتنا بغير ليلة . يقول صاحبى حين أصبحنا : تعلمى والله يا حليلة لقد أخذت نسمة مباركة . قلت : والله إنى لأرجو ذلك . ثم خرجنا وركبت أتانى وحملته ﷺ معى عليها ، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شئ من حمرهن حتى إن صواحبى يقلن لن : يا بنت أبى ذؤيب ويحك أربعى

(ارفقى) ، أليس هذا أتانك التى كنت خرجت عليها تخفضك طورا وترفعك أخرى . فأقول لمن : بلى والله إنها لهى ، فيقلن والله إن لها لشأنا . ثم قدمنا منازل بنى سعد ولا أعلم أرضا من أراضي الله أجذب منها ، فكانت غنمى تروح على حين قدمنا به شباعا لبنا فنحلب ونشرب ، حتى كان الحاضر فى المنازل من قومنا يقول لرعاتهم : ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب ، فتروح أغنامهم جياعا ما تبض بقطرة لبن وتروح غنمى شباعا لبنا ، فلم نزل نعرف من الله تعالى زيادة الخير حتى مضت سنتان وفصلته .

و لم أسرد هذه الأحداث فى السيرة لأنها ليست ذات أثر فى حياة الرسول ، فقبيلة هوازن التى رضع فيها لم تؤمن به إلا بعد فتح مكة وبعد أن نشبت بين المسلمين وبين هوازن حرب يوم حنين كادت الدائرة فيها تدور على المسلمين لولا ثبات الرسول ﷺ ، فلو أن القبيلة كانت قد أسلمت بفضل بر كته ﷺ أيام كان يسترضع فى بنى سعد لكان لمثل هذه الأحداث أثر بارز فى السيرة ، أما وأن الله تبارك وتعالى قد كتب على نبيه الكفاح والجهاد والصبر ليلبغ رسالات ربه ، ويمكن لدينه فى الأرض ، فلم يعد لتلك الروايات مكان فى سيرة رجل نشر دين الله بالعرق والجهاد والعمل والقدوة الحسنة .

إن الله قادر على أن يحتفل بمولد رسوله الكريم ، وهو قادر على أن يغمر الأرض ببر كته وأن يملأها خيرا ، ولكن الله أراد أن يضرب لرسوله ﷺ المثل للناس وأن يعلمهم أن الأهداف الكبيرة لا يمكن الوصول إليها بالخوارق والمعجزات بل بالعمل الجاد الذى يراد به وجه الله الكريم : « ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ، إنما أنت منذر ولكل قوم هاد » .

وفى أثناء وجوده ﷺ فى منازل بنى سعد روى الرواة حديث شق

الصدر ، قالت حليلة : « فوالله إنه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيه في بهم لنا خلف بيوتنا ، إذ أتى أخوه يشتد فقال لي ولأبيه : ذاك أخي القرشي قد أخذ رجلا ن عليهما ثياب بيض فأضجعا فشقنا بطنه فهما يسوطانه (أى يدخلان يديهما في بطنه) . فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه قائما منتقعا وجهه (لون النقع) ، فالتزمته والتزمه أبوك فقلنا : مالك يا بنى ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : جاءني رجلا ن عليهما ثياب بيض ، فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو . قال : نعم ، فأقبلا يتدرا نى فأخذانى فأضجعا نى فشقنا بطنى فالتمسا فيه شيئا فوجداه ، فأخذاه وطرحاه ولا أدرى ما هو .

هذه رواية ، وفي رواية أخرى أن ابن حليلة أتى يعدو فرعا وجبينه يرشح باكيا ينادى : يا أبت ويا أمه ، الحقا أخى محمدا فما تلحقانه إلا ميتا ، قلت : وما قضيته ؟ قال : بينا نحن قيام إذ أتاه رجل فاخطفه من وسطنا وعلا به ذروة الجبل ونحن ننظر إليه ، حتى شق صدره إلى عاتقه ، ولا أدرى ما فعل به . فانطلقت أنا وأبوه نسعى سعيا فإذا نحن به قاعدا على ذروة الجبل شاخصا ببصره إلى السماء يتسم ويضحك ، فأقبلت عليه وقبلته بين عينيه وقلت له : فدتك نفسى ما الذى دهاك ؟ قال : خيرا يا أماه ، بينا أنا الساعة قائم إذ أتانى ثلاثة بيد أحدهم إبريق فضة وفي الآخر طست من زمردة خضراء ، فأخذونى وانطلقوا نى إلى ذروة الجبل فأضجعونى على الجبل إضجاعا لطيفا .. » .

وفي رواية ثالثة عنه صلى الله عليه وسلم : « فبينما أنا مع أخ لى خلف بيوتنا نرعى بهماننا ، أتانى رجلا ن عليهما ثياب بيض بيد أحدهما طست من ذهب مملوءة ثلجا ، فأخذانى فشقنا بطنى ثم استخرجا قلبى فشقاها فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ، وقيل : هذا حظ الشيطان منك يا حبيب الله » .

وفي رواية رابعة عن رسول صلى الله عليه وسلم ، « كنت مسترضعا فى بنى سعد ، فبينما

أنا ذات يوم متنبذا من أهلي في بطن واد مع أتراب من الصبيان ، إذا أتى رهط من ثلاثة معهم طست من ذهب ملآن ثلجا ، فأخذوني من بين أصحابي فخرج أصحابي هربا حتى أتوا على شفير الوادي ، ثم أقبلوا على الرهط فقالوا : ما أربكم إلى هذا الغلام ؟ فإنه ليس منا ، هذا ابن سيد قريش ، وهو مرتضع فينا يتيم ليس له أب ، فما يرد عليكم أن يفيدكم قتله ، وماذا تصيبون من ذلك ؟ فإن كنتم لا بد قاتلوه فاختاروا منا من شئتم فليأتكم مكانه فاقتلوه ودعوا هذا الغلام فانه يتيم ، فلما رأى الصبيان أن القوم لا يجيئون جوايا انطلقوا هربا مسرعين إلى الحى يؤذنونهم ويستصرخونهم على القوم ، فعمد أحدهم إلى فأضجني على الأرض إضجاعا لطيفا ، ثم شق بطني ما بين مفرق صدرى إلى منتهى عانتى وأنا أنظر إليه ، فلم أجد لذلك مسا ، واستخرج أحشاء بطني ثم غسلها بذلك الثلج فأنعم غسلها ، ثم أعادها مكانها ، ثم قال الثانى منهم لصاحبه : تنح عنه فنحاه عنى ، ثم أدخل يده فى جوفى فأخرج قلبى وأنا أنظر إليه ، فصدعه ثم أخرج منه مضغة سوداء ثم رمى بها .. » .

وفى رواية عن الرسول ﷺ أنه عند ابتداء الوحى : « جاءنى جبريل وميكائيل فأخذنى جبريل وألقانى حلأوة القفا ، ثم شق عن قلبى فاستخرجه ثم استخرج منه ما شاء الله أن يستخرج ، ثم غسله فى طست من ماء زمزم ، ثم أعاده إلى مكانه ثم لأمه ، ثم أكفانى كما يكفى الإناء ثم ختم فى ظهرى » .

ولم أشر فى السيرة إلى حادثة شق الصدر أو البطن . لا لاضطراب الروايات فحسب بل لأنى أعتقد أن الله ليس فى حاجة إلى إجراء عملية جراحية ليظهر نبيه وليلأه حكمة ، وأعتقد أن كل ما جاء عن شق الصدر قد وضع بعد صدر الإسلام ، عندما أراد الشراح شرح الآية الكريمة : « ألم نشرح لك صدرك » فقد بعد الشراح عن روح القرآن وروحانيته ولجئوا إلى الماديات

المحسوسة لتفسير معاني روحية سامية ، فابتدعوا روايات متنافرة لا يقبلها العقل ولا المنطق ولا الذوق السليم ، فمن ذا الذى يستطيع أن يصدق أن ملاكين قد هبطا ليظهرا قلب النبي ﷺ فلا يعرفانه ، فيقول أحدهما : أهو هو ؟ فيقول الآخر : نعم . وكيف يريد منا واضعو هذه الأحاديث أن نصدق أن الرسول ﷺ قال مرة : جاءنى رجلان ، وقال مرة أخرى : جاءنى نسران . وقال مرة ثالثة : جاءنى رجلان رهط من ثلاثة ؟ وكيف يريد واضعو هذه الأحاديث أن نصدق أن أطفالا صغارا يقولون للملائكة : ... فإن كنتم لا بد قاتلوه فاختاروا منا من شئتم فليأتكم مكانه فاقتلوه . يا الله ! أهؤلاء صبية يلعبون أم أتباع محمد ﷺ بعد أن آمنوا به وصدقوه !؟

ومتى وقعت حادثة شق البطن أو الصدر ؟ أوقعت فى أرض هوازن أم وقعت فى مكة قبل البعث ؟ وبماذا كان التطهير بأالثلج أم بماء زمزم ؟ إن هذه الحادثة لم تقع إلا فى مخيلة واضعى هذه الأحاديث .

قررت فى تذييلات الأجزاء السابقة أن آدم كان على علم وأن الأصل فى الدين عبادة الله وحده ، وأن الأساطير والشرك بالله وعبادة الشمس والقمر والأصنام والأوثان عرفتھا البشرية لما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم ، وأن الله سبحانه وتعالى أرسل الرسل للقضاء على تلك الأساطير وإعادة جوهر التوحيد . ولو تتبعنا أسماء العرب منذ إبراهيم الخليل عليه السلام إلى مبعث محمد ﷺ لوضحت لنا هذه الحقيقة ، فإنه إبراهيم كان يعرف بالإيل وقد نسب إليه إسماعيل وإسرائيل . وكانت أسماء العرب الموحدين تنسب إليه وأشهر تلك الأسماء « إلشرح » وأصلها « إيل شرح » وإلرفع « إيل يفع » وإلكرب « إيل كرب » وإلسمع « إيل سمع » ، فلما طال على الناس العهد

واتخذوا آلهة غير إله أبيهم إبراهيم سموا أبناءهم بأسماء تلك الآلهة : « تيم اللات » و « زيد اللات » و « امرؤ مناة » و « امرؤ القيس » و « زيد مناة » و « عبد عوف » و « عبدود » وإن اتجاه هذه الأسماء ليؤكد الحقيقة التي سبق أن قررتها من أن الإنسان كان على علم وأنه كان يعرف الله وحده لا شريك له ، فلما طال على الناس الأمد قست قلوبهم وأشركوا بربهم ، وأن الإنسان لا يترقى في الديانات كما يترقى في العلوم ، كما قال كتاب من المسلمين تأثروا بآراء غريبة وثنية .

والجاهليون ^(١) كانوا يعتقدون بوجود إله واحد أعلى ، خلق هذا الكون ، لذلك توجهوا إليه وأقسموا به . ونجد لهذا الرأي سنداً في القرآن الكريم ففيه أن قريشا كانت تعترف بأن الله هو رب السموات والأرض : « قل من رب السموات والأرض ؟ قل : الله ، قل : أفأتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا . قل : هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أم هل تستوى الظلمات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم : قل : الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار » .

ونجد إقرار قريش بوجود إله واحد خالق السموات والأرض في مواضع أخرى من القرآن الكريم . ففي سورة العنكبوت « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله . فأنى يؤفكون » . وفي هذه السورة نفسها سؤال آخر موجه إلى المشركين « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ؟ ليقولن : الله . قل : الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعقلون » وفي سورة لقمان سؤال آخر موجه إلى

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام . الجزء الخامس صفحة ٢٤١ وما بعدها .

أولئك المشركين وجواب صادر منهم هو هذا الجواب نفسه . إقرار بوجود خالق واحد خلق السماوات والأرض : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ؟ ليقولن الله ، قل : الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون » . وهناك آيات أخرى على هذا النحو فيها أسئلة موجهة إلى المشركين عن خالق السموات والأرض ، وأجوبة على ألسنتهم فيها اعتراف بأن خالقها وصانعها هو الله .

وفي القرآن الكريم أن قريشا كانت تعتقد أن الله هو الذى ينزل المطر ويحيى الأرض بعد موتها : « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ؟ ليقولن : الله . قل : الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعقلون » . وفيه أهم كانوا يقسمون به وأنهم كانوا قد جعلوا له نصيبا مما ذرأ من الحرث والأنعام ، وأنهم كانوا يقولون : إن الله هو الذى شاء فجعلهم وآباءهم مشركين ، وأنه لو لم يشأ لما أشركوا بعبادته أحدا : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ، ولا حرّمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا . قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون » ، وأنهم كانوا يتضرعون إليه ويستغيثون به فى الكوارث والملمات ، وأنهم جعلوا له بناتا وبنين وشركاء للجن .

فلم يكن أهل مكة إذن كما يتبين القرآن الكريم قوما وثنيين على النحو المفهوم من الوثنية ، وجماعة جاهلية مشركة لا تفهم شيئا عن وجود خلق وخالق ، اعتقدت بأله عديده ، وبأن الأصنام هى أرباب حقا تنفع وتضر . لا ، لم يكن الجاهليون على هذا النحو من الدين بل كانوا يعتقدون بوجود إله واحد خلق السموات والأرض ، فهم إذن فى عقيدتهم بالله موحدون . ولكن إذا كان أهل مكة على هذا النحو من العبادة فلم خاصموا الرسول وحاربه ؟

ولم آذوه وتأمروا فيما بينهم على قتله وعبادتهم هي عبادته وتوحيدهم توحيد إسلامي أو توحيد قريب من التوحيد الإسلامي ؟

أما الجواب : لم تخاصم قريش الرسول لعقيدته في الله . ولم يخاصمهم الرسول ويسفه أحلامهم لعقيدتهم تلك في الله ، إنما سفه أحلامهم وخصمهم لإضافتهم أمور إلى هذا التوحيد أبعدته عن التوحيد الخالص ، بأن جعلته شركاً أو نوعاً من التوحيد المشرك ، فجعلوا مع الله شركاء وتقربوا إلى الأصنام وذبحوا لها الأوثان ، وجعلوا له بنين وبنات ، وآمنوا بالجن إيماناً عطل كل سلطان وأمر الله واعتقدوا بالقربات وبالشفاعات لتقربهم إليه زلفى . فعقيدتهم في التوحيد نوع من عقائد النصرانية في الملائكة والقديسين الشفعاء بين الله والناس . وهذا ما حاربه ورفع الإسلام بأن اجتث الوساطة وجبهاً وجعل الدين خالصاً لله وعبادة بينه وبين عبده ، وطهر التوحيد من زوائد الشرك وهدم ما لم يتفق مع هذا التوحيد ، ولهذا غضبت صنائد قريش وأظهروا للرسول ما أظهوره من كفر وعناد .

وقد كان أصعب شيء على صنائد مكة تغيير ما توارثوه عن آبائهم وأجدادهم من سنن وعادات ، فقد كان الخروج عليها عاراً ومنقصة لا تليق بالشهم الكريم : « بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » . ثم إنهم كانوا يتعيشون من هذه العنونات ومن وصايتهم على الأصنام ومن سدانتهم ، وإسلامهم وإيمانهم برجل لم يرث مالا ولا يملك تجارة ولا عقاراً جاء بدين لم يألفوه ، يساوى بين الغنى والفقير والأسود والأبيض ، شيء لا يتفق مع ما ورثه القوم من سنن وعوائد اجتماعية . ومن هنا كان الإسلام في عرفهم هدماً وتقويضاً لعقيدة راسخة ونظام اجتماعي وسياسي يجب أن يدوم دوام السنين والأيام .

وقد أوردت في هذا الجزء من السيرة الخوار الذى دار بين كسرى أنوشروان وبين حكماء العرب عن فضل العرب وشرفهم ، وعلى الرغم من وضوح الوضع والتأليف فقد أثبتته لأبين أن العرب لم يكن لهم علم قبل الإسلام ، فقد اتسمت المحاورات بالسطحية وإيراد حكم استعارها كانت ذلك الحوار من حكم الأولين ، ولم يكن من أقوال الحكماء غير السجع والتكلف والفخر الرخيص .

إن القرآن الكريم الذى أنزل على محمد بن عبد الله يتيماً قريش هو باعث العرب ، وسيظل المنهل الذى ينهل منه العرب كلما أرادوا الرفعة إلى يوم الدين .

القاهرة فى ٢٠ / ٦ / ١٩٦٧

المراجع

- القرآن الكريم
تفصيل آيات القرآن الكريم
السيرة النبوية
السيرة الحلبية
تاريخ العرب قبل الإسلام
الأغاني
بلوغ الأرب
نهاية الأرب
الحضارة البيزنطية
- جول لا بوم
لابن هشام
لعلى بن برهان الدين الحلبي
للدكتور جواد على
لأبي فرج الأصفهاني
للألوسي
للنويري
لستيفن رنسيما — ترجمة جاويد
- Muslim Institutions, By : M . G . Demombynes
Islam and Theory of Interest, By : Anwar Lkbal Kurashi.
Three Contributions to the sexual Theory .
Islam and Socialism.
للدكتورة بنت الشاطئ .
لكريستينس — ترجمة يحيى
الخشاب .
لفاسي المكي الماكي
لابن كثير
- فرويد
ميرزا على
أم النبي
إيران في عهد الساسانيين
شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام
البداية والنهاية

القاضي عياض	الشفاء بتعريف حقوق المصطفى
للسهيلي	الروض الأنف
	تاريخ ابن خلدون
للمسعودي	مروج الذهب
لابن عبد ربه	العقد الفريد
لابن قتيبة	عيون الأخبار
لأرنولد توينبي — ترجمة شبل	مختصر دراسة للتاريخ
للمسعودي	وفاء الوفا بأخبار المصطفى

مَحَدُ رَسُولِ اللَّهِ

وَالَّذِينَ مَعَهُ

في عشرين جزءاً

رقم الإيداع ٢١٨٠

الترقيم الدولي ٥ - ١١٤ - ٣١٦ - ٩٧٧